T
102A

محمد الانصاري

ابن سعيد المغربي
(٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ ـ ١٢٨٥م)
حياته وآثاره

اطروحة مقدمة للدائرة العربية
بالجامعة الاميركية ببيروت
لنيل شهادة الماجستير

مايو (ايار)
١٩٦٦

تمهيـــد : هذا البحث

شهدت الاندلس في العصر الموحدى (من منتصف القرن السادس الى حوالى منتصف القرن السابع) فترة من اخصب فترات عطائها الثقافي . ففي هذه الفترة شهدت ظهور اعظم فلاسفتها ومتصوفيها على الاطلاق مثـــل ابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهدت عددا من كبار شعرائها ووشاحيهـا وزجاليها : كالرصافي البلنسي وأبي جعفر بن سعيد ، وابن زهر الحفيد والصابوني وابن سهل وابن حجدر كما شهدت رحالة من اشهر رحاليها الا وهو ابن جبير ، ونباتيا هو اعظم نباتي في تاريخها واعني به ابن البيطار . وفي حقل التصنيف عامة ظهر علمان يمكن وضعهما مع كبار المصنفين في المشرق والمغرب على حـــد سواء ، وهما : ابن الابار وابن سعيد .

هذه الفترة ـ رغم اهميتها الثقافية ـ لم تحظ بعد بحقها من الدراســـة والبحث . واذا قيل انه لا يوجد مبحث واحد يعتني عناية وافية بحركتهـــــا الثقافية او بجانب من جوانب هذه الحركة : ادبا او تصنيفا او فكرا او علمـــــا ، لم يكن ذلك تجاوزا للحقيقة . فالحديث عن هذه الفترة ثقافيا اما ان يكون تتمـــة لاستعراض عام لعصور الثقافة الاندلسية او اعلامها كما جاء في كتاب المستشـــرق الاسباني "بالنثيا" تاريخ الفكر الاندلسي" او في الجزء الخاص بالاندلس مـــن كتاب "ظهر الاسلام" لاحمد امين ، أو ان يأتي اكمالا لبحث يتناول التاريـــخ السياسي للاندلس في عصر الموحدين ويمر بالثقافة في المامة عابرة موجزة ، كما فـــي كتاب "تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين" للمستشرق الالمانـــــي يوسف اشباخ ، مثلا . ورجال الفكر والعلم الاندلسيون الذين ينتسبون الى هـــذه الفترة دُرسوا ضمن ابحاث عامة في تاريخ الفلسفة العربية ، او العلوم العربية دون ان تدرس افكارهم وشخصياتهم على ضوء بيئتهم المحلية واحداث عصرهم ، واذا كانت

الدراسات من النوع الاول لها اهميتها وضرورتها ، فان الدراسات من النوع الثاني لاتقل عنها اهمية وضرورة لما لها من شأن في ربط الفكرة والشخصية باطارهما الصلب : الزمان والمكان .

الا ان ظهور ابحاث عامة تتناول ثقافة العصر او فرعا من فروعها وتتمكن من التحقيق والضبط ومن التقويم والحكم في الوقت ذاته ، لا يمكن ان يقترب من حيز الامكان الا اذا مهدت لتلك الابحاث ذات الطابع العام والصبغة التقويمية دراسات جزئية تهتم بالتحقيق التاريخي او بتحقيق المخطوطات او بتسليط الضوء على شخصية من شخصيات العصر على ان تدرس تلك الشخصية ضمن اطارها الزماني والمكاني . ان تحقيق الهدف الاول مرتبط اشد الارتباط بهذا النوع من الدراسات التي قد تبدو قليلة الاهمية اذا فصلت عن اطارها العام ، ولكن النظرة المتمعنة الشاملة لابد ان تكتشف مالها من اهمية حقيقية ومن ضرورة حتمية . وهذا امر تغفل عنه احيانا حتى بعض الاوساط الجامعية التي تميل الى التشديد على اهمية العطاء الذاتي في البحث العلمي . نعم ان التشديد على هذه الناحية حق وواجب وضرورة . فلا خير في دراسات جامعية تجعل من الدارس آلة لتحقيق المخطوطات وجمع الروايات من الكتب القديمة وتنظيمها وتبويبها ... ثم تقف به عند هذا الحد ! ان ذلك وسيلة لا غاية ، والغاية القصوى هي ان يتعود المرء على الاساليب السليمة للحكم والتقييم حتى يتمكن عندئذ من اعطاء كلمة لها قيمة في شؤون النتاج العقلي ومسائل التراث فيتمكن الناس من ارساء قواعد حياتهم على اسس بينة فيما يختص بعلاقة الحاضر بالماضي وفيما يختص بتطلعاتهم الجديدة نحو المستقبل . هنا نهاية المطاف ، وعلى كل باحث ان يتطلع نحوها سواء تمكن من الوصول الى تحقيقها بنفسه او ~~يعين~~ ساهم في الجهود المتجهة نحوها . ورأيي الخاص ان اى باحث يقوم بابحاثه في ابراج عاجية بعيدا عن تطلعات امته والانسانية وشؤونهما وشجونهما — شجونها خاصة — هو امرؤ ينقصه الشعور بشرف الالتزام بالمسؤولية .. الالتزام بمعناه الانساني الابعد ، والمسؤولية بمغزاها الحياتي الاعمق ....

.../..

كل هذا حق وواجب وضرورة .

ولكن .. لابد مما ليس منه بد . اذ ليس بالامكان ان نصل الى الاحكام القائمة على اساس علمي راسخ الا بمثل هذه الابحاث الجانبية الجزئية التي تضيف لبنة الى لبنة في البناء الكبير . واذا كان عصر من عصور الثقافة العربية يحتاج دراسة وبحثا في جوانبه المختلفة فهو عصر الموحدين في الاندلس خاصة .

وهذا البحث المتواضع عن ابن سعيد — أحد كبار المصنفين — هدفه الاسهام البسيط في خدمة لتلك الغاية الكبيرة التي تحتاج حتى تتحقق الى باحثين ذوى بأس شديد . ولقد اخترت ابن سعيد من بين رجالات العصر الموحدى في هذا للبحث الذى اتقدم به الى الدائرة العربية لعدة اسباب ، وهي :

اولا : ان ابن سعيد ، رغم تعدد مصنفاته وتنوع موضوعاتها ، مصنف تغلب عليه الصبغة الادبية في كل ما يكتب . بكلمة اخرى انه جمع في ثقافته بين فروع علمية كالتاريخ والجغرافيا والفلك وبين الميل الادبي القوى ، وقد التحم هذا الجمع في شخصيته بقوة حتى غدا طابعا مميزا له . وعليه فان ابن سعيد يمثل نمطا ثقافيا له مكانته وميزته الخاصة في العصر الموحدى يحسن الالتفات اليه .

ثانيا : ان عددا من كتبه كالمغرب والقدح المعلى ورايات المبرزين والغصون اليانعة تعتبر مصادر اساسية ومهمة في كتابة التاريخ الاندلسي ودراسة الادب الاندلسي في العصور السابقة عامة وفي هذا العصر خاصة . فالمغرب — باعتراف المختصين في الادب الاندلسي — وثيقة لا تقدر بثمن في دراسة شعر الاندلس وشعرائها ، والقدح هو الآخر وثيقة هامة فيما يختص بتصور الحركة الثقافية خلال الخمسين سنة الاخيرة من حياة الاندلس . ورجل لمصنفاته مثل هذه الاهمية لا بد ان يدرس من جوانبه المختلفة حتى تعرف ميوله واتجاهاته : شخصيا وعلميا وادبيا ، وحتى يستفاد من مصنفاته تلك بعدئذ على ضوء تلك الميول والاتجاهات ، فان ذلك اسلم وافيد لدقة البحث العلمي وصفاء الحقيقة التاريخية . وما اشد تأثر المصنفات القديمة بميول اصحابها واتجاهاتهم . ولقد اهتم الباحثون بأصحاب المصنفات الهامة التي

.../..

تعتمد باعتبارها مصادر اولية في الدراسات التاريخية والادبية وذلك تحقيقا لتلك الغاية ، فدرسوا ميول اصحابها الشخصية واتجاهاتهم النقدية والمذهبية والجنسية اذكر من هذه الابحاث في النطاق الادبي البحث الذى كتبه استاذنا الدكتور جبرائيل جبور عن " ابن عبد ربه وعقده " والبحث الذى كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن " صاحب الاغاني ، ابو الفرج الاصفهاني الراوية " . وهذا البحث عن ابن سعيد يسير ، من ناحية ، في هذا الخط فيحاول الكشف عن اتجاهات ابن سعيد في التصنيف والنقد ، وعن ميوله الشخصية ويربط ذلك كله بمصنفاته التي يعطي اهمها التفاتا خاصا . فهو اذن بحث عن " ابن سعيد ومغربه " الى حد كبير ان قصد بذلك هذه الغاية .

ثالثا : وجدت ان ابن سعيد ، هذا المصنف والاديب والرحالة الجغرافي ، قد غمط حقه من الذكر والتعريف . فمعظم المصنفين القدامى الذين هم في مستواه كتبت عنهم التعريفات والابحاث واصبحوا معروفين لدى دراسي الادب والتاريخ . حتى ان الابار — زميل ابن سعيد وشريكه في الجهود التصنيفية — كُتب عنه بحثان : بحث عام عن حياته وآثاره للدكتور عبد العزيز عبد المجيد وبحث خاص يركز على مؤلفه الضخم " الحلة السيراء " للدكتور عبد الله انيس الطباع . وابن سعيد ليس اقل من ابن الابار مكانة وشهرة فلقد كان ذا شهرة واسعة في الاندلس والمغرب ثم انه امتاز عن ابن الابار برحلاته العلمية المفيدة الى المشرق وبجهوده في حقل الجغرافية .

رابعا : هناك ميزة في ابن سعيد تختفي خلف شهرته الادبية الواسعة . تلك هي شخصيته الجغرافية ~~الحديثة~~ ، وهذا ليس من باب تضخيم اهمية ابن سعيد بل ان الادلة التاريخية والابحاث الجغرافية الحديثة تدل على ذلك . فابن سعيد امتداد هام للمدرسة " الادريسية " في الجغرافية بل انه تلميذ الادريسي ، هذا الجغرافي الاندلسي - الصقلي النابه وخليفته . ومن ناحية اخرى فان مذكرات رحلته " عن مصر خاصة — تذكرنا — من حيث اهميتها الاجتماعية والتاريخية وطابعها الشخصي معالم بمذكرات مواطنه ابن جبير . وهكذا سنرى كيف اجتمع الادريسي من ناحية وابن جبير من ناحية اخرى في شخصية ابن سعيد الجغرافي الرحالة .

. . . / . .

هـذا من حيث الاختيار ، اما من حيث المصادر فقد امكن الاطلاع على اغلب مؤلفات ابن سعيد بين مطبوعة ومخطوطة . الكتاب الهام الذى لم يمكن الاطلاع عليه هو كتاب " وصف الكون " في الجغرافيا ، الموجود بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطاني بلندن ، والذى يعتقد انه مختصر لكتاب كبير باسم " كتاب الجغرافيا في الاقاليم السبعة " الا ان ما امكن الاطلاع عليه في هذا المجال مختصر آخر هو " بسط الارض في الطول والعرض " ، وان كان من المعتقد ان هذا الاخير اقل جودة من الاول. اما ما عدا ذلك فان مصنفاته المتيسرة لدينا يمكن ان تعد كافية لدراسة نهجه ، وعلمه ، وآرائه النقدية ، وشخصيته ، وشعره الى حد ما . الا انها من ناحية اخرى لا تعطينا صورة دقيقة متكاملة عن تاريخ حياته الطويلة الحافلة . فترجمته في "القدح المعلى " يبدو ان الاختصار قد اخل بها فجاءت ناقصة مبتورة رغم ان هذا الكتاب كان قد الف في زمن متأخر بالنسبة للمغرب الذي تضمن ترجمة ناقصة له أيضاً.

ومن هنا اهمية المصادر التي تترجم لابن سعيد والتي يمكن ان تكون موثوقة على اساس القرب المكاني والزماني من موطن الرجل وعصره . ومما نقله المقرى في النفح عن احاطة ابن الخطيب يتضح ان هذا الاخير ، الذى يمكن الاعتماد عليه مؤرخا موثوقا لحياة ابن سعيد ، قد اولاه اهتماما كبيرا وانه ترجم له في الاحاطة باسهاب الا انه عند الرجوع الى مخطوطة الاحاطة تبين ان ترجمة ابن سعيد فيها اوجز بكثير مما ذكره المقرى مما يشير الى امكانية نقل المقرى عن مخطوطة للاحاطة ادق واكمل من هذه المخطوطة التي بين ايدينا . ولا داعي لان يثير هذا الاختلاف الكثير من الشك فالحقائق الاولية مشتركة بين المخطوطة وبين ما نقله المقرى والفرق في الحكايات والاشعار وليس في الاخبار المهمة . وايا كان الامر فان جلاء هذه المسألة من مسؤولية المهتمين بتحقيق الاحاطة ومقارنة نسخها . اما فيما يختص ببحثنا فقد اعتمدنا الاحاطة فيما اوردته ورجعنا الى المقرى فيما اسهب في نقله . والى جانب اعتمادنا ~~[illegible]~~ على المقرى في نقله عن ابن الخطيب ، اعتمدنا على المادة القيمة التي اوردها من

.../..

كتب ابن سعيد الضائعة وعلى الاخص ديوانه . وبصورة عامة يمكن القول ان النفح اهم مصدر يستند اليه هذا البحث بعد كتب ابن سعيد نفسه .

وبالاضافة الى ذلك ، يمكن وضع وفيات ابن شاكر في عداد مصادرنا المعتمدة نظرا لتقدم زمنه (كتب سنة ٧٥٤هـ) ونظرا لكونه مشرقيا - فهو مصدرنا المشرقي الاهم - ونظرا لانه يخالف المصادر المغربية في مسألة وفاة ابن سعيد اما مسالك الابصار لابن فضل الله العمرى فتنحصر اهميته في ايراده اشعارا لابن سعيد لم ترد في كتبه او في النفح ، وفي نقله لفصل مهم كتبه ابن سعيد في المقارنة بين المشرق والمغرب ولم يصل الينا منه غير شذرات متفرقة في النفح . ويفيدنا "المنهل الصافي" لابن تغرى بردى في تصويره للعلاقة الحميمة بين ابن سعيد وشاعر مصر الكبير في تلك الفترة البهاء زهير وفي تأكيده لوفاة ابن سعيد بالشهر واليوم حسب رواية ابن شاكر في الوفيات . ويمثل الديباج المذهب لابن فرحون مصدرا مهما بالنسبة للتحقيق في ثقافة ابن سعيد الدينية ، بينما يسعفنا تاريخ علماء بغداد لابن رافع السلامي باطلاعنا على بعض ظروف دخوله الى بغداد .

وفيما يختص بالتصور العام لعصر ابن سعيد ثقافيا اعتمدنا كتبه وخاصة المغرب والقدح بالاضافة الى مصنفات زميله ابن الابار كالتكملة "والمقتضب من تحفة القادم" ، وكتاب الغبريني "عنوان الدراية" الذى يصور نشاط الاندلسيين في تونس بعد النكبة . اما فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للعصر فليس ثمة كتاب معين يهتم بهذه الناحية وكل ما وصل الينا من اخبار تلك الاحداث هو الشذرات المبثوثة في الكتب التي صنفت خصيصا لتاريخ المغرب والتي تذكر اخبار سقوط المدن الاندلسية واحوال امرائها المحليين من حيث علاقتها بدولة الخليفة الموحدى المغربي وبسجل اعماله وحروبه والثورات التي قامت ضده . وينطبق هذا الوصف على اهم مصدرين عن تلك الفترة وهما "البيان المغرب" لابن عذارى الذى كتب اواخر القرن السابع الهجرى وسجلت مادته بشيء من الاناة والتفصيل ، وكتاب "روض القرطاس" لابن ابي زرع الذى كتب اواخر الربع الاول من القرن الثامن الهجرى عهد الدولة المرينية . اما ابن خلدون فقد

.../..

اعطى شيئا من الاهتمام لتلك الاحداث عندما ذكرها استطرادا عند حديثه عن ملوك الطوائف في الجزء الرابع ثم عاد الى الحديث عنها بعد ما يزيد عن قرن ونصف من وقوعها في الجزء السادس • وقد تم الاعتماد على هذه المصادر الثلاثة مع التفات خاص الى اقدمها واقربها منع مسرح الاحداث الا وهو " البيان المغرب " • ونظرا لان احداث هذه الفترة على علاقة قوية بتحرك الامارات الاسبانية الغازية ، فقد يمتاز بانه اعتمد على الروايات الاسبانية ونسقها مع اخبار المصادر العربية •

اعتمد كتاب يوسف اشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين في

وفيما يتعلق بفهم طابع الادب الاندلسي في العصور السابقة ، والظواهر المصاحبة له " والتيارات البارزة فيه فقد اعتمدته على كتاب الدكتور احسان عباس " تاريخ الادب الاندلسي " بجزئيه باعتباره اشمل المراجع وادقها واكثرها قربا من الـــــــروح المنهجية •

— — — — —

وفي الختام اود ان اعبر عن بالغ شكرى وتقديرى لاستاذى الدكتور احسان عباس الذى لولا اشرافه التوجيهي على سير البحث ، ومساعدته الكريمة المطلقة في مجال تهيئة المصادر مخطوطة ومطبوعة ، لما امكنني اتمام هذه الرسالة راجيا من جميع اساتذتي الكرام حسن القبول •

محمد الأنصارى

مايـــــو ١٩٦٦

مقدمـــــــــــــــة

عصـــــــر ابن سعيـــــــد وبيئتـــه

١ ـ صورة عامة للبيئة السياسية والثقافية في المشرق والمغرب

٢ ـ الاندلس في عصـــر ابن سعيـــد

٣ ـ اشبيلية في عصـــر ابن سعيـــد

٤ ـ بيئته العائلية : اسرة بنـي سعيـــد

مقدمـــــة عصر ابن سعيد وبيئته

(النصف الاول من القرن السابع الهجرى ـ النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى)

سألتزم في هذه المقدمة خطة الانتقال من العام الى الخاص ثم الى الاخص في سبيل اعطاء صورة موضحة تصلح ان تكون اطارا لدراسة ابن سعيد ، فأتحدث اولا ، حديثا موجزا عن البيئة الكبرى التي عرفها المترجم به في المغرب والمشرق ، ثم انتقل الى الحديـــث عن الاندلس ، بيئته الاصلية التي جال ارجاءها في دور مبكر من حياته ثم اتناول بالحديث بيئة اشبيليه التي شهدت نشأة ابن سعيد والدور الثقيفي في صباه وشبابه ، ثم اصـــل من ذلك الى البيئة العائلية التي تمثلها اسرة بني سعيد عامة.

١) صورة عامة للبيئة السياسية والثقافية في المشرق والمغرب :

جال ابن سعيد في اقطار كثيرة من العالم الاسلامي ، واتصل بالعديدين من امرائـــه وعلمائه ، وعاش في كثير من مراكز ثقافته مطلعا ومسجلا. ولقد اثرت حوادث عصره فـــي حياته تأثيرا مباشرا قويا بحيث لايمكن تتبع تاريخ حياته ، وفهم نتاجه ، وتفسير طابعـــه العلمي والادبي دون الالتفات الى عصره في احداثه الهامة وخصائصه الثقافية العامـــة والزى الاجتماعي السائد في العالم الاسلامي الذى زاره ، وهو زى يمثل ـ رغم تباين الالوان المحلية ، وحدة ثقافية حضارية ذات سمات متقاربة بحكم التفاعل المستمر القوى بين اجزائه.

ولقد كان عصر ابن سعيد ، القرن السابع الهجرى ، عصر تحول وتغير في مختلف مناحـــي الحياة : تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي بل حدوده ذاتها ... واختفت دولات واسرحاكمة وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من مدن الى اخرى ، بل من اقطار الى اخـــرى ، وبرزت على صعيد الادب والفكر والفن والاخلاق والاجتماع اتجاهات وخصائص لم تكـــن موجودة او متبلورة من قبل ، ويكاد الحديث عن عصر ابن سعيد في هذه المقدمة الموجزة ان يكون امرا بالغ العسر ولذلك فان اجمال بعض المظاهر هو كل ما يسعف عليه المقام ، راجيا الا يسلمني ذلك الى تعميمات مخلة بالدقة العلمية.

..../..

١ - شهد هذا القرن في مطلعه دولتين كبيرتين في العالم الاسلامي : الايوبية التي كانت تتمركز في مصر والشام وتمد نفوذها الى بعض انحاء الجزيرة والعراق ، والموحدية التي كانت تحكم الاندلس والمغرب والغرب الاوسط (الجزائر) وتونس. وهاتان الدولتان اللتان ستشهدان مصرعهما حوالى منتصف القرن ، هما وليدتا ردة الفعل الاسلامية تجاه الاوضاع المضطربة اثر انهيار دول الخلافة والامارة الكبرى او تفسخها، وبعيد اشتداد الضغط الخارجي المتمثل في الحملات الصليبية (منذ ٤٩٠هـ/ ١٠٩٥) وفي ازدياد خطر الدويلات النصرانية في اسبانيا خلال فترة القرن وربع القرن المنصرمة.

فالدولة الايوبية (٥٦٥- ٦٥٠ هـ / ١١٦٩-١٢٤٩) نشأت امتدادا لدويلة عماد الدين زنكي السلجوقية التي قامت باعباء الحرب في الحملة الصليبية الثانية (٥٤٥ هـ/ ١١٤٧ م) كما انها خلفت الدولة الفاطمية في مصر التي لم تتمكن من مواجهة الخطر الخارجي بسبب التفكك الداخلي . وقد استطاعت الدولة الايوبية ان توحد مصر والشام وان تقف في وجه الحملات الصليبية المتكررة وتهزم الصليبيين نهائيا وان ترعى نهضة ادبية علمية في مراكز دولتها الكبرى كالقاهرة ودمشق وحلب.

وكما وقف الايوبيون في وجه الصليبيين ، وقف الموحدون في وجه الاسبان ردحا من الزمن (٥٣٩ - ٦٢٤ هـ / ١١٤٣ -١٢٢٦ م) واستطاعوا اقامة دولة مغربية كبرى تشمل الاندلس والمغرب والمغرب الاوسط وتونس وقسما من افريقيا الغربية.

وفي ظل الحكم الموحدى الذى استطاع اشاعة الاستقرار والثقة ، شهد المغرب الاسلامي ذروة نهضته الفكرية التي تمثلها شخصيات كابن طفيل (٥٨١) وابن رشد (٥٩٥) وابن جرج (٦٠١) وابن عربي (٦٢٨).

الاان ردة الفعل القوية التي اسهمت في خلق هاتين الدولتين مالبثت ان اصيبت باعياء واسترخاء ، فقد شهدت الدولتان صراعا داخليا عنيفا سهل للقوى المحلية المنافسة والقوى الخارجية الغازية القضاء عليهما . فعلى صعيد دولة الموحدين اشتد الصراع على الحكم بين امرائها واشياخها واضطرت للتراجع عن الاندلس امام الثورات المحلية والزحف الاسباني حوالى نهاية الربع الاول من هذا القرن . وهذا ماسيتم الحديث عنه بشيء من التفصيل عند التركيز على الوضع في الاندلس خاصة.

.../...

اما الدولة الايوبية فما لبثت ان تحولت الى امارات متناحرة اضطرت تدريجا الى الاستسلام لسلطان المماليك المتعاظم (منذ حوالى سنة ٦٥٠ هـ) عندما بدأ خطر المغول يبدو للعيان من اقصى الشرق ...

وقد برز ضعف العالم الاسلامي بصورة صارخة عندما سقطت بغداد عند اقدام هولاكو سنة ٦٥٦ . وكان ذلك السقوط، الى جانب مغزاه السياسي ، نكبة ثقافية ونفسية برزت آثارها في العالم الاسلامي كله. وكان من ضمن ماعنته تهديد التراث المكتوب في الصميم. ولولا ان دولة المماليك تمكنت من توحيد مصر والشام وايقاف المد التترى في عين جالوت سنة ٦٦٠ هـ ، لكان من المحتمل ان يتغير الوجه الحضارى للمنطقة وتتعرض آثار الثقافة والعمران الاسلاميين لمصير غامض. ولكن قيام هذه الدولة في القطرين اللذين رعيا حركة العلم في العهد الايوبي ادى الى استمرار ظاهرة التأليف والتصنيف بالرغم من ان امراء المماليك لم يكونوا كالايوبيين علما وانفتاحا على الثقافة العربية وتشجيعا للعلماء.

٢ — وفي هذا الجو السياسي كان موقف امراء المغرب من موحدين وحفصيين ازاء الحركة العلمية موقفا مشجعا وسأتحدث عن ذلك تفصيلا بعد قليل ، اما في المشرق فكان الموقف مشابها فقد انفتح الايوبيون على الثقافة العربية الى حد بعيد حتى نبغ منهم المتأدبون والشعراء كالملك الناصر صاحب حلب والناصر داود صاحب الكرك ، وفي ظلهم نشط في مصر الفقه السياسي بعد ركوده في العصر الفاطمي كما ازدهر الشعر والادب في كل من القاهرة ودمشق وبرزت شخصيات ادبية كابن سناء الملك (-٦٠٨ هـ) وابن الفارض الشاعر الصوفي (-٦٣٢) وابن مطروح (-٦٤٩) وابن ابي الاصبع (-٦٥٤) والبهاء زهير (-٦٥٦) وكمال الدين بن العديم (-٦٦٠) ونجم الدين الدمشقي (-٦٧٧) وابي الحسين الجزار (-٦٧٩) . وسيجتمع ابن سعيد بمعظم هؤلاء ويكون معهم صداقات علمية وشخصية.

وفي ظل الحكم المملوكي ركدت الحياة الثقافية بعض الشيء ولكن الاستقرار الذى ساد المنطقة بعد انتهاء المدين الصليبي والمغولي ساعد على التوفر للبحث والتنقيب فبدأت تظهر المصنفات الشاملة والموسوعات الضخمة.

والطابع العام للحياة العقلية في هذا العصر غلبة النزعة السنية واشتداد قوتها في الدين والفكر ، وسيطرة الشكل والزخرف على حساب الفكرة والشعور في الآداب والفنون ، وقوة الميل نحو الجمع والنقل والاختصار والشرح في حقل التأليف والتصنيف.

وقبل اطلالة هذا القرن كانت الاحداث الهامة التالية قد تمت في حياة الفكر العربي :

أ - الغى صلاح الدين المذهب الشيعي في مصر وجعل من المذهب السني مذهبا رسميا للدولة تدافع عنه ، وتعلمه في معاهدها وتلتزم به وتذيعه ، وقد شفع ذلك بمقاومته العنيفة لفرقة الاسماعيليين الباطنية في شمال سوريا .

ب - استشهد السهروردى صاحب الفلسفة الاشراقية على يد الظاهر بن صلاح الدين في حلب بضغط شديد من فقهاء السنة .

جـ - نكب ابن رشد على يد الخليفة الموحدى ابي يوسف المنصور ، بضغط شديد ايضا من المحافظين فنفي ومنعت كتبه من التداول . ورافق ذلك وقوف الدولة الموحدية ضد الفلسفة وفقه الفروع وتشجيعها الرسمي لعلم الحديث وفقه الظاهرية .

وقد سبق بروز هذه الاتجاهات الهامة خلال القرن السادس، انتصار تفكير الغزالي وسيادته ونصرة الدولة السلجوقية له وتبنيها لارائه . كما مهد لتلك الاتجاهات ورافقها جو من الحماس الديني ضد الصليبيين والاسبان في الخارج وضد الامارات والفرق غير السنية التي لم تتمكن من الوقوف في وجه الاعداء من ناحية والتي كانت تميل من ناحية اخرى الى انماط من التفكير لاترضى عنها النزعة الدينية المستقيمة الصارمة كتشجيع الفلسفة وتبني الاراء الباطنية .

وهكذا فما ان اطل القرن السابع الا والاتجاه السني المحافظ ينيخ بكلكله في قوة وثقة على ارض الحياة الفكرية العربية من بغداد وحلب الى اشبيليه وتونس . وقد ادى هذا الاتجاه الى ازدهار الدراسات القرآنية ضمن الاطار السني والى زيادة الاهتمام بالحديث النبوى باعتباره مصدرا هاما للسنة والى تشجيع المدارس الدينية والمحافظة على كتب التراث الديني والتاريخي . وكان من الطبيعي ان يؤدى هذا الاتجاه الى تقوية نفوذ الفقهاء على الصعيدين الثقافي والسياسي على حد سواء .

٣ - وعلى صعيد الفن ، يمكن القول ان الفن الاسلامي في هذا العصر بلغ ذروته كما تمثل في الاثار التصويرية والزخرفية ، الايوبية والمملوكية ، وكما تمثل ايضا في الاثار المعمارية المشهورة كعمارات دمشق وحلب ، وكجامع السلطان حسن في القاهرة ، وجامع اشبيلية ذى المنارة المعروفة بالجيرالدا ، و "القصر" الاشبيلي . والخاصة المميزة للفن - في هذا العصر بالذات - ميله الشديد الى الزخرف ، تلك الظاهرة التي عرفت عن

المدرسة الايوبية الفنية في الشام والتي انتقلت الى مصر في عهدى الايوبيين والمماليك (١) وكذلك تتفق المدرسة الاندلسية مع الايوبية " في الاستناد على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاظهار ما فيها من سحر وجمال "(٢) .

وقد ادى هذا الميل الزخرفي الى غلبة الشكل على الموضوع ،فاعتنى الفنانون - حتى في تصويرهم للبشر - بتزيين الملابس ونقشها بالالوان البهيجة دون ان يلتفتوا الى اظهار الانفعالات والاحاسيس على الوجوه التي اتصفت بالجمود وعدم المشاركة في جو الصورة المحيط بها .

وهذا الطابع الشكلي الزخرفي ذاته غلب على الادب وعلى التوجيه النقدى . وان اهتمام الشعراء المسرف بالصور البيانية والمحسنات البديعة وميل النقاد الشديد لشرح وتعديد هذه المسائل لدليل واضح على غلبة هذه الظاهرة. وسنرى مدى تأثير ذلك على ابن سعيد في نقده وشعره واعماله التصنيفية الاخرى من خلال التيار النقدى والمذهب الشعرى الذى يتحرك في اطاره .

٤ - وفي حقل الانتاج الثقافي عموما اختفت الظواهر التجديدية اوكادت واصبح العقل اميل الى التقليد وقد ادت الى ذلك عوامل كثيرة ابرزها الاعياء الذى اصيبت به الحضارة العربية بعد قرون ستة من الفعل الحضارى المتنوع ، واستنزاف الطاقة في فتن داخلية وحروب خارجية ، وسيادة النزعة السنية التي ترفع بطبعها من شأن القديم . ثم ان تراكم التراث الثقافي عبر العصور واتحاده مع عامل الزمن جعل منه كائنا حضاريا له جلاله ان لم نقل قدسيته ، في نظر العقول في العصر الذى نتحدث عنه ، وهو عصر كما تبين لنا - سادت فيه الحركات " الاحيائية "على صعيد العمل السياسي والنشاط العقلي -وتمثلت في حركة صلاح الدين وماخلفته من آثار وفي حركة ابن تومرت وعبد المؤمن الموحدى وما ادت اليه من نتائج .

وهكذا اصبح هدف النشاط العقلي فهم التراث والتلاؤم معه وتقليده - وان وجدنا بعض المذاهب في الادب خاصة - تقول بافضلية الجديد او مساواته مع القديم فما ذلك الا

.../..

---

١) زكي حسن ، فنون الاسلام ، ص٤٨ ٢ ـ ٤٩ ٢

٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ٢ ، ٧٨٢ - ٧٨٣

من شدة الاحساس بوطأة ذلك القديم . والواقع ان انصار امثال تلك المذاهب كانوا يفكرون في تجديدات شكلية كالاسراف في البيان والبديع ، ولم يكونوا يعبرون عن معارضة جوهرية للانماط السائدة الموروثة في المعطيات الفكرية الرئيسية .

ونتيجة لذلك سنرى كيف ان هذا العصر سيكون بداية لتلك الاعمال الجمعية التصنيفية الكبرى التي تشبه الموسوعات او الاعمال التلخيصية الموجزة اوالاعمال التفسيرية التي تهتم باعطاء الشروح . وكل هذه الاعمال هدفها الاكبر خدمة التراث وتسهيل الطريق امام العقل المعاصر ليفهمه ويتلاءم معه ، ذلك العقل الذى كان همه الاكبر طلب "القاعدة" و "القانون" المستخرجين من كتب القدماء ، وهو ان حاول التجديد ففي الفروع والتفاصيل ومن هنا يمكن تفسير ولوع العقل في هذا العصر والعصور التالية بالجزئيات وصغائر الامور — فهنا فقط يمكن التجديد .

والواقع ان القاء نظرة عجلى على امهات الكتب التي ظهرت في القرن السابع تكفي لاقناع المرء بانتشار هذه الظاهرة وسيطرتها على الحياة الثقافية . ففي حقل حفظ النصوص الشعرية والنثرية وجمعها وتبويبها لدينا مجهود ابن سعيد نفسه (-٦٨٥) في كتابيه الضخمين "المغرب" و "المشرق" اللذين امضى في سبيلهما عمره متنقلا مسجلا : في هذين الكتابين حاول ابن سعيد تقديم نتاج الاقطار الاسلامية قطرا قطرا ومدينة مدينة في ميدان الشعر خاصة منذ بداية ظهور النتاج الشعرى فيها حتى عصره .

وفي حقل الدراسات القرآنية ظهر " تفسير " الفخر الرازى (-٦٠٦) وكتابه في "اعجاز القرآن" كما صنف ابن ابي الاصبع العدواني (-٦٥٤) كتابي "البرهان في اعجاز القرآن" و "بدائع القرآن" .

وفي ميدان اللغة والبلاغة والنقد ، قام ابو البقاء العكبرى (-٦١٦) بشرح ديوان المتنبي ومقامات الحريرى ، وعمل السكاكي (-٦٢٦) على ايجاز وتقعيد كل من الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض في كتابه "مفتاح العلوم" الذى شغل الشراح والملخصين فترة طويلة من الزمن ، وفي الوقت ذاته كان ضياء الدين ابن الاثير (-٦٣٧) يلخص الذوق الفني والبراعة الفنية في كتابه "المثل السائر" الذى وصف بانه "بمنزلة اصول الفقه لاستنباط ادلة الاحكام" . كما قام ابن ابي الحديد (-٦٥٥) بشرح نهج البلاغة وعمل الزنجاني (-٦٥٥) على وضع شروح وملخصات في الصرف والنحو ، وقام ابن مالك (-٦٧٢) صاحب "الالفية" بعمل مماثل في ميدان النحو .

.../..

اما في حقل التاريخ العام وتاريخ الدول فقد الف عبد الرحمن بن الجوزى (٥٩٧) كتابه "المنتظم" ووضع عز الدين بن الاثير (٦٣٠) موسوعته الهامة "الكامل" وارخ عبدالواحد المراكشي (٦٢١) لاخبار الدولتين المرابطية والموحدية في كتابه "المعجب". وفي حقل التراجم وضع ياقوت الحموى (٦٢٦) "معجم الادباء" - بالاضافة الى موسوعته الادبية - الجغرافية "معجم البلدان" - كما وضع ابن شداد (٦٣٢) كتاب "النوادر السلطانية" في سيرة صلاح الدين وترجم جمال الدين القفطي (٦٤٦) للعلماء على اختلاف منازعهم من اطباء وفلاسفة ولغويين في كتابيه "اخبار العلماء" و"انباء النحاة" كما ترجم للعلماء ابن ابي اصيبعة (٦٦٨) في "عيون الانباء" وفي نطاق التراجم ايضا الف ابن الابار البلنسي (٦٥٨) اهم مصنفاته مثل: "تكملة الصلة" و"المعجم" و"الحلة السيراء". وفي اواخر القرن كان ابن خلكان (٦٨١) يترجم لمشاهير العلماء والوزراء والشعراء منذ فجر الاسلام حتى زمنه في موسوعته الضخمة "وفيات الاعيان".

ومن الظواهر الثقافية الاخرى التي يحسن الالتفات اليها في هذا العصر مايلي:

أ- استمرار اشراف الدولة على معاهد العلم - الديني خاصة - وتشجيعها لها. وقد تمثلت هذه الظاهرة في المدارس الايوبية في مصر والشام والمدارس الموحدية في الاندلس ومراكش على حد سواء. وقد ادى ذلك الى ارتباط النشاط الثقافي ارتباطا قويا بالحكم واتجاهاته.

ب- زيادة العناية بالمكتبات الخاصة والعامة لحفظ كتب التراث المتراكم. وقد اعتنت المعاهد الرسمية بهذه الناحية كالمدرسة الفاضلية في القاهرة والنظامية ببغداد، بالاضافة الى الجهود الفردية في جمع الكتب الثمينة كجهود كمال الدين بن العديم والقفطي.

ج- قوة الاحتكاك بين رجال العلم: وحدث احتكاك بين رجال العلم المسلمين في هذا القرن بشكل واسع، وكانت الدواعي متعددة: فالذين كانوا يجمعون نصوص الشعر والنثر والروايات جالوا في الاقطار لجمع مادتهم، والذين تعرضت مدنهم للغزو كالقرطبيين والبلنسيين والاشبيليين والبغداديين رحلوا الى مراكز ثقافية اخرى التجاء وابتغاء للرزق. كما كان الرحالة من الجغرافيين يجوبون الاقطار معرفين الناس ببلدان العالم محببين اليهم الرحلة كالسائح الهروى (٦١١) صاحب "الاشارات الى معرفة الزيارات" وعبد اللطيف البغدادى

.../..

(٦٢٩) ، والقزويني (٦٨٢) والعبدري (٦٨٨) . وقد ساعد ذلك كله في تقوية التفاعل بين اجزاء العالم الاسلامي ، وابعد الاشخاص اثرا في هذا الميدان اولئك العلماء المغاربة الذين رحلوا الى المشرق حيث عرفوا اهله باحوال المغرب ثم عادوا الى بلادهم لينقلوا اليها صورة عن المجتمع الشرقي والثقافة المشرقية . ولربما كان ابن سعيد في طليعة هؤلاء العلماء المغاربة في هذا القرن . فلقد عرف المشارقة بالمغرب عبر كتابه الكبير " المغرب " وكتابه الشعري المختصر " رايات المبرزين " كما انه الف كتاب " المشرق " وكتاب " الغصون " اللذين يحويان مادة عن المشارقة وادبهم .

٢) الاندلس في عصر ابن سعيد

بين ٥٩٥-٦٤٦ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤٨م /

١ - تمهيد :

هذه الحقبة التي سنخصها بشيء من التفصيل - تمهيدا لدراسة ابن سعيد ، ومحاولة لفهم الجو السياسي والثقافي الذى نشأ فيه وتأثر به - تقع بين حادثين زمنيين مهمين يجعلان منها حقبة متميزة بذاتها . اما الحادث الاول فهو وفاة الخليفة الموحدى العظيم ابي يوسف يعقوب المنصور ، قاهر جيوش الاسبان في معركة الارك (٥٩١) - آخر معركة ثبت فيها الوجود العسكرى الاسلامي في اسبانيا - والقيم على ازهى حركة فكرية شهدها الغرب الاسلامي - حركة ابن طفيل وابن رشد - سنة ٥٩٥ هـ ، وتولي ابنه محمد الناصر اللين العريكة ، المفتقر الى الحزم الحكم مكانه ، هذا الخلف الذى سيقود جيوش الموحدين الى الهزيمة المنكرة في موقعه العقاب (٦٠٩) - بداية النهاية في التاريخ الاندلسي - والذى سينعزل بعدئذ في قصره بمراكش ليتلاشى في حياة لاهية[1] . اما الحادث الثاني فسقوط اشبيلية - عاصمة الاندلس الموحدية - في يد فرديناند الثالث ملك قشتاله ورحيل اميرها الموحدى ابي عبدالله بن ابي العلاء ادريس المأمون عنها - مع جموع غفيرة من اهاليها سنة ٦٤٦[2] .

.../..

---

١) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦٠

٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ٦/ ٢٥٨

أى اننا سنصحب الاندلس في عهد سقوط مدنها الرئيسية — عدا غرناطة — في يد الاسبان ونصحب اشبيليه العربية خلال سنينها الخمسين الاخيرة منذ انتهاء آخر عصر ذهبي لها بوفاة المنصور حتى سقوطها الاخير. والواقع ان هذه اللوحة الختامية من المشهد الاندلسي لوحة صارخة الالوان ، صاخبة الحركة ، متشابكة الاضواء والظلال . انها توهج الجذوة قبيل الانطفاء ، بل قل انتفاضة النزع الاخير : ولذلك برزت فيها المتناقضات بشكل حاد وفي حركة سريعة متلاحقة ، واخذت جوانب الحياة تؤثر في بعضها البعض بصورة دينامية فعالة لاتشاهد في السنين المسالمة العادية . من هذه التأثرات والتفاعلات الهامة العلاقة القوية التي ستنشأ بين الجانب الثقافي والجانب السياسي الحربي ، لا من حيث التأثير غير المباشر كاغناء الادب — مثلا — باحداث السياسة والحرب فحسب ، بل من حيث التقرير الحاسم لمصائر رجال الثقافة المشاركين في الاحداث او الراغبين عنها على حد سواء . وسيتغلف هذا التفاعل بوضع اجتماعي نفسي تهتز فيه المقاييس اهتزازا عنيفا حتى ليكاد المرء — من شدة تداخل الخطوط — لايميز بين "فضيلة" و" رذيلة " وبين " ايمان " و "كفر" حتى تلك الحواجز التاريخية الفاصلة بين حضارتين متميزتين ستنال نصيبها من الهدم او الزحزحة : في هذا العصر سيلجأ اميرموحدى من سلالة عبد المؤمن — كأبي زيد بن محمد بن ابي حفص[١] — الى مملكة اراجون الاسبانية ليعتنق النصرانية في سبيل استرجاع مقعد حكمه المهتز في بلنسيه ، وسيغادر امام في الحديث حلقة تدريسه — كما فعل ابو الربيع الكلاعي[٢] — ليقود كتائب المحاربين في موقعة انيشة قرب بلنسيه ويقتل في المعركة ، وستنتقل كتيبة نصرانية بامر من ملك قشتللة الى معقل الموحدين في مراكش لتحمي امير "المؤمنين " المأمون[٣] من شرور افراد عائلته ومستشاريه من اشياخ الموحدين ، وسيقتل الفقيه ابن الياسمين الاشبيلي — وهو من اعلام العارفين بالوثيقة[٤] — قتلة مخزية في فضيحة "غلمانية" ، وسيقطع ابن الابار — كبير مصنفي العصر — ويحرق مع مصنفاته بسبب وشايات على الارجح[٥] ،

.... / ..

---

١) — ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب : ٣/ ٢٧٠
٢) — كتاب العبر : ٦/ ٢٨٣
٣) — البيان المغرب : ٣/ ٢٦٤
٤) — ابن سعيد المغربي ، الغصون اليانعة ، ص ٤٢ — ٥٠
٥) — المقري ، ازهار الرياض ٣ / ٢٠٧

وسيتهم قاضي اشبيلية في عهد المنصور والناصر بانه " غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق "[1] وسينتقل فجأة عالم زاهد متواضع — كأبي بكر عزيز بن خطاب — الى زى اصحاب السيوف واخذ الاموال من غير وجهها وسفك الدماء[2] في امارة مرسية حيث سينقض عليه ويغتاله ابن مردنيش وهو من ضيع ملكه في بلنسية ! بل ستنقلب الدولة الموحدية على مؤسسها الفكرى وابيها الروحي — المهدى بن تومرت — لتتهمه على لسان اميرها المأمون بالدس والكذب ولتبطل مهدويته وتتحلل من التزامها بمبادئه[3] في جوارها بي دموى تعلق فيه آلاف الرؤوس على الجدران وتتعفن فاذا بها ذات روايح "عطرة"[4] في انف امير المؤمنين ! .

٢ — اهمية الدولة الموحدية في حياة الاندلس :

لسنا بصدد الحديث عن الدولة الموحدية من حيث نشأتها وتطورها ومكانتها في سير التاريخ ، فالتوسع في ذلك خارج عن نطاق هذا البحث. ولكن الذى يهمنا من هذا كله التنبه الى الامور التالية :

أ — ان هذه الدولة بربرية الاصل نشأت في المغرب الاقصى في عصر كان العالم الاسلامي يشهد فيه حركات احيائية على صعيد الفكر الديني والعمل السياسي هدفها محاربة الانحلال الاجتماعي والخلقي ومواجهة الهزائم التي حلت بالعالم الاسلامي منذ بداية الحملات الصليبية او القضاء على الامارات المتناحرة التي سبقت زمن تلك الحملات وكانت من اسباب نجاحها . وقد كانت تلك الحركات تغلّب الطابع العقيدى وتقوم بقيادة دعاة دينيين اوقادة سياسيين عسكريين عليهم مسحة الدعاة ولاترتبط في اساسها — الفكرى على الاقل — بحقوق عائلات معينة في الحكم كما فعل العباسيون والفاطميون من قبل . والدولة الموحدية من الامثلة البارزة لمثل هذه الحركات. فقد قامت على اساس عقيدى مرتبط بشخصية المهدى ابن تومرت وقادها رجال يرتبطون في الدرجة الاولى برباط عقيدة معينة ..

.../..

---

١) — الغصون ٩١ — ٩٢
٢) — ابن سعيد ، القدح المعلى ، ص ١٤٦
٣) — الحلل الموشية ، ص ١٣٧
٤) — المصدر السابق ص ١٣٨

وكانت قاعدتها - بالرغم من طابعها القبلي - تتحرك بدافع من الحمية الدينية والرغبة الاصلاحية . وتقوم دعوة المهدى (٤٨٥ - ٥٢٤) على اصول اشعرية ومعتزلية وتحمل طابع الغزالي في التجديد الديني والدعوة الى الرجوع الى اصول الدين ، كما انها تقرب من المنطلق الشيعي في المهدوية والعصمة . وهي من حيث نتائجها العملية تدعو الى ~~عقيدة~~ الاسلام "الصحيح" قولا وعملا بتأكيدها على ضرورة العمل والدعوة ، والاعتماد على اصول الدين من كتاب وسنة ونبذ للتعلق بالفروع التي سببت التفرقة وحجبت الاصل . وبسبب ذلك نجد ان الحركة الموحدية تتعاطف مع المذهب الظاهرى الذى اسسه في المشرق ابو داود ودافع عنه في الاندلس ابن حزم ، وتبدى نوعا من الجفاء تجاه المذهب المالكي وفقهاء المالكية.

ب - وقد ارتبط العامل العقيدى بالعامل السياسي الحربي عندما اقنع ابن تومرت القائد عبد المؤمن بن علي بالانضمام الى دعوته. فعلى يد هذا القائد تحولت الدعوة الى دولة بعد وفاة الداعية الاول بما يقارب العشر سنوات ، اذ بدأت اعمال عبد المؤمن الحربية في سنة ٥٣٤ بالسيطرة على المغرب فالمغرب الاوسط فتونس فالاندلس التي انتهى من الاستيلاء عليها سنة ٥٥٥ . واصطدم عبد المؤمن خلال حروبه هذه بقوتين رئيسيتين : الدولة المرابطية التي كانت تحكم المغرب والاندلس والاسبان الذين كانوا يهددون المدن الاندلسية في اواخر حكم المرابطين القصير المضطرب . وقد دخل عبد المؤمن الاندلس بدعوة من اهلها الذين سئموا الحكم المرابطي بطابعه القبلي الصحراوى وتدخله المباشر في شؤون الاندلس وضغطه على حرية الثقافة . وهكذا فالدولة الموحدية هي الدولة المغربية الثانية التي تستنجد بها الاندلس لحمايتها من الزحف الاسباني الآتي من الشمال بعد ان ذهبت وحدتها السياسية.

ج - يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس الهجرى والسنوات الاولى من القرن السابع (حتى حوالى ٦١٠) عصر المزاوجة بين الثقافة الاندلسية وبين "السلم" الموحدى . فان الثقافة الاندلسية التي شهدت ازدهارها في اواخر الحكم الاموى العامرى وخلال عهد الطوائف لم تستطع ان تستمر في نموها بعد ازدياد خطر الاسبان وشيوع روح التناحر الداخلي . واصبح من الضرورى ان توفر لنفسها "سلما" خارجيا بشكل أو آخر حتى تستطيع ان تحتمي بظله. وقد تمثلت محاولات البحث عن هذا السلم في السياسة الاندلسية منذ اواخر عهد الطوائف في :

.../..

أ- عقد محالفات او اتفاقيات هدنة مع الامارات الاسبانية.
ب- الاستنجاد بالمرابطين .
ج - عودة الى الاستنجاد بالامارات الاسبانية بعد ان اتضح ان السلم المرابطي سلم مرهق .
د - الاستنجاد بالموحدين بعد فشل محاولات الحكم المحلي بعيد اهتزاز الحكم المرابطي ، وبعد ان اتضح ان سلم الاسبان ماهو الاتمهيد للقضاء التام على الاندلس العربية.

وهكذا جاء "السلم الموحدى" ليعطي الثقافة الاندلسية فرصة جديدة من فرص النمو والازدهار خاصة وان الموحدين لم يكونوا في تعصب المرابطين ازاء النشاط العقلي ، وان كانوا سيؤثرون في طريق سيره طبقا لمعتقدهم الديني والفقهي . فبعد وفاة عبد المؤمن تولى الحكم بعده ابنه ابويعقوب يوسف (مدة حكمه ٥٥٨ - ٥٨٠) الذى سار على سياسة ابيه في اقرار السلم في المغرب ومهاجمة الاسبان في الاندلس. وقد امضى ابو يعقوب فترة طويلة في الاندلس اثناء حكم ابيه حيث كان واليا على اشبيلية العاصمة فكان من الطبيعي ان يتفاعل مع الثقافة الاندلسية ويتعاطف معها ، حتى برزت له شخصية علمية الى جانب شخصيته السياسية والحربية : فقد شغف باخبار العرب وايامهم ومال الى علوم اللغة "وكان متفننا في العلوم الشرعية والاصولية "(١) ثم جاء من بعده ولده ابو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥) الذى بلغ العهد الموحدى في ظله عصره الذهبي وتألقت اشبيلية تحت حكمه آخر فترات تألقها السياسي، ومن ملامح عهده السياسية والحربية البارزة : قضاؤه على امارة بني غانيه وترحيله للقبائل العربية التي ناصرتهم الى اقصى المغرب وانتصاره على الاسبان في معركة الارك (٥٩١) واتصال صلاح الدين الايوبي به بقصد التحالف ضد الغرب . اما الملامح الحضارية والثقافية لعهده فمن ابرزها : ازدهار حركة عمرانية تمثلت في بناء مدينة الرباط ومسجد سلا ومدرسته . والجامع الاعظم بمراكش وصومعة الكتبيين والبيمارستان المراكشي ،ومئذنة جامع اشبيلية (الجيرالدا) والسور المحيط بها. ووصلت الفاعلة الى ذروتها في عهده حيث استظل ببلاطه اكبر فلاسفة العصر وعلمائه كابن زهر الطبيب وابن طفيل وابن رشد وابي بكر بن الجد وعبد الملك بن عياش الكاتب ، وقد تطعمت اجهزة حكمه بالعناصر الاندلسية المثقفة فكان اكثر قضاته وكتابه من الاندلسيين . ومن احداث عصره الثقافية الهامة ايضا : اتضاح ميل الدولة نحو المذهب الظاهرى واشتداد محاربة فقه الفروع والتحول الخطير الذى طرأ على موقفها تجاه الفلسفة والذى تمثل في نكبة ابن رشد سنة ٥٩٣ وتفرق تلاميذه ايدى سبأ "(٢).

.../..

---

١) - البيان المغرب: ٣/ ١٨٣
٢) - المصدر السابق ٣/ ٢٠٢

وعلى العموم تعد هذه الفترة السابقة للحقبة موضع البحث ، فترة استقرار وانتاج ، فلقد زرع السلم الموحدى القوي بذور الاستقرار بشيء من التسامح والمراعاة للشخصية الاندلسية ، وواصلت الثقافة الاندلسية نتاجها العقلي بشيء من الاطمئنان . ولكن بعد وفاة الخليفة المنصور اخذت تلك المزاوجة الموحدية - الاندلسية تنحل تدريجا بفعل عوامل واحداث سنتأملها بعد قليل ، واخذ الوضع الحضارى - الثقافي - السياسي يتجه نحو اتخاذ قالب جديد مغاير تماما للتركيب السابق في حركة سريعة متلاحقة الحلقات تتصف - كما اشرت - بكثرة التقلب وحدة التناقض .

٣) - الوضع السياسي في الأندلس
(٥٩٥ - ٦٤٦ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤٨م)

تولى محمد الناصر بن يعقوب المنصور الحكم سنة ٥٩٥ ، وقد تمت له البيعة الاولى في حياة ابيه الذى اختلف المؤرخون حول مصيره : فمن قائل انه دفن بمراكش ومن قائل انه تزهد وساح في الارض حتى توفي بالشام واصبح قبره مزارا (١) . ومهما كان الامر فان محمداً الناصر ، "بويع بيعة العامة بعد اسبوع من وفاة ابيه وذلك في العشر الاخر من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، واستوسقت له الخلافة بهذه البيعة" (٢) .

وكان الموقف السياسي في بلاد الاندلس والمغرب عشية تولي محمد الناصر الخلافة متأثرا بمواقف القوى التالية :

أ - الجبهة الموحدية الحاكمة وماكان يعتريها من صراع داخلي بين الامراء واشياخ الموحدين .

ب - العناصر الداخلية في الدولة الموحدية :

١ - قبائل العرب التي بدأت تستوطن المغرب مصطدمة بالعناصر البربرية المحلية ، مشاركة في كثير من حركات التمرد وحوادث السلب والنهب (٣) .

٢ - بقايا الامراء من عهد المرابطين كبني غانية الذين ~~تمركزوا~~ تمركزوا في جزيرة ميورقة بشرق الاندلس واخذوا يهاجمون الجزر والسواحل الموحدية في تونس ، واستطاعوا

.../..

---

١) الناصرى : الاستقصا : ٢/ ١٨١ - ١٨٤

٢) البيان المغرب : ٣/ ٢١١

٣) المصدر السابق ٢١٣-٢١٤

ان يتوغلوا الى الداخل ويتحصنوا في مدن كالمهدية ويقاوموا جيوش الخليفة نفسه (١)

٣ — الزعماء الاندلسيون الذين سرعان مايستغلون الشعور المحلي ضد سيطرة الدولة او بسبب تعاونها في مقارعة الاسبان او نظرا لصراعاتها الداخلية .

ومن اشهر الذين برزوا ايام الناصر عبد الرحيم بن الفرس ، وهو "من طبقة العلماء بالاندلس .. انتحل الامامة وادعى انه القحطاني "الذى بشر به حديث نبوي (٢) .

ج — الامارات الاسبانية التي كان موقفها حرجا مزعزعا بعد موقة الارك . الا ان عدم تمكن الخليفة الجديد من استغلال هذا الوضع فتح للاسبان مجال التجمع والاستعداد للحرب من جديد (٣) .

وقد اضطر الناصر في السنين العشر الاول من حكمه — وقبل ان يصطدم بالاسبان — الى الدخول في معارك محلية كثيرة بددت طاقة الدولة . فقد ابعد ابن غانية عن تونس بعد معارك بحرية وبرية كثيرة (٤) . وبعث جيشا لتأديب قبائل العرب المتمردة فانتصرت عليه اول الامر وبددت شمله . كما صرف جهدا كبيرا في القضاء على ابن الفرس ، وجهدا مماثلا في اخذ جزيرتي ميورقة ومنورقة من يد بقايا المرابطين . في هذه الاثناء كان الاسبان يستعدون لجولة جديدة : فقد ارسل ملك قشتالة رسولا الى البابا لكي يعلن الجهاد المقدس في اوروبا ، ورسولا آخر الى فرنسا . وفي الوقت ذاته عقد مؤتمر اسباني جامع في قونقه تحت اشراف الفونسو النبيل (٥) . ويبدو ان السبب المباشر الذى دفع الناصر للحرب " تغلب العدو على كثير من حصون بلنسيه "مما اهمه واقلقه ، فغادر مراكش الى اشبيليه ومنها الى محاصرة حصن شلبطرة المنيع (٦) . ويرى اشباخ ان هذا هو الخطأ الاساسي في تخطيطه للحرب . فقد اجهد جيشه في الحصار (٧) فلم يتمكن بعدئذ من قتال الاسبان في موقعة العقاب حيث كانت الهزيمة ساحقة . ويرى المؤرخون ان من اسباب ضعف سياسة الناصر اعتماده على وزراء لايوثق بهم وشدته مع اشياخ الموحدين بعد هزيمة العقاب ولقد كان ذلك سببا في هزيمته وفي موته اذ "ذكران بعض وزرائه اغروا به من سمه لانه خافوا منه ان يقتلهم فيما جنوه (٨) وكان ذلك سنة ٦١٠ هـ (٩) .

.../..

---

١) — البيان المغرب ٢١٩ — ٢٢١
٢) — كتاب العبر ٦/ ٢٥٠
٣) — يوسف اشباخ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ٩٤
٤) — البيان المغرب ٣/ ٢١٣
٥) — تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ١٠٩
٦) — كتاب العبر ٦/ ٢٤٩
٧) — تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ١٠٨
٨) — البيان المغرب ٣/ ٢٤٣
٩) — المصدر السابق : ٢/ ٢١٣

بعد هزيمة العقاب هذه التي قوت مركز الاسبان وتسببت نتائجها في تصديع الجبهة الدا خلية في الدولة عامة وفي احداث تشاؤم وذعر في الاندلس خاصة ، تولى الحكم ابن الناصر يوسف المستنصر وهو ابن ست عشرة سنة ، فتسلط اعمامه واشياخ الموحدين على الحكم . وبعد سنة من توليه الحكم قام "مهدي" جديد يدّعي الانتساب للفاطميين بثورة قمعت بعنف. وبين سنة ٦١٤ وسنة ٦١٧ ساءت الحالة الاقتصادية و "اشتدت الحال في تناهي غلاء الاسعار بالبلاد المغربية والاندلسية" بسبب "المحل العظيم والمجاعة"(١). في اثناء هذا الوقت كانت الجهود تبذل في الجانب الاسباني لتوحيد الجهود(٢) بينما كان اعمام المستنصر يتنازعون حكم ولايات الاندلس ويثيرون حفيظة اهلها . وقد توفي المستنصر شابا سنة ٦٢٠ هـ وبوفاته بدأت تظهر حركات الانفصال بين المغرب والاندلس على ايدى امراء الموحدين انفسهم اول الامر ثم على يد زعماء الاندلس فقد تولى الامر بعده بمراكش عم ابيه عبد الواحد (المخلوع) الذى نازعه الحكم في الاندلس امير موحدى آخر هو عبد الله الملقب بالعادل . ولكن الانشقاق تسرب الى الاندلس ايضا وبين الموحدين انفسهم اذ رفض السيد ابو زيد بن محمد صاحب بلنسية مبايعة العادل . ومع كثرة حوادث الانشقاق انتشرت الدسائس بين المتنافسين ، فخلع عبد الواحد وخنق بعد بضعة شهور من توليه ، واستطاع العادل بعد جهد نيل بيعة مراكش والاندلس سنة ٦٢٢ .(٣) الا ان الوضع اخذ يزداد سوءا بتجرؤ ولاة الموحدين على الخروج عن سيادة الدولة والتحالف مع اسبانيا علنا . ففي سنة ٦٢٣ خلع عبدالله البياسي والي قرطبة "دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وادخلهم قيجاطة ..(و) حصن باجة ولبوشة وغيرهما من الحصون" ثم حاصر اشبيلية عاصمة الاندلس حينئذ فقاومه ابو العلاء اخو العادل وهزمه(٤) . غير ان ابا العلاء هذا الذى لقب بالمأمون عاد فخلع اخاه وطلب البيعة لنفسه بينما كان اخوه يستعد لمحاربة بعض قبائل العرب في المغرب .

وفي اثناء هذا الاستعداد اختلف مع اشياخ الموحدين الذين هجموا عليه في القصر

---

١)- البيان المغرب ٢٤٣-٢٤٥
٢)- تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ١٥٤
٣)- البيان المغرب ٣/ ٢٤٧ - ٢٤٩
٤)- المصدر السابق ٢/ ٢٤٩-٢٥٠

وقتلوه وكتبوا الى اخيه المأمون بالبيعة ، وكان ذلك سنة ٦٢٤ (١) . وقد كان المأمون يقيم واليا في اشبيلية فتم له الامر فيها وبايعته ايضا سائر المدن الاندلسية في بادئ الامر .

وما ان اطلت سنة ٦٢٥ حتى ازداد الموقف سوءاً من كافة نواحيه : فقد وقع الخليفة الجديد بين نارين : نكث اشياخ الموحدين بمراكش بيعته وولوا يحي بن الناصر ، كما ثارت الاندلس ضده في شخص زعيمها الجديد محمد بن يوسف بن هود الذى اشعل الثورة من مرسية واعلن الولاء للعباسيين وكان شعاره تخليص الاندلس من الموحدين والاسبان معا . وعلى اثر ذلك شهدت الاندلس حروبا اهلية متتابعة بين كل من المأمون وابن هود وزعماء الامارات الاندلسية الاخرين الذين كانوا يغيّرون ولاءهم تبعا للظروف . وبالرغم من ان المأمون استطاع ان يهزم جيش ابن هود (٢) فانه لم يتمكن من القضاء على امارته . بل ان سلطان المأمون انحصر في اشبيلية واخذ سلطان ابن هود يتوسع ليشمل المرية وغرناطة وقد ساعد ابن هود في ذلك شعور الاندلسيين المعادى للموحدين الذين قتلوا او نفوا عن كل بلد في الاندلس (٣) . ازاء هذا الظرف الحرج ، وبالنظر لتدهور الاوضاع في مراكش غادر المأمون اشبيلية — آخر معقل للموحدين — وعاد الى المغرب ليقاوم منافسه يحي بن الناصر ويتبع سياسة ارهابية عنيفة تقوم على اضعاف سلطة اشياخ الموحدين والتحالف مع الامارات الاسبانية (٤) وتغيير بعض الاسس العقيدية للدولة كالتبرؤ من المهدى . وهكذا يبقي الاندلسيون في العشرين سنة الاخيرة من هذه الحقبة بين ٦٢٦ و ٦٤٦ هـ وحيدين في الميدان تمزقهم خلافات داخلية ويدفعهم الزحف الاسباني بالتدريج نحو اقصى الجنوب دون ان يجدوا مساعدة حقيقية من جيرانهم المنشغلين بانفسهم اللهم الا بعض النجدات المتقطعة القليلة من مراكش وتونس .

وفي خلال تلك الفترة الاخيرة ارتسمت ملامح الوضع السياسي حسب الصورة التالية :

---

١) — البيان المغرب ٢٥١/٢ — ٢٥٣
٢) — المصدر السابق ٣/ ٢٥٨
٣) — المصدر السابق ٢٦٩/٢
٤) — المصدر السابق ٢٧٥/٢

اولا — على الصعيد الاسلامى كانت هنالك اربعة كيانات سياسية منفصلة :

أ — الدولة الموحدية المهرمة التى ستنحصر فى المغرب ليستمر فيها الصراع بين الامراء وليسيطر عليها اشياخ الموحدين سيطرة تامة مع استمرار شئ من نفوذ امرائها فى منطقة اشبيلية .

ب — الامارة الحفصية فى تونس التى اسسها يحيى بن ابى حفص ، احد قادة الموحدين القدامى وهوالذى ساعد الدولة فى القضاء على نفوذ بنى غانية فى تونس . وقد ظهرت هذه الامارة رسميا سنة ٦٢٧ بويع الامير يحيى بيعة عامة (١) .

ج — امارة ابن هود التى ظهرت سنة ٦٢٦ وانتهت بوفاته سنة ٦٣٥ . وقد تمركزت هذه الامارة فى منطقة وسط الاندلس وجنوبيها فى المنطقة الواقعة بين المرية وغرناطة وقرطبة والجزيرة الخضراء ووصلت فى امتدادها حتى اسوار بلنسيه .

د — امارة بلنسيه وتوابعها فى شرق الاندلس ، وقد اكدت استقلالها بثورتها على الموحدين تحت قيادة زيان بن مردنيش ومقاومتها لنفوذ ابن هود . الا انها اضطرت تحت تهديد الغزو الاسبانى الى طلب العون من تونس وتقديم البيعة لاميرها الحفصى (٢) .

ثانيا — اما على الصعيد الاسبانى فقد كانت هنالك خمس ممالك اقواها واوسعها مملكتا ارجون وقشتالة . ولم تكن تلك الممالك قوة واحدة تعمل لهدف محدد فقد كان ملوكها يتنازعون فيما بينهم على المقاطعات الاسبانية كما كانوا يتنافسون فى مجال استخلاص المدن الاندلسية من ايدى المسلمين اذ كان كل ملك يطمح فى الاستيلاء على اكبر عدد ممكن من تلك المدن . الا انه نظرا لاسباب جغرافية تتعلق بمواقع تلك الممالك اهتمت قشتالة بمدن الوسط والجنوب بينما ركزت ارجون همها على مدن الشرق وتطلعت البرتغال صوب المقاطعات الغربية . ومن اهم الاحداث فى هذه الفترة — على الصعيد الاسبانى — اتحاد مملكتى قشتالة وليون ، هذا الاتحاد الذى يعتبر " الحجر الاساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند فى الاندلس (٣) .

والواقع ان الصراع المباشر سيكون الآن بين امارة ابن هود ومن سيخلفها من امراء الاندلس من جهة وبين الممالك الاسبانية الغازية من جهة اخرى وحتى الامراء الموحدين فى اشبيليه سيكافحون باعتبارهم زعماء محليين لا بوصفهم ممثلين للدولة المغربية .

---

١) — البيان المغرب ٣/٢٧٥

٢) — كتاب العبر ٦/٢٨٣

٣) — تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين : ٢/١٤٩ — ١٥٠

وقد تطورت الاحداث خلال هذه العشرين سنة الاخيرة حسب الصورة التالية :

اولا - مع رحيل المأمون الموحدي سنة ٦٢٦ الى المغرب قوى نفوذ ابن هود المتوكل واصبح القوة الاندلسية الاولى . حتى ان اهالى اشبيلية خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا ابن هود (١) ، الذى اعد جيشا ضخما فى السنة التالية لمحاربة الاسبان فى ماردة ، الا انه هزم فى هذه المعركة التى تعتبر اول غزواته واضخمها (٢) ، وفى سنة ٦٢٩ توفى المأمون الذى كان يدعى السيادة الاسمية على الاندلس ، ومع انه " لم يبق للموحدين بالاندلس امر ولا نهى " (٣) فى السنوات القليلة التى سبقت ذلك ، فان وفاته قوت من مكانة ابن هود ، الذى وصلته الخلعة العباسية بالتولية فى السنة ذاتها . و" استقامت احواله ، وولى العهد لابنه الواثق بالله فوفدت عليه البيعات من كل البلاد من جزيرة شقر الى الجزيرة الخضراء " (٤) . غير ان استقامة الاحوال ليست من طبع تلك الفترة فبعد بضعة شهور ثار العامة فى اشبيلية ضد والى ابن هود وولوا عليهم احد زعمائهم وهو الباجى . وفى الوقت ذاته ظهر زعيم اندلسى جديد هو محمد بن يوسف بن الاحمر والذى بويع فى ارجونه وبدء نفوذه الى جيان وقرطبة ونازع الباجى على اشبيلية (٥) هذا فى الوقت الذى كان فيه ابن مردنيش يستقل ببلنسية ويقاوم نفوذ ابن هود . وهكذا وجد الاخير نفسه فى صراع مع منافسين داخليين بينما كان توسع الممالك الاسبانية يتقدم باضطراد ملحوظ ، مما ارغمه على عقد صلح مع مملكة قشتالة سنة ٦٣٠ ودفع جزية لها تقدر بالف دينار فى اليوم وذلك ليتفرغ لقتاله ابن الاحمر والباجى (٦) اللذين انتهى صراعهما على اشبيلية بعودتها ثانية الى ابن هود سنة ٦٣٢ . وقد اراد ابن هود مواصلة بسط نفوذه على ماتبقى من الاندلس فقصد فى السنة ذاتها مدينة لبلة واحكم حولها الحصار . ولكن توغل مملكة قشتالة فى اراضيه اجبره على رفع الحصار ومفاوضة ملك قشتالة على الصلح والجزية ، فتم عقد هدنة جديدة تتراوح مدتها بين ثلاث الى اربع سنوات على ان يدفع ابن هود اربع مئة الف دينار فى السنة ، غير ان هذه المعاهدة لم يطل امدها اكثر من سنة (٧)

---

١) البيان المغرب ٣/ ٢٧٠
٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧٠
٣) روض القرطاس ١٨٢
٤) البيان المغرب ٣/ ٢٧٨
٥) المصدر السابق ٣/ ٢٧٩
٦) روض القرطاس ١٨٣
٧) البيان المغرب ٣/ ٣٢٢

ثانيا- بعد ان وصل وضع الاندلس الى هذه الدرجة من الضعف واضطر اقوى امرائها الى دفع الجزية للاسبان اتخذ التوسع الاسباني صبغة جديدة حاسمة. اذ لم يعد الاسبان يكتفون بالمال او بالاستيلاء على الحصون الجانبية بل اخذوا يتطلعون نحو قواعد الاندلس الكبرى .

وهكذا ما ان جاءت سنة ٦٣٣ حتى اصبحت قرطبة تحت رحمة قشتالة وبلنسية تحت رحمة اراجون . واصبحت قوة ابن هود - بالاضافة الى تمزقها الداخلي - موزعة بين الجبهتين المتباعدتين غير انه ترك قرطبة لمصيرها واتجه صوب الشرق الاندلسي على امل ان يتمكن من ضمه الى اماراته . ولم تطل مقاومة قرطبة اذ سقطت في السنة ذاتها (١) وفي تلك السنة اشتد حصار ملك اراجون لبلنسية ومنطقة الشرق الاندلسي ، فكانت له سبع محلات لحصار المسلمين اثنتان منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة (٢) .

في هذه الاثناء جاءت وفاة ابن هود سنة ٦٣٥ في ظروف غامضة (٣) لتزيد الامر تعقيدا ولتمزق امارته المضطربة بين اقاربه وقواده . ولم تبق من تجمعات الاندلسيين الثابتة نوعا الا منطقة اشبيلية ، ومنطقة غرناطة التي حكمها ابن الاحمر ومهد فيها لاقامة امارته التي ستبقى بعد هذه الاحداث مايقارب قرنا ونصف قرن . اما بلنسية فقد سقطت في يد ملك اراجون سنة ٦٣٦ بعد حصار ومجاعة . ولم تجد نفعا نجدة ابي زكريا الحفصي الذي استغاث به البلنسيون وبايعوه واستمر الزحف الاسباني في شرق الاندلس حتى أُجلي عنه العرب نهائيا حوالي سنة ٦٤٤ (٤) .

وفي تلك السنة ذاتها بدأت الخطط القشتالية الاخيرة للاستيلاء على اشبيلية . وكان اهاليها في ذلك الوقت قد اختاروا الامير اباعبدالله بن ابي العلاء الموحدي واليا عليهم . بدأ الزحف القشتالي ببث الرعب في المناطق المحيطة باشبيلية مما حدا بالسكان الى التسليم دون مقاومة ، وكان ابن الاحمر والي غرناطة الذي اصبح حليفا لقشتالة ينصح الاندلسيين بالتسليم حقنا للدماء . وقد تمكن القشتاليون من تحطيم اسطول استقدمه امير الموحدين من

.../...

---

١) - البيان المغرب ٣/٣٢٢ - ٣٢٣
٢) - كتاب العبر ٦/٢٨٣
٣) - البيان المغرب ٣/٢٥٨
٤) - كتاب العبر ٦/٢٨٥

المغرب لتأمين الحماية البحرية . وبعد حصار شاق سلم الاشبيليون على ان تصان دماؤهم واموالهم ويسمح لهم بالهجرة ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ .(١)

ومع نهاية النصف الاول من القرن السابع عادت الاندلس اسبانية ما عدا امارة بنى الاحمر فى غرناطة التى اصبحت مقر التجمع الاخير لعرب الاندلس والتى ستحيى ، رغم مركزها الفريد الحرج ، آخر فترة من فترات العطاء الحضارى فى تاريخ الاندلس العربية .

٤) المجتمع والثقافة فى الاندلس خلال هذه الفترة

تمت الاشارة الى ان مجتمع الاندلس فى هذه الفترة كان مجتمع اضطراب واختلال ، وتقلبات سريعة وتناقضات حادة . وسنتأمل الان فى اهم ظواهره الاجتماعية والنفسية والخلقية. ولعله من الخير ان نتنبه الى ان بذور القلق والتقلب فى المجتمع الاندلسي وجدت لها تربة خصبة فى فترات سابقة متتالية كعهد الفتنة البربرية وعصر الطوائف الذى اعقبه ، بل ربما كان القلق والتقلب ظاهرة نفسية داخلية فى المجتمع الاندلسى نشأت منذ انهيار السلطان الاندلسي الرادع القوى بانتهاء حكم الاموية الموحدة واختها العامرية ، واخذت تظهر بوضوح عندما تفقد الاندلس ضابطا قويا يتولى امرها ، وتختفى تحت السطح عندما يأتى للاندلس حكم قوى كحكم المرابطين او الموحدين .(٢)

من اهم الظواهر البارزة فى هذه الفترة ظاهرة شيوع الخوف وعدم الاستقرار واختلال المقاييس واهتزاز الحدود الفارقة . وكان الخوف يتجلى على هيئة قلق تجاه المستقبل وكانت المعارك والحروب الدائرة بين الاندلسيين والاسبان تتسم بالتأثير العميق فى نفسية المجتمع الاندلسى الذى لم يكن ينظر الى تلك الحروب باعتبارها نشاطا عسكريا عاديا او فتوحات خارجية بقدر ما هى حياة ومصير . وهكذا وجدت تلك الاحداث صدى قويا فى الشعر الاندلسى منذ ان

٠٠٠/٠٠

---

١) ـ تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ٢/١٩٥ ـ ١٩٩

٢) ـ احسان عباس تاريخ الادب الاندلسى (عصر سيادة قرطبة) : ١٧٦ ـ ١٧٧؛ وكذلك (عصر الطوائف والمرابطين) : ٣٢ ـ ٤٤

بدا خطرها واضحا للعيان (١) حتى اللحظة الاخيرة فى حياة الاندلس العربية • وفى هذه الحقبة التى نتحدث عنها سنجد نماذج عديدة من اشعار التفجع والاستغاثة والتشكى من الغربة كقصيدة ابى البقاء الرندى المشهورة التى غدت سجلا لحوادث النكبة من بعده : (لكل شىء اذا ما تم نقصان •••) وسينية ابن الابار التى عبرت عن استغاثة اهالى شرق الاندلس بامير تونس (ادرك بخيلك ،خيل الله اندلسا ••) ، وكذلك سنجد فى شعر ابن سعيد نفسه ظاهرة الشعور بالغربة بارزة حتى اثناء (٢) اقامته فى وطنه • وغنى عن البيان ان بروز هذه الظاهرة فى الشعر بشكل واضح يدل على ان المجتمع كله كان يعانى منها • غير ان هذه الظاهرة لم تسحب ظلالها على الشعر فحسب بل عكست نفسها فى قلق نفسى واجتماعى عام يمكن تلمس آثاره فى الكثير من الحالات الاجتماعية والفردية •

كان هناك جو من عدم الاستقرار يشمل نواحى الفكر والمعتقد ،كما يتناول حياة الناس فى خطوط سيرها ، كما يتمثل فى التغيرات المعتادة من تعاقب انظمة الحكم وتغير حظوظ الافراد فى كدهم المعيشى • اما فيما يختص بتغير الحكام فهذا ما اتضح بجلاء فى حديثنا عن الوضع السياسى ، حتى ان مدينة كأشبيلية تغير حكامها فى سنتين اربع مرات بين الموحدين وابن هود والباجى وابن الاحمر • ومن الطريف هنا ان نلاحظ ان ابن سعيد ، الذى كان همه الاول النشاط التصنيفى ، تأثر بهذه الاحداث واضطر ان يغير ولاءه بسرعة بين المتنافسين حتى انه مدح الباجى عندما ابعد ابن هود عن اشبيلية ، مع العلم ان ابن هود قد عين والده واليا على الجزيرة الخضراء ،وكان هو نفسه يستظل بظله (٣) ، وسرعان ما اضطر ابن سعيد لتغيير ولائه ثانية عندما خضعت اشبيلية لابن الاحمر الذى قتل الباجى ، فعاد ومدح قاتل ممدوحه السابق (٤) ، ولم يقف التذبذب عند هذا الحد بل تناول جانب العقيدة ،فقد قام اثنان من كبار امراء الموحدين هما البياسى صاحب قرطبة وابو زيد صاحب بلنسية باعتناق النصرانية فى سبيل العودة الى الحكم (٥) ،وعمل كهذا ليس ظاهرة عادية فى مجتمعات العصر الوسيط الدينية

•••/••

---

١) ـ تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ١٧٢ ـ ١٩٢
٢) ـ المقرى ،نفح الطيب ٣/ ٢٥
٣) ـ ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ٢ / ١٠٣
٤) ـ البيان المغرب ٣ / ٢٧٠

ثم ان هاتين الحادثتين على صعيد الامراء ذوى الصبغة الدينية توحيان بان هناك جوا اجتماعيا يمكنه ان يتقبل ذلك ، وان هناك افرادا من سائر الطبقات سلكوا الطريق ذاته. وقد رأينا - من ناحية اخرى - كيف ان الدولة الموحدية ثارت على مؤسسها ونبذته في عهد المأمون ، ثم جاء امير بعده ليحاول العودة الى تعاليم المهدى ثانية.

ومن مظاهر انعدام الاستقرار فى حياة الافراد ، كثرة الوشايات التى لاتدعهم يستقرون فى منصب أو معين ، بل ان الوشايات احيانا تؤدى الى هلاك من توجه ضدهم . ولعل فى مصنفات ابن سعيد شواهد كثيرة على ذلك عكست نفسها بوضوح فى حياته وحياة من ترجم لهم. فهذا هو الافلح اللخمى يسعى لوالد ابن سعيد عند ابن هود ليوليه امرة الجزيرة الخضراء ثم لاتلبث الوشايات ان توغر صدره فيسعى فى تأخيره (١) وهذا سهل بن مالك الرئيس العالم يغربه ابن هود عن وطنه غرناطة بسبب تضخيم أهل " الحسد والعداوة " لاقواله (٢) وهذا ابو بكر ابن البناء الاشبيلى يظهر امام الناس متواضعا قانعا وهو فى حقيقته " اهون ما عنده ان يسعى في سفك دم انسان ، تخاصم مع وكيل له فى شبر من ارض " (٣).

ومن الظواهر المرتبطة بذلك ظاهرة بروز المغامرين على مسرح الاحداث وقفزهم من ادنى الدرجات الى رتبة الامارة والقيادة في برهة زمنية وجيزة. والواقع ان ابن هود نفسه كان فى طليعة هؤلاء المغامرين الذين عرفوا كيف تنتهز الفرص . ويجمع المؤرخون ان ابن هود ، رغم انتسابه الى بني هود ملوك سرقسطة السابقين ، رجل عامى جاهل اقام ملكه على اكتاف المغامرين من امثاله. فابن عذارى ينسب انتصاره الى زعيم عصابة يدعى الغشتى تحالف معه . وكان اتباع الغشتى " جماعة

.../..

---

١) - القدح ١٤٢
٢) - المصدر السابق: ٦١
٣) - المصدر السابق: ١١٨

كبيرة من اراذل الناس السفلة ٠٠ فكان يقطع بهم الطرقات والنواحى ، فاكتسحوا مافيها من البقـــر والاســـرى (١) ٠ وبتأييد من هؤلاء اصبح ابن هود امير المسلمين وغدا الغشتـــى قائد الاساطيل فى الدولة المتوكلية ٠ ويحدثنـــا ابن سعيـــد وهو المؤرخ الاندلسى المعتدل ،ان ابن هود كان " عاميا جاهلا ،مشئوما علـــى الاندلس ، كأنما كان عقوبـــة لاهلها ٠٠٠ وولى قرابته الارذلين بين شعار ، وخباز وقيم حمام ، ومنـــاد ، على ممالك الاندلس ، فقضى ذلك بتشتيت شملها (٢) ٠

وكما جاءت بداية ابن هود رمزا على المغامرة والانتهازية ، جاءت نهايتـــه لتعكس ما فى العصـــر من غدر ودس ٠ فهندما مر بالمريـــة فى طريقـــه الى الشرق الاندلســـى ، استقبله وزيره ابن الرميمى احسن استقبال فى قصـــره ، ثم " قتلـــه بالليل غيلة ٠٠٠ وقد نقـب نقبا فى قصره (٣) ٠

وقد ادى هذا الاختلال فى الحياة العامة وعلاقات الناس ببعضهم الى طلب " تعويض" والبحث عن " هروب " من واقع تلك الحياة القلقة القاسية ٠ فكان طبيعيا الميل الى حيـاة الترف وحياة اللذة ٠ وتمثل الترف فى الميـــل الى الزخرف والشكل البراق ســـواء أكان ذلك فى الفنون المعمارية ، التى ازدحمت بها هذه الفترة والفترة التـــى سبقتـــ اوفى المسكن والملبس ٠٠٠ اوفى الالقاب والتخاطب ٠٠ اوفى الرسائل والادب شعرا ونثـرا عامـة ٠ ولا يقتصـــر ذلك على طبقـــة الامراء وحدهم ،بل يتجاوزهم الى غيرهـــم من الاغنيـــاء ومتوسطى الحال ، فهذا ابو القاسم بن حســان الاشبيلى ينشىء له قصـرا " يشتهر فيمابين المنازه والديار فنزهه وداره ، اذا قيل قصر بن حســـان فـــلا يشاركـــه فى هذا الوصـــف الاماكان منزلا للسلطان ، ودخلـت اليه مع والـــدى ٠٠ فسافرت ابصارنا فى تلك الساحة العريضة الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضـــه البديعـــة الجميلة ، وكذلك اذا قيـل فى المنازه التى على النهر منزه بيسانه ،مـــال

٠٠٠/٠٠

---

١) ـ البيان المغرب ٣ /٢٥٦
٢) ـ المغرب ٢/٢٥١ ـ٢٥٢
٣) ـ المصدر السابق : ٢/٢٥٢

كل ذى سمع وبصر الى الحان اطياره وافنان اشجاره المزدانة (١) • وهذا ابو القاسم عبد الرحمن العثمانى السبتى تصبح " شهرته " الرفاهية و " له فى ذلك حكايات محفوظة منها انه كانت له ثياب النزهة ، وثياب الحمام ، وثياب العرس وما اشبه ذلك ، لكل حالة ما يليق بها لا يخل بشئ منها • واحتاج يوما الى شئ ضرورى فحضر السائس ولم يحضر المتصرف فلم يقدر على ان يصرف السائس • وكان يقول : لا سبيل الى وضع شئ فى غير محله حتى كان ينسب ذلك للهوس ، وبالجملة فكان من الخواص فى كل ما تلبس به " (٢) •

هذان مثلان : احدهما من اشبيلية والاخر من سبتة • ومن البين ان هذه النماذج الفردية ماكان لها ان تبرز بهذا الشكل لو لم يكن فى البيئة الاجتماعية كلها ما يشجع على ذلك •

والى جانب ظاهرة الترف والتأنق ، نلحظ ظاهرة الميل الغلمانى التى تغلغلت فى اوساط العامة والخاصة حتى اشتهر بها وزراء وكتاب وشعراء ••• بل وفقهاء •• ومصنفات ابن سعيد وحدها تكفى لاقناعنا بانتشار هذه الظاهرة التى يبدو انها انحراف فى اللذة وتنويع لها اكثر مما هى مجرد تنفيس عن شهوة حبيسة • ولو عددنا الشواهد الكثيرة على انتشارها فى هذه الفترة لتجاوزنا الحد المرسوم لهذه المقدمة الموجزة • والرجوع الى ماصنفه ابن سعيد من تراجم هو الذى يعطى صورة كاملة ودقيقة عن هذه الظاهرة المتفشية (٣) •

ومن صور الاضطراب فى هذا العصر التدهور الاقتصادى واضطراب الحالة المعيشية عند عامة الناس ، فقد ادت الغارات الى ان " اشتد الضرر بالارض ومن عليها " ولحق الاذى بـ " المترددين فى طرقاتهم لتجاراتهم " (٤) كما افتتحت هذه الحقبة بقحط ادى الى ارتفاع الاسعار وسبب مجاعة • هذا بالاضافة الى ما تسببه الحروب من تدمير للمزروعات وما تستهلكه من نفقات • ومما لاشك فيه ان المبالغ الضخمة التى دفعها ابن هود وغيره من امراء الاندلس جزية للاسبان قد جمعت من الزراع والتجار الذين انضبت مواردهم الفتن الداخلية والحروب •

---

١) ـ القدح ١٤٨
٢) ـ القدح ١٩٦
٣) ـ انظر الغصون ١٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٤٠٦ ، ١٤١٦ ، وكذلك القدح ٨ ، ٩٦ ، ١٦ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ١٦٨ ، ٩ ، ٢٦ ، ٩ ، ٥٦ ، ٩٥ ، ٧٦ ، ٩٠.
٤) ـ البيان المغرب ٢٥٦/٣

وهذا الاضطراب الاقتصادى من شأنه - طبعا - احداث اختلال فى العلاقات الاجتماعية ودفع الناس الى الهجرة او الخروج على القانون كما كانت تفعل عصابات الغشتى وابن هود .

ومن اخطر الظواهر البارزة على صعيد المجتمع فى هذا العصر عودة ظاهرة " الجلاء " التى كانت ملحوظة فى المجتمع الاندلسى فى حقبة سابقة (١) الى البروز والتأثير بشكل جذرى اعمق واخطر من ذى قبل . ففي بداية هذه الحقبة اخذت الجماعات الاندلسية تنتقل من منطقة الى اخرى تبعا للظروف الحربية والاقتصادية ، ومع سقوط القواعد الاندلسية الكبرى - فى نهايتها - اضطرت جموع الاندلسيين الى الهجرة جنوبا حتى غادرت الاندلس نهائيا - عدا الجماعات التى تحصنت فى منطقة غرناطة . وهكذا تغير الوجه البشرى - الحضارى لجنوب اسبانيا بحلول الاسبان محل العرب الذين كانوا ارقى حضارة منهم . وهنا تجدر الاشارة الى ان العلاقات العربية - الاسبانية كانت تتسم بالعداء والعنف فى هذه الحقبة نظرا للصراع المصيرى القائم بين الطرفين . اما مسألة التاثير والتأثر فمسألة يحسن الالتفات اليها الا انها خارج نطاق بحثنا هذا . واذا كانت اسبانيا واوروبا قد فقدتا جماعة من انشط الجماعات في القرون الوسطى ، فان شمال افريقيا وتونس بالذات قد غنما اذكى عناصر تلك الجماعة حيث تطعمت الدولة الحفصية الناشئة فى تونس بالمثقفين والمهنيين الاندلسيين . ولنا ان نتصور ان كثيرا من مميزات الطابع الاندلسى قد انتقل مع اولئك الى المجتمع التونسى .

نأتى الان الى التساؤل الاهم : ماذا كانت ردة فعل الاوساط الثقافية الاندلسية ازاء هذا الوضع الحرج الذى انتهى بكارثة ؟

يمكننا فى هذا المجال الاشارة الى ثلاثة نماذج من ردات الفعل عند رجال الثقافة : النموذج الاول هو موقف التفاعل القوى المباشر مع الاحداث بحيث يواجه المثقف او العالم ظروف الموقف مواجهة يومية ويترك عمله العلمى اما ايمانا منه بضرورة العمل الوطنى والدينى واما رغبة منه فى الاستفادة الشخصية من اختلال

---

١) - تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ٣٢ - ٣٣

سير الامور . يمثل هذا الموقف عالم فى الحديث مثل ابى الربيع بن سالم الكلاعى الذى ترك التدريس فى بلنسيه ليقاتل حول حدودها ويستشهد بعد ان احسن بخطر الغزو والداهم ، وعالم زاهد آخر هو ابو بكر عزيز بن خطاب الذى كان معروفا "بشعار الزهد والعلماء" فى مرسية ثم انتقل فجأة الى "زى اصحاب السيوف ... وسفك الدماء" حيث تولى حكما قصيرا مضطربا فيها دفع حياته ثمنا له .

اما النموذج الثانى فموقف من يساير الاحداث ويرتبط بها ولكنه يظل محافظا على نشاطه العلمى ولايسمح لارتباطه بالاحداث ان يغرقه فيها بل يراقب الموقف بحذر حتى اذا تحج لدرجة الخطر الشديد تركه وهاجر من وطنه يمثل هذا الموقف اصدق تمثيل ابن الابار البلنسى ، المصنف الكبير ، الذى كتب لابى زيد بن ابى حفص والى بلنسيه ثم تركه عندما لجأ الى الاراجونيين وتنصر ، وعاد الى اميره الجديد ابن مردنيش وذهب سفيرا عنه الى تونس ابان محنة بلنسية .... ولكن عندما سقطت بلنسيه واخذ ابن مردنيش يغامر فى سبيل السلطة فى المدن المتبقية من شرق الاندلس تركه ولجأ الى تونس ليبدأ حياة جديدة فى ظل الحفصيين (١) . واما النموذج الثالث فموقف من ينصرف الى نشاطه العلمى انصرافا كليا ويظل يراقب الاحداث من بعيد . افضل مثل على ذلك صاحبنا ابن سعيد نفسه فبالرغم من ان اباه واجداده تولوا الامارة وشغلوا مناصب سياسية ، نجده لا يلتفت الى ذلك ، وبينما كان الاندلسيون يصارعون انفسهم ويناضلون ضد الموحدين والاسبان فى عهد ابن هود كان ابن سعيد يجول لمدن الاندلسية مسجلا مادته العلمية لكتاب المغرب لايعنيه من امر الحوادث شئ ، وقد غادر الاندلس نهائيا سنة ٦٣٦ ، اى قبل سقوط بلده اشبيلية بعشر سنين (٢) . مثل آخر على ذلك : احمد بن مفرج الاشبيلى المعروف بابن الرومية الذى وهب حياته لعلمى الحديث والنبات ورفض الاشتراك فى تبعات الحكم او الوظيفة (٣) .

---

١) - القدح ١٩١
٢) - راجع الفصل الخاص بحياته من هذا البحث .
٣) - القدح ١٨١

ومهما كانت المواقف المتخذة ، فان الحركة الثقافية فى هذا العصر كانت نشطة خصبة • رغم الحوادث الجسام والقلق والاضطراب ، بل ربما كان لتلك الاحداث فضل فى تنبيه الاذهان وتعميق الحس التاريخى والوعى العقلى عند المثقفين خاصة • وقد سبق هذه الفترة - كما اتضح - الشطر الاول المستقر المزدهر من عهد الموحدين حيث اتيح للثقافة الاندلسية فى ظل من الامن والدعة مواصلة مسيرتها فى ظل تفهم امراء الموحدين وتعاطفهم وتشجيعهم الفعلى فى اكثر الاحيان مع ما عرف عن العهد الموحدى من انشاء معاهد العلم ورعايتها والاشراف على الطلاب والحفّاظ واعالتهم • واذا كان من اثر سلبى للعهد الموحدى الاول على الثقافة الاندلسية فهو توجيهه لبعض فروع العلم كعلوم الدين، ووقوفه احيانا فى وجه علوم اخرى كالفلسفة •

ثم تأتى حقبة التحول والاضطراب هذه ،ويتلاشى السلم الموحدى ، ولكن الثقافة الاندلسية تحتفظ بالكثير من حيويتها وزخمها وتظل قيم الثقافة محترمة مقدرة باعتبارها قيما فى حد ذاتها • فتستمر المناقشات الفقهية والادبية والنحوية فى معاهد اشبيلية ومدارسها ويواصل الناس اقبالهم عليها للتخرج فيها والتزود من جوها العلمى النشيط • وكان رجال الثقافة يجلون العلم ويضعونه فوق كل اعتبار ويضحون فى سبيله ، فهذا موسى والد ابن سعيد ، وهو سليل اعرق الاسر الاندلسية نسبا ومكانة وعلما ،يلاحق الكتب اى كانت ويسير الى اصحابها مهما اتضعت مكانتهم يوم كان امير الجزيرة الخضراء - رغم ما يجده منهم من جفاء ثم انه يخبر ولده ان ما ناله من الفوائد العلمية افضل من الولاية التى نالها فى اليوم ذاته • (١)

---

١) - النفح ٨ / ١٦٢ - ١٦٣

وكان موسى هذا يقضي ايام اعياده "في جهد عظيم من الكتب" ويجد في ذلك الراحة الحقيقية (١). ولقد حدثنا ابن سعيد كثيرا عن مكتبات الافراد الذين ترجم لهم في "القدح المعلى" (٢) وماكانت تحويه من فوائد وماكان يبذل في سبيل جمعها من جهد.

وارى ان كثيرا من المثقفين حاولوا تحدى عصرهم القاسى ومجابهة ظاهرة الفناء والتشتت بمزيد من الاعمال العلمية - التى تبقى بعد فناء المال والاهل والوطن - تأكيدا للذات والوطن وحرصا على التراث وامجاد الرجال الذين افنتهم صروف الدهر. ولربما استطعنا على ضوء ذلك تفسير ظاهرة كثرة التواريخ والتراجم والسير في هذه الفترة. وان الذى يتصفح كتاب "القدح المعلى" لابن سعيد يشعر بالجو الثقافى المزدهر الذى كان يعيشه الاشبيليون خاصة، وكأن مدينتهم بعيدة عن الاضطرابات وتهديدات الغزو والافناء. وان روح التحدى ذاتها هى التى تملى على ابن الابار - افصح متحدث بلسان اهل العلم في هذه الحقبة - ان يبدأ بالاعداد لكتاب التكملة سنة ٦٣١ وكتائب اراجون تقترب من اسوار ولاية بلنسية. وهويفصح عن ذلك بعبارة تنم عن وعيه بالموقف الخطير: "وكان انبعاثى لهذا التقييد اول شهر المحرم سنة احدى وثلاثين وستمائة.... ليُعلم انها (لاندلس) ما افلت أهلتُها، وان اعضلت علتها وبطلت على البرء ادلتها، ولاهوت نجومُها وان أفوت رسومُها... ومع غربة الاسلام فيها وعجز قومها عن تلافيها، فالعلم ما صرفت علفها، ولا عدمت بالجملة حلفها.. ومصداق ذلك وصل احسانهم والحبل مبتور، ونظم جملهم (جميلهم ؟) والشمل منثور..." (٣) ويبدو ان الكارثة والتشرد قد اثرا سلبيا في هذه الروح المتحدية اذ يخبرنا ابن الابار

---

١) - النفح ١٦٩/٢

٢) - القدح ٨٦

٣) - ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة، ص ٣

ان الاحداث التى " ختمت بالمصيبة الكبرى فى اشبيلية مصائبها ودهمت بالجلاء المكتوب والرجاء المكذوب عصائبها " جعلته ينقطع عن الكتابة مدة من الزمن متعللا بما عانى من خطوب ،ولكن الحاح الاصحاب عليه بالعودة الى التصنيف ، قبل ان يصيبه مكروه ويضيع مالديه من علم ، اجبره على اتمام التأليف حفظا للحقيقة من الضياع ، بعد ان استخار " الله فى الاسعاف والاسعاد "(١) وسيستخير الله مع ابن الابار مئات العلماء الاندلسيين الذين سيفاجئهم هول الصدمة فى البداية ثم يستفيقون فى مهاجرهم الجديدة ليعودوا سيرتهم الاولى .

* *

وليس من الممكن فى هذه التقدمة الموجزة ان نؤرخ للحركة الثقافية رجالا وفروعا وخصائص ومراكز ومذاهب بالتفصيل . الا انه لابد من عرض عام للعلوم الادبية وعلم الجغرافيا والرحلات على وجه الخصوص نظرا لان مصنفات ابن سعيد ستنصب فى هذين العلمين اساسا .

يبدو شعر هذه الفترة غزيرا متنوعا ، مصطبغا بطابع عصره القلق المضطرب والشعر من طبيعته ان يكتسب حدة وحيوية فى عصر كهذا . ويبدو شعر هذه الفترة معبرا عن طابعها وروحها عندما يتوزع فى موضوعاته بين تسجيل الاحداث المتلاحقة ، والنكبات المتتالية من ناحية وبين الانصباب على وصف مجالس اللهو والغزل الغلمانى والخمريات من ناحية اخرى ،وكأنه يعكس واقع مجتمعه الذى يواجه مرارة الحقيقة تارة ويهرب الى اللهو واللذات تارة اخرى . وسيعبر الشعر فى هذه الفترة عن مشاعر الغربة خاصة عندما يستقر الشعراء فى مهاجرهم الجديدة بعد سقوط مدنهم الاندلسية

---

١) - ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ،ص ٤

وسنرى كيف ان هذه الابعاد ستسحب ظلالها على شعر ابن سعيد نفسه بشكل او بآخر . وعلى الصعيد الفني سيتجه الشعراء نحو المزيد من الكد الذهني وطلب الصورة البعيدة " الجديدة " كما سيبالغون فى اصطناع الاسلوب الرقيق المحمل بالمحسنات البديعية انسجاما منهم مع " الظاهرة الزخرفية " السائدة فى مجتمعهم .

وقد اعتنت المصنفات الادبية فى هذا العصر ـ كمصنفات ابن الابار وابن سعيد ـ عناية فائقة برواية الشعر ، حتى انها تتبعت الفقهاء والنحويين والمحدثين والنباتيين والفلاسفة والامراء فيما قالوه من شعر ولو كان لايتعدى البيتين او الثلاثة . بل ان المصنف فى اغلب الاحيان لايترجم للعالم اذا لم يكن له شعر . ومن اشهر شعراء هذه الحقبة ابن سهل الاسرائيلى الذى اعاد جوأبى نواس فى خمرياته وغلمانياته وامتاز بحدة فى الشعور ورقة فى التعبير ، وابو بكر الصابونى وابن حيون الاشبيلى ، وابن زهر الحفيد ، وابو البقاء الرندى ، وابن الابار ، وابن سعيد . والطابع الغالب على الشعر اتجاه نحو طريقة المحدثين الا ان بعض الشعراء لاسباب معينة يسيرون على نهج طريقة العرب كبعض قصائد ابن سعيد وكقصائد ابن سهل "الحجازية " (١) ، غير ان هذه حالات فردية .

وواصل الاندلسيون اهتمامهم بفنهم الشعرى الخاص : الموشح ، فأخذ عدد الوشاحين يزداد وتنوعت موضوعات التوشيح (٢) ، الا ان ازدياد العناية بالصنعة اللفظية افقد الموشح بعض رقته . ومما يدل على

---

١) ـ القدح ٨

٢) ـ تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ٢٥٠ ـ ٢٥١

ازدياد اهمية الموشحات فى هذا العصر ان ابن سعيد قام بوضع الموشحات جنبا الى جنب مع الشعر الكلاسيكى فى مولفه الموسوعى الهام " المغرب " وربما كان ذلك لاول مرة في تاريخ التصنيف الادبى .

اما على صعيد الاعمال النقدية فنذكر كتاب ابى البقاء الرندى " الوافى فى نظم القوافى " الذى يمكن اعتباره تعبيرا عن وجهة نظر مذهب المحدثين ، وسنعود الى هذا الكتاب عند الحديث عن النقد عند ابن سعيد . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال " رسالة الشقندى "(١) في المفاضلة بين الاندلس والمغرب التي تتضمن بالاضافة الى تعبيرها عن النزعة الاندلسية وعرضها لعلوم الاندلسيين ، بعض اشارات نقدية . واذا اعتبرنا مؤلف الرندى ممثلا لما يمكن تسميته بالنقد المنهجى فى هذا العصر ،فان الرسالة هذه تمثل طابع النقد الذاتى التأثرى .

وفى مجال النقد الادبى قام ابو العباس الشريشى بشرح مقامات الحريرى والتعليق عليها . وقد اثار شرح الشريشى اهتماما كبيرا مما يدل على اعجاب الاندلسيين بفن المقامة . كما شرح مقامات الحريرى فى هذا العصر محمد احمد بن سليمان المالقى(٢) . اما فى فن الرسائل فقد اشتهر ابو المطرف بن عميرة الذى كتب لامراء بلنسيه فالمغرب فتونس . وقد قال عنه ابن سعيد : " شيخ كتاب زماننا وامام ادباء اوانينا (٣) ، واسلوبه في النثر كأسلوب معاصريه يقوم على العبارات القصيرة المسجوعة ،وعليه مسحة قوية من التعبير القرآنى جاءت من ثقافته الفقهية ، اذ كان قاضيا .

---

١) ـ النفح ٤/١٧٧ ـ ٢٠٨

٢) ـ السيوطى ، بغية الوعاة ،ص ١١

٣) ـ القدح ٤٢

ويحدثنا ابن سعيد عن حركة نحوية قوية شهدها هذا العصر فيقول ان " النحو عندهم (الاندلسيين) فى نهاية من علو الطبقة حتى انهم فى هذا العصر كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ..... وهم كثير والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى اى علم لايكون متمكنا من علم النحو ... فليس عندهم بمستحق للتميز "(١) ومن اشهر علماء النحو ابوعلى الشلوبين الذى شرح " الجزولية " و " التوطئة " وكان له صيت ذائع تعدى الاندلس والمغرب وكان الناس يقصدونه فى اشبيلية من جميع الانحاء . واشتهر " باقراء مصنفات الادب الجليلة "(٢) بالاضافة الى شهرته النحوية " ومن معاصرى الشلوبينى وتلاميذه ابو الحسن بن عصفور الاشبيلى صاحب كتاب " المقرب " فى النحو ، وقد عرف ابن عصفور باسلوبه التعليمى السهل فى التأليف(٣) وكذلك يمكن اضافة ابن مالك صاحب " الالفية " فى نظم قواعد النحو الى نحويى هذه الحقبة وان كان قد عمر بعدها (توفى سنة ٦٧٢) . ويلاحظ ان الجهود النحوية كانت منصبة على الشرح وتبسيط القواعد ونشرها . وربما كان اهتمام العصر بالبراعة اللغوية من اسباب ازدهار هذه الحركة النحوية .

ومع هذه الحركة ظهرت فئة من الاساتذة تقوم باقراء كتب الادب وشرحها. من هذه الطائفة ابو الحسن الدباج(٤) ، والاعلم البطليوسى اللذان كانا يعلمان فى معاهد اشبيليه ، وقد تتلمذ عليهما ابن سعيد نفسه .

---

١) ـ النفح ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦
٢) ـ القدح ١٥٢
٣) ـ الغبرينى عنوان الدراية ، ص ١٨٨
٤) ـ القدح ١٥٥

وفى حقل التاريخ الادبى والتراجم وجمع النصوص الشعرية ، يبرز ابن سعيد وابن الابار علمين على هذه الحقبة . وستمثل مصنفاتهما كافة الاتجاهات المنهجية التى عرفها فن التصنيف من قبل ، فالحلة السيراء لابن الابار تترجم لشخصيات من الاندلس والمغرب منذ القرون الاولى اى انها مقيدة مكانا شاملة زمانا ، وكتاب " التكملة " له يهتم بالاندلسيين خصوصا فى نطاق الزمن الذى وصل اليه ابن بشكوال (٥٧٨) فى " الصلة " وان كان لايتقيد بحدود الكتاب الاخير حرفيا . بينما يقوم كتاب " تحفة القادم " على معارضة " زاد المسافر " لصفوان ابن ادريس (٥٩٨) ويختص بالاندلس ايضا لكنه زمنيا ينحصر فيمن سبق وفاته مولد المؤلف على وجه العموم (١) ، وسنرى عند الحديث عن منهج ابن سعيد فى التصنيف كيف ان فن التصنيف الادبى هذا العصر استفاد من تطور العلوم فاخذ يميل الى الدقة فى التقسيم والتبويب بشكل تفصيلى كما يفعل النحاة والفقهاء والمناطقة فى تقسيمهم وتبويبهم لفروع علومهم . وسيكون منهج ابن سعيد فى تصنيف " المغرب " افضل مثال على ذلك ، هذا المنهج الذى لو قارناه بمنهج " الاغانى " القائم على تداعى الرواية لادركنا مدى الفرق الهائل الذى طرأ فى حقل التصنيف الادبى خلال اربعة قرون تقريبا .

اما فى نطاق الجغرافية والرحلات ، فان نشاط هذه الحقبة فى الحقلين تأثر بصورة واضحة بالنتاج الجغرافى وجهود الرحالة خلال القرن السادس ، هذا القرن الذى يمكن اعتباره الفترة الذهبية وعصر النضج لعلم الجغرافية والرحلات فى الاندلس خاصة والمغرب عامة .

---

١) - ابن الابار ، المقتضب من تحفة القادم ، ص " ى "

ففى النصف الاول من القرن السادس ظهر الشريف الادريسى (٤٩٣ +) الذى يعتبره الباحثون من اعلام الجغرافيين العرب ، والذى سيبدى جدة وطرافة فى ابحاثه الجغرافية . فكتابه " نزهة المشتاق " من اهم الكتب التى تمثل ظاهرة الجمع بين الجغرافيا والوصفية والجغرافيا الفلكية ، وهو يضم مصورات جغرافية لاقسام الاقاليم السبعة وهذه تعتبر من الظواهر الجديدة فى الجغرافية العربية . كما انه فى هذا الكتاب اعتمد على مصادر اوروبية اطلع عليها فى بلاط مضيفه روجر الثانى Roger II ملك صقلية ، بالاضافة الى مصادره العربية (١) وسنرى عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد ان كتاب " نزهة المشتاق " للادريسى واحد من اهم مصادره الجغرافية (٢) . اما فى النصف الثانى من القرن السادس فقد ظهر الرحالة الشهير ابن جبير (٥٤٠ ـ ٦١٤) الذى وان كانت رحلته وصفا للبلاد المشرقية ، فان انطباعاته وميوله ستترك اثرها عند قرائه المغاربة وخاصة المهتمين بالرحلة منهم . وسنجد ان ابن سعيد فى تسجيله لمشاهد بعض رحلاته سيهتم بالنواحى الاقتصادية والثقافية كما فعل ابن جبير فى رحلته من قبله .

ومن رجال الجغرافية والرحلة فى المغرب ابن فاطمة الذى يكتنفه شىء من الغموض ، ولولا مانقله عنه ابن سعيد من معلومات جغرافية تتعلق بغرب افريقيا ووسطها لما امكن التعرف الى طبيعة جهوده (٣) والراجح انه قام برحلة بحرية جنوبى مراكش وربما وصل الى ساحل الذهب على الساحل الافريقى الغربى (٤) .

---

١) ـ انظر مادة (جغرافيا " فى الموسوعة الاسلامية ج ٧ ص ٢٦ (الترجمة العربية)
٢) ـ انظر فصل " ابن سعيد الرحالة الجغرافى " من هذا البحث .
٣) ـ ابن سعيد ، بسط الارض فى الطول والعرض ص ١٤ ، ٣٦
٤) ـ زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى القرون الوسطى ، ص ١٢٢

وقد تعمق الحس الجغرافي في الاندلس مع نشوء دول الطوائف في المدن الاندلسية المختلفة حيث اخذت كل مدينة تفتخر على الاخرى بما لها من حسنات ، وازداد هذا الحس عمقا عندما بدأ الاحتكاك قويا بين الاندلس والمغرب عهدي المرابطين والموحدين . ويعتبر العصر الموحدي عامة عصرا زدهار للنشاط الجغرافي خصوصا فيما يتعلق بافريقيا حيث توسعت الدولة الموحدية في افريقيا الغربية ، كما يذهب بعض الباحثين الى ان المغاربة قاموا باكتشاف منابع النيل في هذا العهد (١) .

ومن اهم الخصائص التي تميز بها التأليف الجغرافي في عصر ابن سعيد امتزاج الجغرافيا بالتاريخ والادب. من دلائل ذلك كتاب " المعجب " لعبد الواحد المراكشي (ـ ٦٢١) الذي مزج بين الجغرافية والتاريخ . وكتاب ياقوت " معجم البلدان " حيث امتزجت الجغرافيا بالتاريخ بالادب ،وكتاب " المغرب " لصاحبنا ابن سعيد نفسه الذي ارتبط في ذهنه التصنيف الادبي بالتصور الجغرافي . ومن الخصائص الملحوظة ايضا نقل معارف السابقين وتنظيمها وتبويبها بعد صياغتها في اسلوب ادبي ـ والميل الى ذكر العجائب والخوارق (٢) .

واتماما لهذه الصورة الموجزة يجمل بنا الاشارة الى اهم الاسماء في نواحي المعرفة الاخرى . ففي علم الحديث اشتهر خلال هذه الحقبة ابن القطان الكتامي المعافري (ـ٦٢٧) وابو الربيع الكلاعي البلنسي (ـ٦٣٣) الذي يعتبر عالم العصر الاول في الحديث ،وابن الرومية (٦٣١) الذي عرف بميله الى المذهب الظاهري .

---

١) محمد المنوني ،العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ،ص ٩٣

٢) ـ انظر مادة " جغرافيا " في الموسوعة الاسلامية

وفى حقل التصوف برز اسم ابن عربى (- ٦٣٨) وتلميذه ابن سبعين (- ٦٦٩) ويلاحظ ان الاثنين امضيا الشطر الثانى من حياتهما فى المشرق.

اما فى علم النبات فنشير الى ابن الروميـة السابق الذكـر الذى قام برحلة علميـة الى المشرق لدراسة النبات ثم عاد الى اشبيلية . ونخص بالذكـر ابن البيطار العالم النباتـى الشهير (- ٦٤٥) الذى رحل الى المشرق ايضا وتوفى فى دمشق ، وكتابه " الجامع " من المصادر العلميـة الهامة فى القرون الوسطى.

٥) اهم المراكز العلمية فى هذا العصر :

اما فيما يختص بمراكز العلم ،فاننا نرى اشبيلية تحافظ على مكانتها الى مابعد منتصف هذه الحقبـة (اى حوالى ٦٣٥) مواصلـة دورها الذى اضطلعت به منذ العهد الموحدى الاول.

ولقد امتازت اشبيلية بكثرة معاهدها واقبال الطلاب عليها من سائر انحاء الاندلس - وكذلك المغرب - للدراسة فيها . وتوجه رجال العلم نحوهـا لاظهار علمهم ونبوغهم. واكثر مصنفى هذه الفترة وعلمائها وفقهائها وشعرائهـا اشبيليون : اصلا او اقامة . وسنخص جو اشبيلية بشىء من التفصيل بعد قليـل مكتفين هنا بالاشارة الى كونها المركز الاعظـم للثقافة فى هذا العصر.

ومع اقتراب سقوط اشبيلية وبقيـة الاندلس ،كانت الظروف تعد تونس لترث مكانة اشبيلية ولتصبح اهم مركز ثقافى فى الشمال الافريقى . ففى ظل الحكم الحفصـى ، اكثر النظم استقرارا فى المنطقة عندئذ ، اخذ الاندلسيون يتوافدون عليها بكثرة حاملين معهـم خزائنهـم العلميـة ليعيدوا خلق جوهـم العلمى من جديد.

ونلاحظ ان حياة ابن سعيد نفسه كانت — قبل رحيله الى المشرق — موزعة بصورة رئيسية بين اشبيلية وتونس حيث كانت الاولى متألقة فى بداية الحقبة وحيث بدأت الثانية تتألق مع نهايتها وفى السنين التى تلت . ويصدق هذا القول على اكثر علماء اشبيلية خاصة والاندلس عامة .

الى جانب هذين المركزين الرئيسيين الهامين ، كانت هنالك مراكز اخرى فى الاندلس لها دورها الثقافى مثل قرطبة وبلنسيه فى اوائل الحقبة ، الا انهما لم تكونا فى مكانة اشبيلية التى كانت عندئذ قاعدة السلطات ، واكثر امانا — نسبيا — من حيث التأثر بسير الغزو الاسبانى اذ لم يصلها الاسبان الا بعد ان احتلوا قرطبة بثلاث عشرة سنة وبلنسيه بعشر سنين . وفى اواخر هذه الحقبة كانت الظروف تهيء غرناطة لتكون المركز العلمى الوحيد والاخير فى الاندلس . فبعد سقوط المدن الاخرى قصدها بعض العلماء للعيش فى ظل اميرها ابن الاحمر الذى هادن الاسبان وبدأ يضع اسس امارته الجديدة . غير ان وضع غرناطة لم يكن واضحا فى الزمن الذى نتحدث عنه وكان ثمة خوف من سقوطها مع البقية ، لذا لم تزدهر الحركة العلمية بها اثناء تلك الحقبة بالذات وان كانت بذورها قد بذرت .

اما فى الامارة الحفصية ، فنشاهد الى جانب المركز الثقافى الاهم : تونس ، مدينة بجاية التى يعود ازدهارها العلمى — بصورة رئيسية — الى العلماء الاندلسيين المهاجرين اليها من اشبيلية وبلنسيه ومالقة ومرسية وشاطبة (١) . ويبدو ان الصبغة الدينية كانت غالبة على النشاط الثقافى فى بجاية اذ قصدها كبار متصوفة العصر وفقهائه وحفاظه (٢) . ومن المراكز العلمية الجديرة بالذكر فى هذا المجال جزيرة منورقة حيث اقام الرئيس العالم الاديب سعيد بن حكم القرشى نظاما مرنا مهادنا للاسبان . فكان بعض العلماء المهاجرين من الاندلس يقصدون بلاطه للاقامة او يمرون به طلبا للمساعدة . وكانت العلاقات العلمية ناشطة بين منورقة وتونس فى ذلك الوقت بفضل علماء الاندلس خاصة (٣) .

---

١) — عنوان الدراية: ص ٥ ، ٤٣ ، ٥١ ، ١٣٩ ، ١٧٤ ، ١٨٨

٢) — المصدر السابق: ٥ ، ١٣ ، ٢٠

٣) — القدح: ٢٨

٣) اشبيلية فـــى عصر ابن سعيد

١ ـ جو اشبيلية الطبيعي والعمرانـــي :

تقع اشبيلية على نهر الوادى الكبير الذى يمر بها آتيا من قرطبة منسابا نحو مصبـــه عند البحر المحيط . وهذا الموقع جعل منها ميناء نهريا داخليا ، بالاضافة الى اهمية مركزها فى التجارة البريـــة . كما ان وجودها فى هذه المنطقة النهريـــة جعل منها قاعدة لمنطقة زراعية واسعة . وهذا الجو الطبيعى الاخضـــر كان لـــه اثره فى تلطيف اذواق الاشبيليين وتعميق احاسيسهم بالمنظر الجميل : فالريـــف الاشبيلى يمتاز بـ " الماء الجارى والاشجار المتكاثفة كالنارنج والليمون .. وغيـــر ذلك (١)" ، فهو " كريم التربة ، دائم الخضرة لاتكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه " (٢) حتى ان السائـــر يمشى اربعين ميلا فى مثلها " فى ظل الزيتون والتين " . كمـــا ان نهرها الذى يخترقهـــا يمتاز عن سائر الانهار بـ " كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم ، متصل ذلك اتصالا لايوجد على غيره " . وهذا الحســـن الطبيعـــى سحب نفسه على مظاهر العمران فى المدينة ، فقد اهتم الاشبيليون بـ "تزيين الخاج والداخل " من مبانيهم وراعوا تبييضها لتتناسب مع جو مدينتهم الاخضـــر فاذا " هي من تبييضهم لها نجوم فى سماء الزيتون (٣) "على حد تعبير الشقندى الذى يصف اشبيلية فى تلك الحقبة بالذات . وسيفتقد الاشبيليون هذا الانسجام بين البيـــاض والخضرة الذى سيظل مقياسا لحكمهم على جمال المدن ونضارتها حتى ان ابن سعيـــد نفســـه سيتعجب عند دخوله " الديار المصرية من اوضاع قراها التى تكدر العيـــن بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق اوضاعها ...

---

١) ـ نفح الطيب: ٤/ ٢٠٠
٢) ـ المصدر السابق: ١/ ١٥٠
٣) ـ المصدر السابق: ٤/ ١٩٩

وفى الاندلس.. اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم ... مدينة شريش وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ،ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة..... وهذا كثير فى الاندلس.(١)

٢ - عظمة اشبيلية فى العصر الموحدى :

عندما تألقت اشبيلية فى عصر ابن سعيد مركزا ثقافيا وحضاريا فى بلاد الاندلس ومنطقة المغرب الاسلامي كله ، لم يكن تألقها هذا امرا عابرا اوحادثا جاء مع السلطان الموحدى ونشأ لظروف دقيقة محدودة . فاشبيلية كائن حضارى عريق اخذ ينمو تدرجا وصعدا مع حركة التاريخ حتى شهد كامل نموه فى العصر الموحدى . عندما كانت اسبانيا رومانية كانت اشبيلية قاعدة الرومان ، وعندما اصبحت قوطية اضحت اشبيلية اكبر مدنها وارقى مركز فكرى فيها ، وعندما غدت عربية امست اشبيلية مقر اول امرائها : عبد العزيز بن موسى بن نصير . لذا كان انقيادها لقرطبة صعبا ، اذ تمردت عليها يوم كانت قرطبة اموية وانفصلت عن سلطة خلفاء عبد الرحمن الثانى بن الحكم فى ظل امرائها بني الحجاج . وما ان خربت الفتنة البربرية قرطبة سنة ٤٠٠ هـ حتى غدت اشبيلية المدينة الاولى فى الاندلس : عمرانا وسياسة وثقافة .

تألقت مع تألق الشعر والادب فى بلاط بني عباد ثم اخذها المرابطون عاصمة لهم عندما حكموا الاندلس واخيرا غدت عاصمة الموحدين عندما انتقل اليها الخليفة العالم يوسف بن عبد المؤمن ،وواصل الاقامة فيها خلفاؤه من بعده اثناء وجودهم فى الشطر الاندلسي من دولتهم . وقد حظيت اشبيلية بالكثير من اهتمام هذا العاهل المثقف المشجع للعلوم والعمران . فهو " الذى مصر اشبيلية وامر ببناء سورها من جهة الوادى.. بعد هدم السيل له عام اربعة وستين)(٥٦٤) - ولما استقر باشبيلية فى عام ستة وستين (٥٦٦) عقد جسرا على واديها بالقنطرة العظيمة المؤسسة.. لعبور الناس.....

---

١) - النفح: ١/١٩١

ولاجازة العساكر للغزو ٠٠ وجلب الماء فى الساقية لمشرب اهلها ٠٠٠ وابتنى فيها الجامع الكبير ٠٠٠ وابتنى الصومعة الى نصفها وابتنى الزلالق لابواب اشبيلية ٠٠٠ احتياطا من السيل ،وابتنى قصبتها البرانية والداخلية ٠٠٠ وابتنى جميع اسوارها ٠٠٠ وفدى من الاسر من وجد عند الروم من اهلها "(١) ٠ وصحبت هذه النهضة العمرانية حركة تجارية مزدهرة وحركة ثقافية نشطة ٠ والواقع ان معظم ما اشرنا اليه من مظاهر الثقافة كان ينطلق من اشبيليه اويتجه اليها ٠ وقد واصل خلفاء يوسف العناية باشبيلية : فأكمل ابنه المنصور صومعة مسجدها الجامع ببناء بج " الجيرالدا " والجدير بالذكر ان هذا الجامع الاعظم بنى على يد جد ابن سعيد ٠ محمد بن عبد الملك والى اشبيلية من قبل الموحدين ٠(٢) كما قام المأمون ببناء برج الذهب ٠ واذا كانت اشبيلية قد فقدت عظمتها السياسية تدريجا ابتداء بوفاة المنصور ومرورا بهزيمة العقاب وانتهاء برحيل المأمون عنها ووقوعها فريسة بين تنازع ابن هود والباجى وابن الاحمر ،فانها لم تفقد مكانتها الحضارية عامة والثقافية خاصة بمثل هذه السرعة شأنها فى ذلك شأن سائر المدن العظيمة التى مرت بظروف مشابهة ٠ وهكذا ظلت متألقة شطرا كبيرا من هذه الحقبة الاخيرة حتى السنوات الاخيرة التى سبقت سقوطها عام ٦٤٦ هـ ٠

واشبيلية فى هذه الحقبة صورة ناطقة لطابع عصرها المتغير ، المتقلب ، المشحون بالحيوية ،والناظر لاشبيلية من زاوية معينة يخرج بانطباع مغاير لانطباع الناظر اليها من زاوية اخرى ٠ فقد كانت هذه المدينة مجموعة من " الاجواء " التى تبدو متنافرة متباعدة من الخارج ولكن من يحاول ان ينظر اليها عن كثب يمكنه ان يكتشف وحدة تلك الاجواء المتباينة ، التى يكوّن تمازجها العجيب : " اشبيلية " ٠

---

١) ـ البيان المغرب ٣/١٣٨ ـ ١٣٩
٢) ـ المغرب ٢/١٦٢

فقد كانت اشبيلية قاعدة السلطة السياسية وكانت قاعدة انطلاق جيوش الموحدين للغزو وكانت مركز الثقافة الاول فى الاندلس والمغرب .... وكانت مركزا تجاريا عظيما .. وكانت - اخيرا لاآخرا - مدينة الطرب واللهو والفرجة ... وبايجاز كانت كعبة لالتقاء كافة الميول والاهواء ،فقد جمع فيها الغرب الاسلامى كافة مخزوناته الحضارية فى آخر فترة وازهى فترة من فترات تألقه الحضارى . وربما - نظرا لذلك - يمكننا قبول المبالغة المشهورة التى رواها لنا الشقندى عن عوام اشبيلية : " لو طلب لبن الطير فى اشبيلية ..وجد "(١)

٣ - اشبيلية وحياة اللهو والطرب :

فى هذا الجو الطبيعى الجميل التقت عناصر عديدة من السكان . من بقايا الرومان والقوط ، الى الاسبان الاصليين ، الى العرب ، الى البربر ، الى الجالية اليهودية ، الى عناصر مجلوبة اخرى كالصقالبة ، لتكون شعب اشبيلية الناطق بالعربية ، الخاضع للموحدية ، المعتز بالاندلسية . ومن الطبيعى الا يرى هذا الشعب المزيج فى التزمت والجد والصرامة والوقار قيما يجب التمسك بها حرفيا . لذلك ليس من المستغرب ان نجد " اهل اشبيلية اكثر العالم طنزا وتهكما " اذ انهم " قد طبعوا على ذلك "(٢) حتى طارت لهم شهرة طبقت الافاق فعرفوا بانهم " اخف الناس ارواحا ، واطبعهم نوادر ، واحملهم لمزاح باقبح مايكون من السب ،قد مرنوا على ذلك . فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لايبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا .. "(٣) وطبيعى ان يقدر هذا الجو الضاحك المرح مظاهر اللهو على اختلاف انواعه خاصة فى هذا العصر الذى تشجع ظروفه الاجتماعية والنفسية على ذلك . وهكذا اصبحت اشبيليه " باهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة "(٤) وقد سعد هذا الوادى (وادى اشبيلية)

---

١) - المغرب ١/٢٨٦
٢) - نفح الطيب ٤/١٩٩
٣) - المصدر السابق ١/١٥١
٤) - المصدر السابق ٤/١٩٩

بكونه لا يخلو من مسرة ، وان جميع ادوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكـــــر لاناه عن ذلك ولا منتقد ، مالم يؤد السكر الى شر وعربدة .. " واذا عرفنا ان هذا الكـلام اورده اديب اندلسي كبير هو الشقندي في مجال الفخر باشبيلية عاصمـــة الاندلس امام اميرموحدي وفي مناظرة ضد مغربـي متطرف ـ دون ان يخشى لومـــة لائم ، ادركنا ان الرأي العام عندئذ كان يقدر هذه الجوانب من الحياة ولا يستحـــي او ينفر منها . بل ان الشقندي يشير صراحة الى ان مقاومة الدولة لذلك باســـم الدين لاتجدي ، فيقول : " .. وقد رام من وليها من الولاة المظهرين المديـــن قطع ذلك ، فلم يستطيعوا ازالته "(١) فاذا كان هذا القول ينطبق على عصر الموحدين الملتزمين بعقيدة محددة ، فما بالك بعهود الامراء الضعاف الذين توالوا على حكم اشبيليه من بعدهم ؟

وقد ادى جو المرح واللهو الى تشجيع الطرب والغناء حتى غدت اشبيليـــة المركز الموسيقي الاول في الاندلس وارتبط ذكرها بذكـــر الموسيقى حتى ان ابن رشد عندما اراد الفخر بمدينته قرطبـــة في مناظرة بينه وبين ابي بكر بن زهر قال له : «ما ادري ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبـــة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع الاته حملت الى اشبيليه»(٢) ، وقد مدح ابن رشد اشبيلية من حيث مكانتها الموسيقية ـ حيث اراد ذمها . ويحدثنـــا الشقندي عن تنوع الالات الموسيقية في اشبيلية فيقول : " وقد سمعت مافي هـــذا البلد من اصناف ادوات الطرب كالخيال والكوبج والعود والروطة والرباب والقانـــون والمؤنس والغنار والزلامي والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والاخـــر رقيقه ، والبوق ، وان كان جميع هذا موجودا في غيرها من بلاد الاندلس فانه فيهـــا اكثر واوجـــد "(٣) .

---

١) ـ نفح الطيب ٤/١٩٩
٢) ـ المصدر السابق ١/١٤٧
٣) ـ المصدر السابق ٤/٢٠٠

وسنرى كيف ان هذا الجو الضاحك ، المرح ، الخليع ، الطروب قد عكس نفسه في مصنفات ابن سعيد وفي جوانب من حياته الخاصة حتى غدا عنصرا اساسيا من عناصر شخصيته .

٤ ـ جو الجد والعلم والتدين في اشبيلية :

من مظاهر عظمة اشبيلية ان جو اللهو والطرب لم يتمكن ان يسيطر عليها ليجعلها مدينة مناز وحانات فحسب. فقد سابقت شهرة اشبيلية في العلم شهرتها في اللهو واذا كانت هذه الشهرة الاخيرة عمت آفاق الاندلس فان الشهرة الاولى وصلت الى المشرق : شامه وعراقه ، ولا تكاد مصادر هذه الفكرة كالقدح والتكملة وعنوان الدراية تمر بشخصية علمية دون ان تذكر علاقتها باشبيلية سواء أكانت هذه العلاقة اقامة او دراسة وتدريسا او امامة او توطنا او زيارة .

ومنتديات العلم في اشبيلية عديدة في مقدمتها بلاط الموحدين الذي اصطبغ بصبغة علمية رفيعة ايام يوسف عبد المؤمن وابنه المنصور بماضم من اكابر رجال الفكر والادب والفقه ـ وقد اشرنا الى اشهرهم ـ كما ان المأمون ـ آخر خليفة موحدي في الاندلس ـ عرف بتشجيعه الشديد للعلم وبشغفه الشخصي بالعلوم حتى عد عالما (١) ، بالاضافة الى ذلك كانت دور الامراء والاعيان تستضيف اهل العلم وتعتني بالخزائن العلمية. ولقد كانت بعض دار بني سعيد ـ وهم ولاة المدينة من قبل الموحدين ـ في مقدمة الدور المهتمة بعلوم التاريخ والجغرافيا والادب ، خاصة وان هذه الاسرة قد الزمت نفسها مسؤولية هامة الا وهي وضع موسوعة ادبية ـ تاريخية ـ جغرافية عن الاندلس خاصة والمغرب عامة ، هي كتاب " المغرب " الكبير . وكان الاثرياء الذين يقيمون لانفسهم القصور الضخمة يحرصون على اتمام مظاهر ابهتهم باضافة المكتبات اليها ، فهذا ابن حسان الاشبيلي يبني قصرا يشبه " منزل السلطان " ويلحق به مكتبة كبيرة يستقبل فيها زواره من محبي العلم ، يحدثنا ابن سعيد عنه :

---

١) ـ القدح ١٥٢

" دخلت اليه مع والدى وهو بهذا القصر فى بهو قد ملأه من الكتاب . فسافرت ابصارنا فى تلك الساحة العريضة الطويلة ... (١)

وكانت مجالس العلماء والمساجد اهم مراكز التدريس العامة التى لاتقتصر على طبقة دون طبقة بل هى مفتوحة للجميع اغنياء وفقراء ، بلديين وغرباء ، من ذلك مجلس الشلوبين (٢) امام النحو فى عصره واستاذ ابن سعيد وابن سهل وابى بكر الصابونى . يحدثنا ابن سعيد ان مجلسه " باشبيلية كان غاصا بالبلديين والغرباء من الافاق .. ثم رحلت فوجدت ذكره قد ملأ مسامع الشام والعراق " (٣) ومن مراكز العلم المشهورة فى اشبيلية جامع العدبّس حيث كان ابو الحسن الدباج الذى كان من الادب بمنزلة عالية " والذى كان " امتن الناس دينا واخلصهم لله يقينا " يتولى الامامة واقراء الادب " (٤)

والى جانب ما شهدناه من نماذج الخلاعة والانحلال الخلقى نلتقى فى هذه المدينة الجامعة بنماذج رائعة للورع والتقوى فهذا الشيخ ابوبكر بن قصورة بن زهر الايادى الاعظم يتصف بـ " حال جليل من الصيانة ، والخير والامانة ، حتى قدمه اهل بلده اماما بجامعهم الاعظم وكان رحمه الله ـ حقيقا بان يؤتم به ويقدم ... (٤) وهذا الفقيه ابوعمران موسى المارتلى يشتهر بالزهد والانقطاع حتى كان فى ذلك واحد وقته " يزوره الملوك ويتبركون به ويستوهبون دعاءه .. وكان لايقبل من احد شيئا وانما كان له مايقوم به من ملك ورثه من جهة طيبة . وكان مع ذلك يعمل الخوص بيده فى خلوته ويبيعه ويتصدق منه لانه كان يرى كراهية البطالة عن شغل لمثله (٥)

وكانت دور العلم هى الجامع الذى يلتقى فيه اهل اللهو والطرب من شعراء وزجالين ووشاحين ومتغنين كابن سهل وابن عتبة وابن جحور والصابونى باهل الجد من

---

١) ـ القدح ١٥٢
٢) ـ المصدر السابق ١٥٥
٣) ـ المصدر السابق ١٥٠
٤) ـ الغصون اليانعة ١٣٥ ـ ١٣٧
٥) ـ انظر الفصل الخاص بشخصيته من هذا البحث

فقهاء ونحويين ومقرئين كالدباج والاعلم البطليوسى والشلوبين وابن عصفور ، فتتم فى رحاب المعرفة وحدة شخصية المدينة الضاحكة الجادة ، اللاهية المتدينة النابضة بتدفق الحياة اولا واخيرا .

ومن الطريف ان نشير فى الختام ان ملامح شخصية اشبيلية - على ماهى عليه من تنوع وخصب - سنراها تنطبق الى حد كبير على شخصية ابن سعيد الاديب الجغرافى المنادم الظريف ، بل ربما جاز لنا القول ان ابن سعيد اصدق معاصريه تعبيرا عن روح اشبيليه .

٤) - اسرة بنى سعيد

من حق بنى سعيد علينا فى هذا البحث ان نخصهم بشىء من الالتفات لاسباب عدة ، أولها ان هذه الاسرة لعبت دورا مرموقا فى تاريخ الاندلس الثقافى والسياسى وخاصة فى عصر الموحدين ، وثانيها ان بعض افرادها البارزين ساهموا فى الاعداد لكتاب المغرب قبل ان يقوم آخرهم صاحبنا على بن سعيد باظهاره فى ثوبه النهائى . فهؤلاء اذن مشاركون رئيسيون فى الكتاب الذى تحاول هذه الدراسة ابرازه بشكل خاص باعتباره مصدرا اوليا فى الابحاث الاندلسية . اما ثالث هذه الاسباب فهو ان تعرفنا الى اسرة بنى سعيد شخصيا وثقافيا سيمكننا من فهم " البيئة العائلية " التى نشأ فيها ابن سعيد نفسه والتى تأثر بها خلقيا وعلميا الى حد بعيد كما سنرى عند دراستنا لشخصيته .

واسرة بنى سعيد اسرة عربية معروفة ارتبط ذكرها بتاريخ الكفاح الاسلامى المبكر ضد مشركى قريش عندما اشتد ضغطهم على النبى واصحابه قبل الهجرة . فهذه الاسرة تنتمى الى عمار بن ياسر العنسى الذى احتمل هو ووالداه حر الهجير فى مكة تحت سياط القرشيين حتى استحقوا قول الرسول : " صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة " ..

.../..

وتشاء الظروف ان يكون لعمار دور آخر مشهود فى معركة الجمل ،ودور اكثر اهمية فى معركة صفين اذ انه قتل مخلفا وراءه جدلا عنيفا بين انصار علـــى واتباع معاوية حول تفسير العبارة المنسوبة للنبى والموجهة له : " تقتلك الفئـــة الباغية " .

ويبدو ان بعض احفاد عمار قدم الى الاندلس فى عهد الفتح او بعده بقليـــل ، اذ نجد احد احفاده وهو عبدالله بن سعد بن عمار يحل بالقلعة التى ستعرف بقلعـة بنى سعيد (وهى عبارة عن اقطاعية كبيرة فى ريف غرناطة تتكون من القلعة السعيديـــة ـ اكبر حصن بها ـ ومن حصنيْ القبذاق والعُقبين (١) وتعرف ايضا بقلعة يحصب او Alcala'la Real (٢)) ويصبح اميرا على اليمانية من جند دمشق ويوالـــى يوسف الفهرى والى العباسيين فى الاندلس ،ويقف تبعا لذلك فى وجه بنى عمـــار الامويين قاتلي جده (٣).

وبعد قتل عبدالله المذكور على يد الداخل ،يختفى ظهور هذه الاسرة عن مســـرح الاحداث المشهورة حتى يثور احد افرادها ،وهو خلف بن سعيد (٤) ، زمن ملوك الطوائف ويستقل بالقلعة وتوابعها .

عبدالملك بن سعيد (٤٩٦ ـ ٥٦٢) (٥)

ويظل بنو سعيد فى قلعتهم حتى يظهر من بينهم عبد الملك بن سعيد الذى ساهم فـــى مقاومة المرابطين اثناء ثورة الاندلس عليهم ،ثم ايد الموحدين واستمر فـــــى امارة منطقتـــه باسم عبد المؤمن اول خلفائهم . ويبدو ان عبد المؤمن شك فـــى

---

١) ـ المغرب ٢ / ١٦٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥
٢) ـ آنخل بالنثيا ،تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٤٤
٣) ـ المغرب ٢/ ١٦١
٤) ـ المصدر السابق ٢/ ١٦١
٥) ـ انظر المصدر السابق ٢/ ١٦١ ،وكذلك النفح ٣/ ١٠١

ولائـــه له فاستقدمه الى مراكش وسجنه ، الا انه عاد فعفا عنه واعلى قدره • وكانت وفاته بحضرة مراكش • وقد عرف عبد الملك بتشجيعه للعلم ومساهمته فيه ،ففـــى اواخر حكم المرابطين قدم عليه ابو محمد عبدالله الحجارى (٤٩٩ ـ ٥٤٩) (١) ومدحه وصنف له بناء على طلبه كتاب " المسهب فى غرائب المغرب " الذى اصبح فيما بعـــد نواة لكتاب " المغرب " ويروى ان عبد الملك نفسه هذب " المسهب " وزاد عليـــه ثم عهد به الى ابنائه من بعده ، فبين الحجارى وبنى سعيد ـ اذن ـ رابطة من العلم ورابطة من الولاء والخدمة • فهو كما ذكر واضع نواة المغرب بمهسبه الذى الفه سنـــة ٥٣٠ من ستـــة اجزاء وضمنه فضائل اهل الاندلس والمغرب على اساس ذكـــر المشاهير منذ زمن الفتح حتى عصره مع رواية شىء من اشعارهم واخبارهم التاريخيـــة ممزوجة بشىء من المعلومات الجغرافية • وللحجارى اتصال بالامير احمد بن عمـــاد الدولة بن هود امير " روطة " فى عهد الطوائف ،وقد اسر فى اثناء مرافقتـــه لهذا الامير فى احدى غزواته ولم ينقذه من الاسر الا عبد الملك بن سعيد السابق ذكـــره • وصفه على بن سعيد بانه " جاحظ المغرب " وروى ان والده موسى بن سعيد اطنب فى الثناء عليه من طريق البلاغة نظما ونثرا ومعرفة بالتصنيف (٢) •

محمد بن عبد الملك بن سعيد (٥١٤ ـ ٥٨٩) (٣)

كان ولى عهد والده ، عبد الملك وقائد جنده • اتصل بالمرابطين اول الامر حيث صار مقدما عند يحيى بن غانيه واليهم على غرناطة ،ثم ولاه الموحدون اعمال اشبيلية وغرناطه واعمال سلا بالمغرب الاقصى وعلى يديه بُني الجامع الاعظم باشبيلية ، وقد اشتهر محمد بالقدرة والكفاءة فى الحكم كما كان واسع الثراء يميل الى الابهة فى منزله وملبسه ومواكبه حتى ان الخليفة الموحدى المنصور عوله وصادر املاكه فترة من الزمن ، الا انه عاد وعفا عنه وعوضه لما عرف عنه من الاهتمام بامور الرعية •

---

١) ـ المغرب ٢/٣٥ تاريخ الفكر الاندلسى ٢٧٢
٢) ـ المغرب ٢/٣٥
٣) ـ المصدر السابق ٢/٦٢ النفح ٣/١٠٠

وسار محمد على سنة والده فى تشجيع العلم فواصل الاهتمام بتوسيع كتاب "المغرب" كما شجع رجال العلم والشعر حتى قصده الرصافى البلنسى (ـ٥٧٢) شاعر العصر الكبير "الذى كان يمدح الخلفاء"، وبالغ فى مدحه وتعظيمه.

الشاعر ابو جعفر احمد بن عبد الملك (ـ٥٥٩) (١)

هو شقيق محمد السابق ذكره، يعتبر اشعر اسرة بنى سعيد، واحد الشعراء البارزين فى عصر الموحدين. وفى حياته عدة ظواهر تستلفت النظر. فلقد كان مخلصا مع ذاته منسجما مع مزاجه الشعرى لا يخضعه لمتطلبات وزارة او كتابة حاول والده عبد الملك ان يكل اليه وظائف فى الدولة فانسل منها، كما ولاه ابو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة وظيفة الكتابة وارغمه على ذلك فهجاه وساءت علاقته معه وادى ذلك الى قتله. ولابى جعفر شبه بابن زيدون. فلقد احب شاعرة تدعى حفصة الركونية، واخذ يراسلها بالاشعار وتلاقى معها ونافس فى حبها مولاه ابا سعيد بن عبد المؤمن مما ادى الى مزيد من التدهور فى علاقته به وانتهى الامر بقتله. ولابى جعفر يد طولى فى اضافة مواد جديدة الى "المغرب" فقد كان شاعرا يميل الى فنون الادب بطبعه ما افسح له مجال الاهتمام بهذه الرسالة الموسوعية المتنامية.

والد ابن سعيد، موسى بن محمد بن عبد الملك (٥٧٣ ـ ٦٤٠) (٢)

هو ابرز ابناء الوالى محمد، يتوازى فى حياته خطان: العمل للدولة فى الامارة والولاية، والجهد الشخصى فى حقل التقييد والتصنيف، الا انه على العموم اقل احتفالا بالناحية الاولى واكثر ميلا الى الثانية وربما كانت حياته مرحلة وسطى ففى تاريخ الاسرة من اهتمامها بالعمل السياسى اساسا الى تحولها شيئا فشيئا نحو العمل العلمى.

---

١) ـ المغرب ٢/ ١٦٤؛ الرايات ٦٤؛ ابن الخطيب الاحاطة ١/ ٩٤؛ النفح ٥/ ٢١١؛ العمرى، المسالك ١١/ ورقة ٢٧٩ (مخطوطة طبقوسراى)

٢) ـ المغرب ٢/ ١٧٠؛ النفح ٣/ ٩٩، ١١٤ ـ ١٢٨.

فالملاحظ ان اسرة بنى سعيد منذ ايام خلف بن سعيد حتى ايام محمد بن عبد الملك والد موسى كان يغلب عليها الطابع السياسى مع اهتمامها بالناحية العلمية ، الا انه مع ظهور الشاعر ابى جعفر وموسى بدأ الاتجاه يشتد نحو العلم يتغلب على الاتجاه السياسى ، وسنرى ان هذا التطور سيتوج بظهور صاحبنا على بن سعيد الذى سيترك المهام السياسية والرسمية - اللهم الا تولى الكتابة لبعض الامراء وقت الحاجة ، وهى وظيفة ذات طابع ادبى - ويتجه بصورة رئيسية نحو حقل التصنيف. ولعل سر هذا التحول راجع الى تدهور الاوضاع السياسية فى الاندلس وارتباط العمل السياسى بالاخطار والنكبات ، مما حدا بالاسرة الى الاتجاه نحو اهتمامها الاخر الذى ازداد نموه مع تصاعد النشاط العلمى فى العهد الموحدى ، والذى كان الملجأ الامين الوحيد فى مثل تلك الظروف.

هذا وقد استمر موسى فى خدمة الموحدين (١) ، وكان ضمن حاشية المنصور التى صحبته فى وقعة الارك المشهورة سنة ٥٩٢ ، ثم كتب للخليفة عبد الواحد (المخلوع) واتصل بالعادل وصحبه فى رحلته الى مراكش سنة ٦٢٤ (٢) وبعد مقتله عاد الى الاندلس حيث كتب لمنافسه ابى العلاء المأمون وهو آخر خليفة موحدى يحكم الاندلس. وفى ظل حكم ابن هود تولى امرة الجزيرة الخضراء بين سنتى ٦٣٠-٦٣٢ (٣) الا انه اخر عن الولاية بسبب الوشايات ومنذ ذلك الحين لم يتول موسى عملا رسميا فى الاندلس ، خاصة عندما بدأ الصراع على الحكم فى اشبيليه ذاتها بين ابن هود والباجى وابن الاحمر مما اتاح له فرصة التنقل ومقابلة العلماء والاخذ منهم. ويطنب المؤرخون فى ذكر كلف موسى بالرحلات العلمية واللقاءات الشعرية والادبية ، فلقد زار معظم المدن الاندلسية قبيل مغادرته النهائية للاندلس سنة ٦٣٦ ويندر ان يكون

---

١) - المغرب ١/٢٢٢
٢) - القدح ٢١١
٣) - المصدر السابق ١٤٢

قد فوت الالتقاء بعلم من اعلام العلم والادب في عصره ، ومعظم رجال الثقافة الذين رآهم ابن سعيد هم اصدقاء شخصيون لوالده . ومن ضمن العلماء الذين تتلمذ عليهم او استفاد منهم ابن رشد (١) والحافظ وابو بكر الجد ، وابو بكر بن زهر (٢) ، وابو وليد الشقندى (٣) .

ويحدثنا ابن سعيد ان والده موسى له " الحظ الاوفر " في كتاب المغرب كما انه اوحى له بفكرة كتاب " المشرق " وكان " اشغفهم (بنى سعيد) بالتاريخ واعلمهم به .. وقد عاش سبعا وستين سنة ولم اره يوما يخلى مطالعة كتاب ، او كتب ما يحلو له حتى ايام الاعياد ." (٤)

ولموسى نظم يميل الى الطريقة الوعظية وتمتاز كتابته النثرية بتغلب عنصر الفكرة عليها مع عناية بالشكل لا توغل كثيرا في التكلف . ويبدو في الوصية المطولة التي كتبها لابنه على اواخر حياته حكيما متأملا له نظرات في الاخلاق وآراء في العلاقات الشخصية والاجتماعية وفي مواجهة الحياة عامة . ويمكن اعتبار الوصية هذه نموذجا طيبا لنظرة رجل حكيم مجرب الى الناس والزمان والاشياء في ذلك العصر فهي تتجاوز اطار النصائح العادية الشائعة لتقدم مواقف شخصية لها طابعها الخاص . وهي اجمالا يغلب عليها طابع التفاؤل وتتسم بالحث على مقاومة صروف الدهر وعدم الاستسلام لها . وسنرى ان ابن سعيد سيتأثر بهذه الوصية ويستفيد منها في حياته الحافلة . وقد وصل موسى مع ابنه ايضا الى تونس حيث اقام هناك بين سنتي ٦٣٦ ـ ٦٣٩ يشتغل بالكتابة لولي العهد الحفصي ابي يحي ، وان شابت علاقته بهذا الامير السعايات والوشايات كذلك . ثم رحل ـ مع ابنه ايضا ـ الى مصر حيث توفي في الاسكندرية سنة ٦٤٠ هـ .

شخصيات اخرى من بني سعيد

ترجمنا فيما سبق لاهم رجالات بني سعيد في حقل السياسة والادب وللمساهمين منهم في " المغرب " بالذات وقد اتفق ان كان هؤلاء اجداد علي بن سعيد او اعمامه الاقربين . واكمالا للاستقصاء نشير هنا بايجاز الى شخصيات اخرى من الاسرة السعيدية لها صلة بابن سعيد من قريب او بعيد .

---

١) المغرب ١/ ٢٢١
٢) النفح ٣ / ١٢٨
٣) المغرب ١/ ٢١٤
٤) المصدر السابق ٢/ ١٧٠

١ ـ ابو بكر محمد بن سعيد[١]: تولى اعمال غرناطة ايام المرابطين . وله اهتمام بالادب والشعر .

٢ ـ حاتم بن سعيد[٢] : كان من اصحاب ابن مردنيش الثائر ببلنسيه والشرق الاندلس فى بداية عهد الموحدين ، وكان يقرض الشعر ،توفى سنة ٥٩٢ هـ.

٣ ـ مالك بن محمد بن عبد الملك[٣] : هوعم على بن سعيد . قام برحلات فى الاندلس والمغرب واستقر كاتبا عند يحيى بن غانيه الميورقى الذى احتل تونس وحارب الموحدين ايام محمد الناصر . وكان يتعاطى نظم الشعر ايضا .

٤ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك[٤] : هوعم آخر لعلى بن سعيد كان معروفا بالحدة وسرعة الغضب فترك الاهل وغادر الاندلس الى المغرب ومن هناك قام برحلة طويلة مر بها الغرب الاوسط (الجزائر) فتونس ، فالاسكندرية فالقاهرة . فالحجاز للحج ، فدمشق ،فحلب ، فالموصل ، فبغداد ، ففارس ، حتى وصل الى بخارى وكف هناك على الدرس . وقد بعث الى اهله بالاندلس رسالة يصف فيها احداث رحلته بايجاز ويذكر انطباعه عن كل بلد زاره ، وقد حفظ لنا ابن سعيد هذه الرسالة ،ويبدو انه اطلع عليها ضمن سجلات الاسرة وانها اثارت فى نفسه الشوق الى الترحال . ولعبد الرحمن شعر جميل فى التشكى من الغربة . وقد قتله التتار عند اكتساحهم لبخارى حوالى سنة ٦١٥ هـ.

٥ ـ ابوعبدالله محمد بن الحسين بن سعيد[٥] : من بنى سعيد الذين برزوا فى تونس فى ظل الامارة الحفصية ،وكان من قادة الجيوش ، عمل للامير ابى زكريا (ـ ٦٤٧) وابنه المستنصر (ـ ٦٧٥) وقد ساعد ابن سعيد ووالده على التقدم عند الامير ابى زكريا اثناء نزولهما فى تونس ،الا انه سرعان ما انقلب عليهما وسعى فى تاخيرهما . ولابن سعيد قصائد طويلة فى مدحه ومعاتبته واستعطافه .

---

١) ـ المغرب ٢/١٦٣
٢) ـ المصدر السابق ٢/١٦٨ ، الاحاطة ١/٣١٠
٣) ـ المغرب ٢/١٧١
٤) ـ المصدر السابق ٢/١٧٢ ، النفح ٣/١٣٢
٥) ـ المصدر السابق ٢/١٦٨ ، النفح ٣، ٤٤ ، ٨٥

وكان هذا القائد كسائر افراد الاسرة السعيدية ، يتعاطى فنون الادب نثرا وشعـــرا .

* *

من هذا العرض السريـــع لتاريخ الاســـرة السعيدية نجمل خصائصهـــا الهامـــة المتركزة فـى علـو النسب ووضوحـــه ، وارتفاع المكانـــة عبـــر العصـــور ، والمركز القيـــادى والمسحة الارستقراطية ، والاسهام الغنـــى فـــى الحركة الثقافيـــة شعرا وادبا وتصنيفا ، وروح الاقدام والمغامرة ...

وهـــى خصائـــص سيكون لها فـى نفسيـــة ابن سعيد وحياتـــه ومكانتـــه نصيـــب واضـــح .

الفصـــــل الاول

تاريـــــخ حيـــــاة ابن سعيـــــد

(٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ ـ ١٢٨٥ م)

=ـ=ـ=ـ=ـ=ـ=ـ=ـ=

١ ـ حياته فـــي الاندلـــس :

- مولده فـــي غرناطـــــه
- نشأته ودراستـــه فـــي اشبيليـــه
- تنقلـه مع والده فـــي ارجاء الاندلـــس

٢ ـ حياته فـــي الغربـــة :

- اقامتـه فـــي تونس
- رحلتـه الاولى الى المشـرق
- عودتـه الى تونس
- رحلتـه الثانية الى المشـرق
- عودته الاخيرة الى تونس ووفاته بهـا

تاريخ حيـــاة ابن سعيـــد

فـى حياة ابن سعيد دوران متميزان بارزان : دور اقامته فـى بلده ،ودور رحلاته وتغربـــه • ورغم ان الدور الثانى يغطـــى الدور الاول من حيـــث الامتداد الزمانى والاتساع المكانـى والنشاط العلمى فانه لا يفوقه مـــن حيـــث التأثيـــر العميق فـى تكوين ابن سعيد النفسى والعلمـــى • ولولا هذا الدور الاول وما امتاز بـــه من اعداد وتجارب لما تمكن ابن سعيد من مواجهـــة الدور الثانـى وتحدياتـــه ومصاعبـــه بقدر كبير من الاستعـــداد والقـــدرة •

وينقسم الدور الاول فـى حياة ابن سعيد فـى ثلاث فترات : فترة مولده وطفولته فـى غرناطـــة • وفترة صباه وشبابه ودراسته فـى اشبيلية ،ثم فترة تجوالـــه فـى ارجاء الاندلس مع والده لجمع المادة العلميـة لمؤلفاتهما وخاصة كتـــاب " المغرب " • ويلاحظ انه ليس ثمة فاصل تام الوضوح بين الفترة الثانية والثالثـــة فقد كان ابن سعيد يصحب والده فـى جولات قصيرة فـى المدن القريبـــة من اشبيليه اثناء فترة دراسته بها ، كما انه كان فى الفترة الثالثة ـ فتـــرة التجوال فـى الاندلس ـ يمر باشبيليه ويقيم بها عاما او بضعة شهور دارسا اومستعيدا ذكريات لهوه • غير ان التمييز يزداد وضوحا عندما يقرر الوالد والابن حوالى سنـــة ٦٣٢ هـ مغادرة الاندلس ، عندئذ يتركان اشبيلية نهائيا ويتجهان صوب جنـــوب شرقـى الاندلس حيث يمضيان مايقارب الاربع سنوات (٦٣٢ـ ٦٣٦) فـى زيارات لمدن تلك المنطقة كمرسية ومالقة •

اما الدور الثانى ، وهو دور المرحلة والاغتراب ،فينقسم فى خمس فترات : فترة اقامته مع والده فى تونس ،وفترة رحلته المشرقية الاولى التى زار خلالها مصر وبلاد الشام والعراق وبعض مدن فارس والديار الحجازية للحج ، ثم فترة عودته الى تونس ، ثم فترة رحلته المشرقية الثانية التى يبدو انها امتدت حتى اقاصى خراسان متجاوزة جدود الرحلة الاولى ،واخيرا فترة رجوعه الاخير الى تونس ووفاته بها .

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه :

هو على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (١) بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن يسار العنسى (٢) . يكنى بأبى الحسن وهى - كما هو معروف - كنية تطلق على كل من يتسمى عليا فى المشرق وهو من ضمن الالقاب التى كان يتيمن المشارقة باطلاقها مقرونة بلفظة " الدين " كشمس الدين وضياء الدين . ويظهر ان من يتسمى عليا (٣) ينال لقب " نورالدين " اذ لكل اسم لقب خاص من هذا النوع .

١ - حياته فى الاندلس

=/=/=/=/=/=/=

مولده بغرناطة :

عند الحديث عن اسرة بنى سعيد تبين ان قلعتهم كانت اقطاعية تابعة لمدينة غرناطة . فمدينة غرناطة - اذن - هى اقرب المدن الاندلسية اليهم ،وعندما اصبح محمد بن عبد الملك بن سعيد ،جد على ، واليا للموحدين تولى ولاية غرناطة قبل ان يرتقى فى سلم الولاية ويتولى اعمال العاصمة اشبيلية .

---

١) - المغرب ٢/١٧٢

٢) - المصدر السابق ٢/١٦١ ،يلاحظان بين على والجد الاكبر ياسر ستة عشر جدا خلال ستة قرون وهو على مايظهر تناسب محتمل بين العدد والزمن .

٣) - نبهنى الى ذلك استاذى الدكتور جبرائيل جبور

ويبدو ان رجالات بنى سعيد كانوا يتركون عائلاتهم واطفالهم فى مدينتهم الاولى عند ما يتولون اعمالا خارجها . وهذا ما قد يصدق على موسى ، والد ابن سعيد ، الذى نراه فى رفقة خلفاء الموحدين وامرائهم منذ سنة ٥٩١ حيث رافق الخليفة المنصور فى موقعة الارك . وايا كان الامر فان المصادر لاتسعفنا بذكر مكان موسى سنة ٦١٠ وهى السنة التى ولد فيها ابن سعيد (١) ، وان كان من غير المستبعد ان يكون مقيما فى غرناطة نفسها ، مسقط رأس ابنه ، فى تلك السنة . فمن استقراء تاريخ الاسرة يتبين ان محمد بن عبد الملك بن سعيد ، والد موسى ، كان متوليا اعمال غرناطة قبل حوالى عشرين سنة من مولد على (٢) ، وان اخاه ابا جعفر احمد بن عبد الملك خلفه فى منصبه حيث استوزره عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، وان ابنه موسى بقى مع عمه احمد قائما له ببعض اعمال الكتابة . فقد كان موسى متعلقا بعمه الشاعر ابى جعفر معجبا بموهبته الشعرية " مقدما له على سائر اقاربه " (٣) . ومن المرجح ان موسى بقى فى خدمة الموحدين بغرناطة بعد مقتل عمه على يد عثمان المذكور حتى مولد ابنه فى تلك السنة بها .

ولا يمكن الجزم الى متى ظل ابن سعيد فى غرناطة : هل قضى عددا كبيرا من سنوات طفولته بها ام ان والده اخذه معه الى اشبيلية وهو فى سنى صفولته الباكرة . واغلب الظن انه بدأ يحتك ببيئة اشبيلية ويعيش فيها وهو فى حوالى العاشرة من عمره . ففى سنة ٦٢١ نجده مع والده فى اشبيليه ، وكان والده عندئذ على اتصال بالخليفة الجديد عبد الواحد الذى بويع بالخلافة لتوه (٤) . ويلاحظ ان ابن سعيد لايتحدث عن اية ذكريات باكرة له فى غرناطة بينما يورد كثيرا من ذكريات صباه فى اشبيلية مما يوحى انه ترك غرناطة قبل ان يعى الاشياء والحوادث وعيا كاملا . اما بعض اشعاره التى يتشوق فيها الى جلسات لهوه فى غرناطة فسنرى انها تعود الى مرحلة شبابه عندما كان يتنقل بين المدن الاندلسية .

---

١) ـ المغرب : ٢/١٧٤ ، النفح : ٣/٤١
٢) ـ المغرب : ٢/١٦٢
٣) ـ المصدر السابق : ٢/١٦٤
٤) ـ النفح : ٣/١٢٤

نشأته ودراسته فى اشبيلية :

كان لابد لكل من اراد نيل قسط من الثقافة فى تلك الفترة من تاريخ الاندلس من ان يقصد اشبيلية مركز الثقافة الاعظم فى تلك الفترة من الوقت • وكان طبيعيا ان يشجع موسى بن سعيد ولده عليا على الدراسة لما عرف عن اسرة بنى سعيد من ميل الى العلوم والتأليف • ثم ان موسى اتجه الى الاقامة فى اشبيلية عندما كان ابنه بين العاشرة والرابعة عشرة ، لاشتغاله فى خدمة الخليفتين ابى محمد عبد المواحد والعادل (١) ، وهكذا شجعت الظروف العلمية والعملية انتقال ابن سعيد الى العاصمة وهو فى حوالى العاشرة •

وفى اشبيلية قضى ابن سعيد عهد صباه ، وفيها تلقى علومه على يد عدد من علماء الادب والنحو من امثال ابى على الشلوبينى النحوى ، والاعلم البطليوسى مقرئ من اشياخ الادب (٢) ، وابى يحيى بن هشام الكاتب ، وابى الحسن الدباج مقرئ الادب وامام جامع العبس ، كما التقى فيها بكثيرين غيرهم من شعراء وعلماء ورجال دولة مكونا مع الجميع صداقات وطيدة ومثمرة على الصعيد العلمى والشخصى • ولعل ابعد هذه الصداقات اثرا فى ميله الشعرى وتكوينه النفسى صداقته مع الشاعر الاشبيلى ابن سهل الاسرائيلى التى ذكرها فى عدة مواضع من كتابه " القدح المعلى " بقوله : " قرأت معه على الاستاذ ابى الحسن الدباج زمانا ، وبادرنا لانواع اللذات ميدانا فميدانا ، وكان مهوى هوانا ، ومجمع لذاتنا ومنانا ، بمرج الفضة والعروس ، والسلطانية وشنتبوس لانكاد نخلو من التفرج فى تلك الادواح والقصور ... دعوته يوما الى مرج الفضة .... وخرجت مرة معه الى السلطانية ... وتنزهنا مدة بالعروس ... ثم ركبنا نهر اشبيلية ... ثم صعدنا الى فم الخليج ... وحضرت معه يوما مجلس الاستاذ ابى على الشلوبينى (٣)

---

١) ـ النفح ١٢٦/٣

٢) ـ انظر الحديث عن اساتذته بالفصل الخاص بموءلفاته وعلمه •

٣) ـ القدح : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ •

وكما تعود ابن سعيد منذ صغره مخالطة رجال العلم والادب فى ظل والده تعود معه ايضا منذ تلك السن المبكرة الرحلات بحيث لو وصفت حياته بانها رحلة متواصلة لماكان ذلك تجاوزا للحقيقة • فقد سنحت له الفرصة وهو مازال فى السنة الرابعة عشرة من عمره للقيام برحلة الى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدى العادل الذى كان والده منتظما فى سلك خدمته • ففى سنة ٦٢٤ اضطر العادل للذهاب الى مراكش بسبب امتناع كثير من امراء المدن الاندلسية عن مبايعته من ناحية وبسبب اضطراب الحالة فى مراكش نفسها من ناحية اخرى تاركا الامر فى الاندلس لاخيه ابى العلاء المأمون (١) • وفى هذا الجواز الى بر العدوة (المغرب الاقصى) صحبه رهط من علماء الاندلس وشعرائها المقربين اليه من ضمنهم موسى (٢) والد ابن سعيد والثرى المتأدب ابن حسان الاشبيلى (٣) من اعيان اشبيلية ، وابوعمر بن حكم القبطلى (٤) احد وجوه جزيرة قبطل من اشبيلية (٥) وابو المعالى احمد القيجاطى من رجالات جيان وقد اصطحب موسى ولده عليا فى هذه الرحلة الملكية التى اتاحت له الاجتماع بعدد كبير من الشخصيات الاندلسية والمغربية ، ومشاهدة حاضرة الدولة الموحدية ، والتعرف الى بيئة المغرب التى تختلف من عدة اوجه عن بيئة الاندلس • ولكن يبدو ان ظروف تلك الرحلة لم تكن مساعفة ، فقد قتل العادل فى تلك السنة (٦) ولا نعلم كيف كان موقف والد ابن سعيد من تلك الحادثة ، الا انه على اى حال كتب رسالة تهنئة وهو بمراكش الى ابى العلاء ادريس المأمون الذى اخذ البيعة لنفسه فى اشبيلية • وكان المأمون هذا من خلفاء الموحدين المشهورين بتشجيع العلم وكان لبنى سعيد اتصال به قبل توليه الخلافة (٧) •

---

١) ـ روض القرطاس ١٦٣ ، كتاب العبر ٦/٢٥١
٢) ـ القدح ٢١١
٣) ـ المصدر السابق ١٤٩
٤) ـ المصدر السابق ٢٠٠
٥) ـ المصدر السابق ٢١١
٦) ـ روض القرطاس ١٦٣ ، كتاب العبر ٦/٢٥١
٧) ـ النفح ٣/١٢٧

ويبدو ان موسى وابنه بقيا فى المغرب مدة من الزمن تقارب السنتين وذلك لجمع المادة التاريخية والشعرية الخاصة بمراكش لكتاب " المغرب " ففى سنة ٦٢٧ نجدهما مارين بسبتة ، المواجهة لبر الاندلس من الطرف المغربى ، بعد ان التقيا بكاتبها ابى القاسم عبد الرحمن العثمانى (١) والارجح انهما كانا قادمين من مراكش في تلك السنة.

وفى هذا الوقت تقلص نفوذ الموحدين فى الاندلس واخذ نجم ابن هود الثائر عليهم ، يعلو بعض الوقت ، ويظهر ان والد ابن سعيد رأى من حسن السياسة الاتصال بهذا الحاكم الاندلسى الجديد للاستفادة منه. ففى سنة ٦٢٩ نرى موسى مع ابنه على فى غرناطة يحاول الالتقاء بابى عبدالله محمد بن عمار البرجى كاتب عسكر الثائر ابن هود (٢). وفى السنة التالية ، سنة ٦٣٠ ، يعود ابن سعيد ووالده معه - ادراجه الى ملاعب صباه فى اشبيليه ، وقد بلغ سن العشرين حيث يعاود الاتصال بابن سهل ، ويلتقى بالشاعر الاديب ابى الوليد بن طيفور المعروف بالمارتلى (٣) ، وبالافلح اللخمى ، وزير ابن هود ، الذى كان عهده به مع والده " فى اتصال مزاورة ، واطراد مجالسة ومحاضره " واقتباس من ادبه واستفادة . وقد زين له ابن سهل الاسرائيلى يوما ان يشاركه فى هجاء هذا الوزير الذى بدأت تظهر عليه بعض امارات الغطرسة ، غير انه عاد الى مدحه واسترضائه بتأنيب شديد من والده موسى (٤).

وهنا نجحت جهود والد ابن سعيد فى محاولته الاتصال بابن هود . فقد ولاه امرة الجزيرة الخضراء - من اعمال مملكة اشبيلية - بحسن وساطة الوزير الافلح اللخمى (٥). فكانت تلك مناسبة طيبة لابن سعيد يعود فيها الى درسه ولهوه معا . ومما يدل على نضجه وحسن تحمله للمسؤولية فى تلك السن المبكرة ، وهى سن الحادية والعشرين (٦٣١ هـ) انه ناب عن ابيه في امرة الجزيرة الخضراء فترة من الوقت .

---

١) - القدح ١٩٦
٢) - المصدر السابق ٢١٨
٣) - المصدر السابق ١٨٣
٤) - المصدر السابق ١٤٠ - ١٤٢
٥) - المصدر السابق ١٤٠ - ١٤٢

ولكن ذلك لم يمنعه من اخذ حظه من اللهو فى مرابع الجزيرة الخضراء متعاطيا الشعر مصاحبا للعلماء (١) . الا ان هذا العيش الهنيء لم يطل بسبب الوشايات التى اوغرت صدر الوزير الافلح فسعى فى تأخير والد ابن سعيد عن الامارة سنة ٦٣٢ (٢)

وفى هذه الفترة كانت اشبيلية هدفا لتنافس ثلاثة ثوار : الباجى وابن هود وابن الاحمر . ويبدو ان ابن سعيد بقى مع والده هذه الفترة فى منطقة اشبيلية واتصل باميرها الباجى ومدحه بقصيدة هنأه فيها بانهزام ابن هود (٣) ، الا ان الباجى لم تطل مدة حكمه فما لبث ابن الاحمر ان فرض سيطرته على اشبيلية " وقتل ملكها المعتضد الباجى ، وكنت حينئذ هنالك وانشدته قصيدة اولها :

لمثلك تنقاد الجيوش الجافل وتذخر ابناء القنا والقنابل (٤)

ولانعلم مدى علاقته بابن الاحمر ، الا انه علاقته به لم تطل .

ونصل هنا الى الفترة الخطيرة الحرجة من حياة الاندلس ، فقد اخذت قواعدها الكبرى تسقط تباعا فى يد الاسبان وعلى رأسها مدينة قرطبة سنة ٦٣٣ هـ . ويبدو ان موسى وولده ادركا فى هذه الاثناء ان الاندلس لم تعد بالمكان الصالح للاقامة . ولم يعد فى الامكان التنبؤ بثبات اية منطقة فى وجه الزحف الاسبانى الآتى من الشمال والشرق والغرب . واعتقد انهما قبل ان يغادرا الاندلس نهائيا قررا المرور بالمدن الاندلسية الواقعة فى الطريق بين اشبيلية والساحل الجنوبى الشرقى من الاندلس ، المواجه لتونس ، لجمع بعض المادة العلمية عنها .

وقبل انهاء الحديث عن هذه الفترة الاشبيلية من حياة ابن سعيد ، اذكر عددا من الشخصيات العلمية التى قابلها ابن سعيد فى اشبيلية ، وان لم يكن بالامكان تحديد موعد تلك اللقاءات على وجه الدقة — مع ان الراجح ان اكثرها تم بين سنتى ٦٣٠-٦٣٢ :

---

١) — القدح ٢ — ٣
٢) — المصدر السابق ١٤٢
٣) — النفح ٣٦/٣
٤) — المغرب ١٠٩/٢

١ ـ ابو محمد عبد الحق الزهرى القرطبي ٠٠ من حفاظ الاندلس واد بائها ومؤرخيها جالسته كثيرا فى اشبيلية ٠٠ وكان والدى يكرمه لحفظه " (١)

٢ ـ الاديب الهيثم ابو غالب الهيثم : " حافظ اشبيلية لم الق بها احفظ منه " (٢)

٣ ـ الطيب الوشاح ابو الحجاج يوسف بن عتبة : " اجتمعت به فى اشبيلية " (٣)

٤ ـ ابو الحسن على بن جحدر : " كان زجالا مطبوعا ، صحب والدى مدة ، ولقيته انا باشبيلية " (٤)

٥ ـ ابو بكر الصابونى : " اجتمعت به فى اشبيلية والناس يجعلونه شاعرها المشار اليه ٠٠ " (٥)

٦ ـ ابو بكر محمد الاندى : " قرأ معى على الشلوبينى امام نحاة المغرب ٠ تركته وقد رجع من اشبيليه الى بلده " (٦)

٧ ـ ابو العباس احمد بن بلال : " لقيته بالجزيرة ـ من توابع اشبيلية ـ فلقيت خير من يلقى مع تصرف فى الادب ومعرفة بالشعر وقول له ، وتركته هناك ٠٠ " (٧)

هذا بالاضافة الى ابن سهل ومن ذكرت من اساتذته ومن سيذكره اثناء الحديث من قبل ٠

ابن سعيد فى جولاته الاخيرة بالاندلس :

اشرت الى ان ابن سعيد ووالده قررا مغادرة الاندلس بعد تدهور الحالة حوالى سنة ٦٣٣ ٠ ويبدو انهما غادرا اشبيليه نهائياً فى اوائل تلك السنة متجهين نحو الجنوب الشرقى فى المنطقة الواقعة بين مرسية ومالقة ، لجمع مافاتهما من مادة لكتاب " المغرب " والظاهر ان النية كانت متجهة للمرور بتونس ثم الرحيل الى المشرق واداء فريضة الحج ٠ وقد حاولا الاستفادة من مرورهما بكل مدينة واقعة فى طريقهما :

---

١) ـ المغرب : ١/١٢٠ وانظر ترجمته ايضا فى القدح ١٣٥ ، وفى ابن الزبير صلة الصلة ص ١٠
٢) ـ المغرب ١/٢٥٨ = = = = ١٥٨ وفى الرايات ١٨
٣) ـ المغرب ١/٢٥٨ = = = = ١٦١ وفى الرايات ٢١
٤) ـ المغرب ١/٢٦٢ = = = = ١٧٢
٥) ـ المغرب ٢٦٣ = = = = ٦٩ وفى الرايات ٢١ وفى ابن الابار التحفة رقم ١٠٠ وكذلك ابن شاكر ، فوات الوفيات ٢/١٦٨
٦) ـ المغرب ١/٣٣٨ ، انظر ترجمته فى القدح ايضا ١٦٨
٧) ـ المغرب ١/٣٢٦ ، = = = = ٨٦

ففى قرمونة التقى ابن سعيد بشاعرها ابن البلاج القرمونى (١) وفى مالقة اقاما مدة (٢) حيث التقى ابن سعيد بقاضيها ابى عبد الله ابن عسكر الذى كان " متجرا فى العلوم " (٣) وبشاعرها ابى النعيم رضوان بن خالد الذى كان " من شعراء العصر المشهورين " (٤) وبزجالها ابى على الحسن الدباغ " وهوامام فى الهجو على طريقة الزجل .. (٥) ويصف ابن سعيد فترة وجوده فى مدينة مالقة بانها الوقت الذى كانت فيه " نية الرحلة المشرقية والزورة النبوية قد ثارت حينئذ فى خاطرى وملكت باطنى وظاهرى " . وقد اودعه القاضى ابن عسكر السابق الذكر ابياتا لانشادها فى الروضة النبوية (٦) مما يدل على ان ابن سعيد كان على اهبة الرحيل بالفعل . وآخرما نصادف ابن سعيد فى الاندلس عام ٦٣٦ عندما كان مارا بمرسية مع ابيه حيث اجتمعا بواليها العلامة عزيزين خطاب وبالوزير الاندلسى الغرناطى المتغرب سهل بن مالك. وارجّح ان يكون مرورهما بالمدينة فى شهر محرم وهو الوقت الذى بويع فيه الامير ابن خطاب ؛ وقبل شهر رمضان من ذلك العام وصل ابن سعيد برفقة ابيه الى تونس (٧) .

٢ - حياته فى الغربة

اقامته فى تونس :

كان من الطبيعى ان يختار ابن سعيد ووالده تونس ملجأ اول لهما بعد مغادرتهما الاندلس. فقد كانت تونس عندئذ فى ظل الامارة الحفصية التى استطاعت ان تظهر نفسها بمظهر الامارة القوية المستقرة ، المشجعة للعلم وقد وردت الاشارة الى ان اغلب رجال العلم الاندلسيين اتجهوا نحو تونس بعد النكبة ، فكان اجتماع ذلك العدد الضخم من رجال العلم بها سببا هاما لجذب ابن سعيد ووالده نحوها . اضف الى ذلك ان احد بنى سعيد وهو ابو عبد الله بن الحسين ، كان قائدا بارزا فى الدولة الناشئة .

---

١) - المغرب ١/ ٣٠٠
٢) - المصدر السابق ١/ ٤٢٣
٣) - المصدر السابق ١/ ٤٣١ ، القدح ١٣٠
٤) - المصدر السابق ١/ ٤٣٧
٥) - المصدر السابق ١/ ٤٣٨
٦) - القدح ١٣٠
٧) - المصدر السابق ١٤٦

وتدل فترة اقامتهما في تونس على انهما اجلا حجهما ورحلتهما المشرقية . فقد بقيا فيها حوالى عامين ودخلا في خدمة اميرها الحفصي ابي زكريا (١٢٢٧-٤٧) (١) وهو اول امير حفصي يستقل بتونس عن الدولة الموحدية ويكوّن فيها دولة مستقلة ولا يمكن تحديد سبب بقائهما في تونس على وجه الدقة طوال هذه المدة : اهو من اجل الكسب والاعداد المالي للرحلة ؟ ام هو من اجل جمع مواد المغرب ؟ ام للاثنين معا ؟ والذي يزيد الامر غموضا انهما غادرا تونس مضطرين بعد ان ادت الوشايات الى تأخيرهما عن اعمالهما وبعد ان خشيا ان تؤدي تلك الوشايات الى ماهو ادهى من التأخير (٢) .

وفي خلال هذه الفترة تولى ابن سعيد قراءة المظالم لابي زكريا الحفصي بفضل وساطة ابن عمه ابي عبد الله بن الحسين بن سعيد ، قائد الامير . ولكن ابن عمه هذا مالبث ان انقلب عليه ، واخذ يسعى ضده حتى نجح في تأخيره عن قراءة المظالم . وقد نظم ابن سعيد فيه كثيرا من القصائد يمدحه ويعاتبه ويستعطفه (٣) رجاء أن يميل اليه ويعود الى مساعدته ، الا انه - على مايظهر - لم ينجح في اعادته الى سابق سيرته .

ويبدو ان السبب في انقلاب ابي عبد الله بن الحسين ضد ابن عمه ، ابن سعيد ، هو تقرب الاخير من اخذ منافسيه - وهو الوزير ابن جامع - الذي اخذ يتوسط لابن سعيد عند الامير ابي زكريا ويرفع له امداحه . ورغم ان ابن سعيد يقول ان الصحبة كانت وثيقة بين ابن عمه والوزير ابن جامع ، فان النص التالي يوحي وكأن السبب في انقلاب ابن عمه ضده راجع الى تقربه من الوزير ابن جامع : " وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور ان ملك افريقية استوزر ابا العلاء ادريس بن علي بن جامع ، فاشتمل عليّ ، واولاني من البر ماقيدني وامال قلبي اليه ، مع تأكيد

---

١) - النفح ٣/٤٤ - ٤٥

٢) - المصدر السابق ٣/٤٤

٣) - المصدر السابق ٣/٤١ - ٤٤

مابينه وبين ابن عمى من الصحبة ،فلم يزل ينهض بى ،ويرفع امداحي للملك ويوصل اليه رسائلى منبها على ذلك ،مرشحا ، الى ان قبض الملك على كاتب عسكره ،وكان يقرأ بين يديه المظالم ،فاحتيج الى من يخلفه فى ذلك فنبه الوزير علي ـ مع انى كنت من كتاب الملك ـ فقلدنى قراءة المظالم المذكورة ، وسفر لى الوزير عنده فى دار الكاتب المؤخر ،فأنعم بها ، فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول ،فقالوا وزوروا من الاقاويل المختلفة ماامال بها حيث مالوا ،وظهر منه مخايل التغيير ،فجعلت اداريه واستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير ، الى ان سعى فى تأخير والدى .. ثم سعى فى تأخيرى عن الكتابة وقراءة المظالم .. "(١)

وبعد هذا التأخير بقى ابن سعيد فى ظل الوزير ابن جامع يكتب له ويتولى جميع اموره ،واولاه الوزير من العناية ماعوض عليه جفاء ابن عمه (٢) . غير ان سعي ابن عمه ضده لم يتوقف مما اثار هواجس ابن سعيد وخشى ان ينجح فى مساعيه ولايتمكن الوزير ابن جامع من حمايته . وهنا رأى انه من الافضل ترك تونس تجنبا لما قد يجره عداء ابن عمه ضده من ويلات . واخذ يلح على ابن جامع فى ان يسمح له بذلك وان يرفع رغبته للملك فى الرحيل الى المشرق برسم الحج . ولكن ابن جامع لامه على تخوفه وقلة ثقته به والح عليه بالبقاء ولم تؤد امداحه ومعاتباته واستعطافه الى اقناع الوزير بتركه يرحل (٣) .

وظل ابن سعيد مع ابن جامع فترة قصيرة فى توجس وحذر . وما لبث ان توفى ابن جامع (٤) . فلم يبق لديه عندئذ نصير فى تونس وكان طبيعيا ان يفكر هو ووالده فى الرحيل عنها .

وفى هذه الاقامة التونسية الاولى جمع ابن سعيد كثيرا من المواد العلمية التى استفاد منها فى تصنيف كتابه الهام " القدح المعلى " وبلغ نشاطه العلمي ذروته خلال هذه الفترة باجتماعه الى ابن الابار (٥) الذى يعتبر من كبار مصنفى القرن السابع الهجرى فى المغرب .

---

١) ـ النفح ٣/٤٤ ـ ٤٥

٢) ـ المصدر السابق ٤٥

٣) ـ المصدر السابق ٣/٤٥ ـ ٤٧

٤) ـ المصدر السابق ٣/٤٧

٥) ـ هو محمد بن عبد الله القضاعى بن الابار . انظر ترجمته فى المغرب ٢/٣٠٩ ، القدح ١٩١ ، عنوان الدراية ١٨٣ ، فوات الوفيات ٢/٢٢٦ ، النفح ٤/٢٨٢ .

وتعود اهمية اجتماعه بابن الابار فى تونس الى انهما لم يلتقيا فى الاندلس قط ، فقد كان ابن سعيد فى الغرب باشبيليه وكان ابن الابار فى الشرق ببلنسيه ولاتوجد اشارة الى ان ابن سعيد وصل فى جولاته الاندلسية الاخيرة الى بلنسية فقد بدأ جولاته تلك بعد سنة ٦٣١ وكانت بلنسيه عندئذ تتعرض للغزو الارجوانى كما ان ابن سعيد نفسه يذكر بانه لم يجتمع به " الا فى هذه الحضرة العلية " (١) ، ويقصد مدينة تونس .

ويتحدث ابن سعيد عن اجتماعاته بزميله ابن الابار فيقول : " ولى معه مجالسات آنق من خلق الشباب ، وابهج من الروض عند نزول السحاب " ، ويذكر انه فارقه وقد " بقيت من فوائده فى النفس بقية " (٢) ، ونرى ان ابن سعيد يعتمد على ابن الابار فى بعض الروايات الهامة فى المغرب (٣) ، ويوردها باعتبارها روايات شفوية لانقولا من كتب مما يدل على انه استقاها منه مباشرة اثناء تلك الجلسات التى نرى انها كانت تتحول احيانا الى مساجلات شعرية يتبارى فيها الاثنان فى وصف منظر معين (٤) .

ومن اخبار ابن سعيد ذات الطابع العلمى فى هذه الفترة ان الامير ابا زكريا الحفصى شك فى ديانة اثنين من علماء الاندلس المقيمين بتونس وهما ابن الصفار القرطبى وعبد الواحد الواعظ الاعمى الاشبيلى اذ شاع عنهما الخبر بفساد النيات " و " ذم المحسن والمسىء من الاحياء والاموات "

..../..

---

١) ـ القدح ١٩١
٢) ـ المصدر السابق ١٩١
٣) ـ المغرب ٢/٣١٦ ، ٣٦٣
٤) ـ النفح ٣/٥٥

و " الكفـــر والالحاد " ، وحدث ان قتل مجهول الواعظ الاعمى بسبب تلك الاشاعات فاوكلـــت الى ابن سعيد مهمة التحقيق فـى " المسودات والبطائق " التـــى وجـدت فى بيتـــه . ويشيـــر ابن سعيد انه تصفحهـــا ونقل منهـــا بعـــض الاشعـــار والمجاوبات ـ وان كانت ـ على حد تعبيره ـ ما يقضي بالبعـــد " من المخلوق والخالـــق " (١)

ومن الصداقات العلميـة والشخصية المثمرة التى كونها ابن سعيد خلال هـــذه الفتـــرة صداقتـــه مع الكاتـب الاديب ابى العبـاس احمد بن ابراهيـــم الغسانـــى (٢) الذى كان يتولـــى الكتابـــة للامير ابى زكريا الحفصـــى والذى وصفـــه ابن سعيد نفســـه بانه " لسان الدولة العليـــة وكاتـــب سرهـــا ، والمعول عليـــه فى نظمها ونثرها ...."

وقد كانت لهما جلسات شعرية عديدة فى تونس (٣) كما ان المراسلات بينهمـــا ظلـــت مستمرة ـ شعرا ونثـــرا ـ اثناء غيـــاب ابن سعيـد فى المشـــرق (٤) ، وتدل تلك المراسلات على قوة العلاقـــة بين الاديبين .

* * *

وخرج ابن سعيـــد ووالـــده مـــن تونس سنة ٦٣٩ فى جو ترقب وحـــذر قاصديـــن مصـــر ، وذلك بعد وفـــاة الوزيـــر ابن جامع ، كما تقـــدم .

---

١) ـ القدح ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ، ٢١٠

٢) ـ انظر ترجمته فى القدح ١٢ ـ ١٩

٣) ـ المقتطف ، ورقة ٥٤ ، ٥٦ ؛ وكذلك النفح ٣/ ٥٧ ـ ٥٨

٤) ـ القدح ٥ ، ١٩٠

رحلته الاولـــى :

وصل ابن سعيد ووالده الى الاسكندرية سنة ٦٣٩ (١) وكان سلطان مصر عندئذ الصالح الايوبى (٦٣٧ ـ ٦٤٧) . وفى الاسكندرية ترك ابن سعيد والده الذى كان على مايبدو قد انهك من طول السفر ، ورحل الى القاهرة ، مركز الحركة الثقافية الناشطة عندئذ ودار السلطنة ، الا انه اضطر الى العودة الى الاسكندرية بسبب اشتداد المرض على ابيه فمرّضه حتى توفى فى شوال سنة ٦٤٠ (٢) وعاد الابن ادراجه الى القاهرة حيث كان له مطارحات ولقاءات مع كثير من شعرائها البارزيـــن عندئـــذ .

وفى القاهرة اجل ابن سعيد حجه مرة ثانية ، وبقي هناك حتى سنـــة ٦٤٣ حيث جاء ابن العديم الى مصر مندوبا عن ملك حلب الايوبى الناصر .

وكانت فترة السنوات الثلاث التى امضاها ابن سعيد فى مصر فترة حاسمة فى حياته فقد فقد والده ، موجهه وناصحه ، فى ديار الغربة وهو مازال ابن تسع وعشرين سنة . . ثم انه واجه ولاول مرة فى حياته مجتمعا مشرقيا تختلف بعض تقاليده وبعض طبائـــع اهلـــه عن تقاليـــد المغاربـة وطبائعهم . وهى ناحية تنبه لها ابن سعيـــد وسجلها فيمابعد (٣) .

ويبدو انه استطاع ان يدخل مجتمع مصر الادبى وان يكوّن صداقات وثيقة مع شعرائها واعيانها وعلمائها بالرغم من شعوره بالغربة الشديدة وخيبة امله التى انعكست فى شعره عندئذ (٤) فقد التقى هناك بابى الحسين الجزار وابن ابى الاصبع وسيف الديـــن بن سابق وايدمر التركى والبهاء زهير وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وكانت لـــه معهم جلسات زالت عنها الكلفة ومساجلات فى الغزل والوصف (٥) .

---

١) ـ النفح ٣/٩٣
٢) ـ المغرب ٢/١٧٢
٣) ـ النفح ٣/١٠٦
٤) ـ المصدر السابق ٣/٤٨
٥) ـ المصدر السابق ٣/٣٨ ـ ٣٩

وخلال هذه الاقامة القاهرية تمكن ابن سعيد من اعداد مادة الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب كما ان فترة اقامته هذه حفلت بشتى انواع الانفعالات مما اكسب شعره شيئا من حرارة الشعور الصادق : فهو يتذكر اشبيليه الجميلة التي لاتشبهها مدينة هنا ويتشوق ، وهو يتعجب من طباع الناس ، وهو يتألم من نفور الناس منه ، وهو يأسى لقيام الحواجز بينه وبين اداء فريضة الحج (١) .

وعندما جاء ابن العديم الحلبي (٢) الى مصر ، استطاع ابن سعيد ـ كعادته ـ ان يكون معه صداقة ادبية قوية . ومما لاشك فيه ان ابن العديم ذكر له اخبار الملك الناصر ومدى حبه للعلم وتشجيعه للعلماء ورغبته في صحبته الى حلب . فوجد ابن سعيد في ذلك ماشجعه على القيام برحلته الجديدة هذه حيث حل ضيفا في بلاط الملك الناصر سلطان حلب (٦٣٤ ـ ٦٥٩) ويبدو انه في طريقه من القاهرة الى حلب مرّ بمدينة بيت المقدس حيث التقى ببعض بلدييه من الاندلسيين الذين كانوا في رحلة حجهم (٣) كما مر بمدينة الخليل حيث اجتمع الى احد نقباء الطالبيين (٤) .

وما لبث ابن سعيد ان تعرف الى الناصر واصبح من مجالسيه الذين يتحدث اليهم في خلواته العلمية والشعرية ويداعبهم ويتبادل معهم النوادر (٥) .. بل ان الناصر اولى موضوع تصنيفه " للمغرب " و " المشرق " اهتماما خاصا واشار عليه بالاضافة الى ذلك بعمل مؤلف موجز شامل هو " المقتطف من ازاهر الطرف " وفتح امامه خزائنه العلمية الخاصة ووعده بمساعدته في الاطلاع على خزائن الموصل وبغداد (٦) و " تبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالارزاق مالايوصف " (٧) .

وقد ارتاح ابن سعيد الى سلطان حلب ومدحه بقصائد كان يعتبرها من اجود شعره منها القصيدة التي يقول فيها :

مليك ترى في وجهه آية الرضا وتقرأ من امداحه سورة الحمد (٨)

---

١) ـ النفح ٣/٧٨ـ٨١

٢) ـ هوكمال الدين عمر بن ابي جرادة المشهور بابن العديم اديب فقيه قاض محدث (٥٨٨ـ٦٦٠هـ) راجع ترجمته في معجم الادباء لياقوت ج ١٦ ص ٥ ـ ٥٧

٣) ـ القدح ٢١٣ ، المغرب ١/١٠٩ (٤) ـ رحلة التجاني ٣٠٨ ـ ٣٠٩ (٥) ـ النفح ٣/٣٩ـ٤٠

٦) ـ المصدر السابق ٣/٣٩ـ٤٠ (٧) ـ المصدر السابق ٣/٤٠ (٨) ـ المغرب ٢/١٧٤

والقصيدة التى مطلعها :

جدلى بما القى الخيال من الكرى لابد للضيف الملم من القرى

والتى يقول فيها :

من معشر خبروا الزمان رياسة وسياسة حلوا الذرى حمر الذرا

وفى حلب تفاعل ابن سعيد مع الجو الثقافى الذى كانت تحركه شخصيات علمية وشعرية كابن العديم والشهاب التلعفرى وهون الدين العجمى والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلى والشرف بن سليمان الاربلى وآخرين من بنى الصاحب من ابناء كمال الدين بن العديم (١) .

ومن حلب انتقل الى دمشق ، وزيارة دمشق كانت حلما من احلامه منذ ان كان يلتقى بالرحالين الاندلسيين العائدين من المشرق فيصفون له جمال المدينة وروعتها (٢) . وهناك التقى بسلطانها توران شاه المعظم و " حضر مجلس خلوته " (٣) ، والتقى بمن فيها من اهل الادب والعلم ونظم فى منتزهاتها وملاعبها قصائد جميلة . ويجب ان تكون زيارته لدمشق بين سنتى ٦٤٧ ـ ٦٤٨ لان توران شاه ، الذى أرثاه ابن سعيد ، قتل فى تلك السنة الاخيرة .

ويظهر ان ابن سعيد انتهز فرصة انتقاله من حلب الى دمشق فزار فى طريقه كلا من حمص وحماه بحثا عن الخزائن العلمية ومن اجل خلق صداقات جديدة ورؤية اجواء جديدة فهو يذكر انه التقى بالملك الصالح نورالدين صاحب حمص الذى اقترح عليه ان يكتب له بعض الابيات على تفاحة عنبر اراد الصالح اهداءها لابن عمه الملك الصالح نجم الدين ايوب ملك الديار المصرية (٤) . وهذا يؤكد ان رحلته الى دمشق بدأت فى سنة ٦٤٧ اذ ان الصالح نجم الدين ايوب كان قد توفى فى تلك السنة .

---

١) ـ النفح ٣/٤٠

٢) ـ القدح ١٨١

٣) ـ النفح ٣/٤٠

٤) ـ المصدر السابق ٣/٥٥

وفى حماه كانت له على العاصى جلسات سحر اوحت اليه بهذه الابيات اللطيفة :

حمى الله من شطى حماة مناظـرا وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
يلومون ان اعصى التصون والنهى بها واطيع الكأس واللهو والوصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا احاكيه عصيانا واشربها صرفـا (١)

ومن دمشق اتجه ابن سعيد الى العراق. وكان ذلك " فى عقب سنة ثمان واربعيـن وستمائة " (٢) .

ولاندرى لماذا لم يطل المقام بابن سعيد فى المدينة التى احب . فهو لايكاد ينهى فيها سنة واحدة ... ربما كان ذلك بسبب شعوره بجو الفتنة القريب الذى اودى بحياة توران شاه فى تلك السنة ذاتها .

ومن دمشق توجه الى الموصل مارا بتلعفر وسنجار من نواحى الجزيرة مسجلا لبعض الفوائد الاخبارية والادبية (٣) . وفى الموصل بقى مدة قصيرة والتقى بعدد من شخصياتها الادبية وسجل ما اراد من اشعار واخبار . وفى طريقه الى بغداد مر بالحلة (٤) حيث جمع مادة ترجمته لشاعرها صفى الدين الحلى .

وفى ذلك الوقت كانت بغداد تشهد آخر خليفة عباسى هو الخليفة المستعصم بالله الذى سيقتله هولاكو سنة ٦٥٦ .

ويحدثنا ابن رافع السلامى احد الذين اقاموا ببغداد وارخوا لعلمائها (٧٢٤) ان ابن سعيد " دخل بغداد هو والناصر داود الى الخليفة ابى احمد المستعصم (٥) والناصر داود هو احد سلاطين الايوبيين بالشام . ضاع ملكه من يده فالتجأ الى الناصر صاحب حلب سنة ٦٤٧ ، ثم ارسل ثروته امانة لدى الخليفة المستعصم وحاول دخول بغداد عندما ضاقت به ارض الشام (٦) . وكان الناصر داود هذا ميالا الى الادب والشعر (٧) فلاغرابة

---

١) ـ النفح ٣/٩٢
٢) ـ المصدر السابق ٣/٤٠
٣) ـ الغصون ٥٩
٤) ـ المصدر السابق ٧
٥) ـ ابن رافع تاريخ علماء بغداد، ص ١٤٥
٦) ـ انظر مادة " الناصر داود " فى الموسوعة الاسلامية .
٧) ـ النفح ٣/١٦٤

فى ان يصاحب ابن سعيد صديق الايوبيين ومادحهم اثناء وجودهما فى بغداد . غير انه من المستبعد ان يكون الناصر قد رافق ابن سعيد طوال رحلته من الشام الى بغداد عبر الموصل اذ لايمكن ان يتفق رحالة متمهل يبحث عن الاخبار والمصادر مع لاجىء مطارد يجد فى البحث عن مأوى .

ولانعلم الى اى مدى توطدت العلاقة بين ابن سعيد والمستعصم ، وايا كان الامر فان ظروف المستعصم السياسية لم تكن تسمح له عندئذ بالتفرغ لرحالة مغربى . الا ان ابن سعيد يخبرنا انه وطد علاقته بصاحب اعمال الخليفة المستعصم فخر الدين بن قاضى القضاة الدامغانى (١) . كما تعرف الى زعيم آخر من زعماء دولة بغداد يقال له محيى الدين فخرج معه الى النزهة وطارحه الشعر (٢) .

ومن رجال الشعر الذين اجتمع بهم فى بغداد النجم بن شجير البغدادى الذى انشده من شعره كثيرا ودعاه الى زيارة قطربل على الشاطىء الغربى من دجلة حيث اقيمت جلسة خمرية ادبية سجل ابن سعيد بعض وقائعها (٣) .

ومن بغداد انحدر ابن سعيد مع فخر الدين الدامغانى " الى البصرة فى دجلة ، ورحلتى معه تحتمل سفرا ، زيدتها فى هذا المكان انا لما وصلنا الى البصرة حللنا بين نهر الابلة ونهر معقل وضرب الصاحب (الدامغانى) هناك خيمة وفيها ماء يرتفع ويدور كالأهلة برسم الجلوس للناس . وجاءه الوافدون من المسلمين والنصارى والمجوس والصابيه فسنح لى القول فانشدته .. " واورد بضعة ابيات (٤) .

ومن المدن الفارسية التى مر بها ابن سعيد فى رحلته الاولى هذه (٥) مدينة ارجان (٦) . وبعد ذلك لانلتقى بابن سعيد الا فى الديار الحجازية حاجا . وهكذا تمكن من الوصول الى مكة بعد حوالى خمسة عشر عاما من مغادرته الاندلس قضاها فى التعرف على ابرز رجالات المشرق فى دنيا العلم والادب والسياسة وفى زيارة اهم مراكزه الثقافية وفى الاطلاع على عدد كبير من المصادر والكتب المشرقية .

---

١) ـ المقتطف ورقة ٥٥
٢) ـ القدح ٩
٣) ـ المقتطف ٥٣ ـ ٥٤
٤) ـ المصدر السابق ٥٥
٥) ـ النفح ٣/ ٤٠
٦) ـ ورد عنها فى معجم البلدان "عامة العجم يسمونها ارغان .. مدينة كبيرة .. بينها وبين البحر مرحلة ، وبينها وبين شيراز ستون فرسخا ، وبينها وبين سوق الاهواز فرسخا " راجع معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٤

ويظهر ان ابن سعيد ادى فريضة حجة سنة ٦٥١ • يستنتج ذلك من قوله : سألت اهل البحرين فى سنة احدى وخمسين وستمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين ••• "(١) اذ يبدو انه ذهب لزيارة الحضرة النبوية فى المدينة بعد ان حج فى مكة• وهذا النص يدل على ان ابن سعيد اغتنم فرصة حجه ايضا لتقييد الفوائد العلمية •

وطبيعى ان يشتاق ابن سعيد الى المغرب بعد هذه الغيبة الطويلة ،الشائقة ، الغنية• الا انه لابد ان يمر مودعا صاحب نعمته الملك الناصر صاحب حلب الذى كان له نعم النصير فى تلك الغيبة• ويعز على الناصر ان يفارقه ابن سعيد فيخسر بلاطه علما — جاء من بلاد الاندلس البعيدة • فلا " يفتح له فى السفر بابا •• الى ان حضر عنده وانشده ابياتا منها هذا البيت :

قضيت خير العمر عنكم ارضكم فمتعوا اهلى بماقد بقى

فارتاح وظهر منه الحنان ، وقال للوزير ابن يغمور : " صدق يسرح بمايكفيه من الاحسان فاخذ فى السفر وجرى مع القدر "(٢) الذى أوصله الى ساحل مدينة اقليبية بتونس فى سنة ٦٥٢ (٣) •

عودته الى تونس :

وعندما وصل ابن سعيد الى تونس بعد طول غيبة كان الترحيب به من اصدقائه القدامى حارا وحاثا على الافادة • فهذا ابو العباس الليانى يرحب به :

يازائرا خير بيت ديانة ورياضة
افض ازاهر علم تجلو علينا رياضه
قد تم حجك لكن بقى طواف الافاضة (٤)

وفى ذلك الوقت كانت الامارة الحفصية قد توطدت وازدهرت وتولى حكمها — بعد ابيه — ابو عبد الله المستنصر الذى ذاع صيته فى حقلى السياسة والعلم بالنظر لاتساع نفوذه وتشجيعه للعلم والعلماء •

---

١) — القلقشندى قلائد الجمان ص١٢٠
٢) — القدح ٨
٣) — النفح ٣/٤٠
٤) — القدح ٩

واتصل ابن سعيد بالمستنصر ونال عنه درجة رفيعة (١) .

ومما لاشك فيه ان سنوات اقامته بتونس كان بالنسبة له فترة استراحة ومراجعة للمادة المجمعة ... وتهذيب لها وتبويب .. ففي هذه الفترة صنف كتاب " الغصون " وربما كتاب جامع طبقات الشعراء كله (٢) الذى ترجم فيه الكثير من شعراء المشرق المعاصرين الذين يود المغاربة الالمام باخبارهم واشعارهم .

رحلته الثانية :

لاتسهب المصادر التى بين أيدينا في ذكر هذه الرحلة الثانية . ولكن لدينا من الاشارات مايكفى لتأكيدها . فالمقرى ينقل عن كتاب ابن سعيد "عدة المنتجع وقلة المتوفز" . انه ارتحل من تونس الى المشرق هذه المرة سنة ٦٦٦هـ ويروى انه عنه اخبارا مشرقية من حصيلة الرحلة الثانية (٣) ... ودلالة اخرى على حصول هذه الرحلة تأتى من المصنفين المشارقة الذين توهموا انه توفى فى اثنائها مما يدل على تأكدهم من وجوده فى المشرق فى تلك الفترة (٤) .

ولا تشير المصادر الى انه اوغل الى خراسان فى رحلته الاولى . الا ان كتاب القدح وهوكتاب الف فى فترة متأخرة (فهويذكر وفيات سنة ٦٨١) (٥) يذكر لنا هذه الحكاية : " وكان بخراسان مسايرا لبعض ملوكها ، فلقيهم مملوك وسيم من الاتراك (٦) ... " ثم ذكر بيتين بعد اكمال الخبر وهذا يدل على ان هذه الزورة الخراسانية كانت جزءا من الرحلة الثانية بل كانت احد اسبابها الهامة . اذ يبدو ان ابن سعيد اراد ان يكمل برنامج مشاهداته لبلدان الشرق الاسلامى واطلاعه على المصادر العربية بفارس ... على عادته فى كل عمل يقوم به اذ انه لايقنع الا بنتيجة وافية متكاملة لكل مايقوم به من اعمال .

---

١) ـ النفح ٣/٤٠
٢) ـ انظر فصل "علمه ومصنفاته"
٣) ـ النفح ٣/١٣٠
٤) ـ فوات الوفيات ٢/٢١٢
٥) القدح ١١٧
٦) ـ المصدر السابق ٩

والظاهر ان ابن سعيد بعد اقامة فى تونس استغرقت اربعة عشر عاما (٦٥٢ـ٦٦٦) قد شعر بنوع من الرتابة التى لم يعتد عليها وهوالذى قضى صباه سائحا بين الاندلس والمغرب وقضى شبابه وجزءا من كهولته متجولا فى تونس ومصر والشام والعراق والحجاز.

ولربما بقيت فى نفسه امور منذ الرحلة الاولى لم يستطع اليها من سبيل فى ذلك الوقت من اطلاع على بعض المصادر ومشاهدة لبعض المدن والاقطار خاصة وان الفتن كانت مستعرة عندئذ بين الايوبيين فى الشام وبقايا العباسيين وامرائهم فى بغداد ... بينما كان الزحف المغولى يكتسح كل قوة فى طريقه .. وهو امر قد يكون من ضمن الاسباب الهامة التى عجلت برحيل ابن سعيد الى تونس سنة ٦٥٢ رغم الحاح اصدقائه المشارقة.

وخلال هذه الفترة حدثت احداث خطيرة فى المشرق . فقد اكتسح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ ووقعت معركة عين جالوت التى انهزم فيها المغول لاول مرة سنة ٦٥٨.. واختفت دولة الايوبيين خلال ذلك لتحل محلها دولة المماليك.

ولقد خلف ابن سعيد وراءه فى المشرق اصدقاء اعزاء لم يعد يسمع عنهم شيئا ... ويود لو عرف مصيرهم اولقيهم مرة اخرى ..

وهكذا وجد المصنف النشيط المحب للحركة والاستطلاع نفسه مدفوعا للقيام برحلة مشرقية اخرى ترضى فى نفسه كل هذه الدوافع.

" ولما دخل الاسكندرية لم يكن عنده اكثر من السؤال عن الملك الناصر فاخبر بحاله وماجرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الامان ..وارتكب فى حلب التتر والمرتدون ماتصم عنه الاسماع ،وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البر ابن الحبر العبرى .. " (١)

فلقد قتل كثيرون من الاصدقاء القدامى .. ولكنها كانت شيمة العصر .. وماكان لهذه الفاجعة ان تكون امرا مفاجئا غريبا بالنسبة لابى الحسن الذى تعودها منذ صباه فى وطنه الاندلسي للفقيد . وكان لابد للرحلات ان تأخذ مداها، ولا بد للمصنفات ان تكتمل . وهكذا واصل ابن سعيد سيره الى خراسان وربما جاز الى مابعدها . والمصادر هنا لاتسعفنا بذكر مراحل هذه الرحلة . وهناك عبارة فى ترجمته بالقدح تقول : " وسار مابين عباد ان وقزوين " (٢)

---

١) ـ النفح ٣/ ١٣٠

٢) ـ القدح ٢

اى انه اخترق بلاد العجم من اقصى جنوبيها الغربى الى اقاصى اطرافها الشماليـــة ، هذا اذا جاز استنتاج ذلك من تلك العبارة الغامضة • واذا صح ذلك فان هذه الجولـة تمت فى رحلته الثانية اذ تشير المصادر الى انه لم يتجاوز فى رحلته الاولى مدينة ارجان فى الجنوب الغربى من بلاد العجم كما تقدم •

ومن الامور الجديرة بالالتفات فى حياة ابن سعيد اشارة باحثين محدثين هما المستشرق هاملتون جب (١) والدكتور زكى محمد حسن (٢) الى ان ابن سعيد فى رحلته الثانية طلب الاجتماع بهولاكو التترى فاتح بغداد او انه اجتمع به فعلا وان هولاكو استضافه عنده •

ومن سوء الحظ انهما يحجمان عن ذكر مصادر هذا الخبر او طريقة توصلهما الى التأكـد منه او ترجيحه • وانا لاملك الا ان اتحفظ ازاء خبر كهذا : فابن سعيد فى جميع كتبـــه التى اطلعت عليها لا يشير الى هذا اللقاء او مجرد التفكير فيه من قريب او بعيد مع انا نراه يذكر اجتماعاته بكثير من الامراء والملوك فاذا كان لقاءه مع هولاكو قد تم فلماذا ياترى يغفلـــه تماما رغم اهميته ؟ ثم ما بال المؤرخين المغاربة كابن الخطيب وابن فرحون والمقرى لا يشيرون الى ذلك ايضا رغم اطلاعهم على اغلب كتب ابن سعيد التى لم تصل الينا ؟ •

ومما يزيد الشك فى امكانية حدوث هذا اللقاء هو ان قائد حربيا كهولاكو ليس له مـن الميل الادبى ما يدفعه الى استقبال مصنف مغربى رحالة كابن سعيد • والملاحظ انه فى جميع ما وصلنا عن ابن سعيد لا نجد غير اشارة واحدة عن هولاكو وردت ~~الا فى صاحب حلب على يديه~~ فى كتاب " عدة المستنجد ، وعقلـــة المستوفز " وقد اوردها المقرى فى النفح على النحو التالى : " قال — اى ابن سعيد — انه سار — اى الناصر — نحو هولاكو ... فانزله ، واقام يشرب معه الى ان وصل الخبر بوقعـــة عين جالوت على التتر .. فقتلوه وخلعوا كتفه ، وجعلوه فى احد الاعلام على عاداتهم فـى اكتاف الملوك " (٣) . ومن الواضح تماما ان هذا الخبر عن الناصر ، ولكن قراءة الخبر دون انتباه الى الضمائر المستترة خصوصا فى الفعل " سار الى هولاكو " ودون التفات الى بقيته قد توهم المرء بان الذى سار الى هولاكو هو ابن سعيد نفسه • واياً كان الامر فان التحفظ ازاء الخبـر واجب حتى يظهر مصدر موثوق يؤكده او ينفيه •

---

١) — هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ص ١٦٧

٢) — انظر مقدمة المغرب (قسم مصر) ص ١٧

٣) النفح ٣/ ١٣١ — ١٣٢

رجوعه الاخير الى تونس ووفاته :

١ ـ نقل المقرى عن ابن الخطيب ـ اوثق من يمكن ان يؤرخ لابن سعيد بحكم القطر والمدينة والزمن ـ انه توفي بتونس في حدود سنة خمس وثمانين وستمئة (١)

٢ ـ وذكر ابن فرحون (ـ ٨٠٠) ايضا ـ ويبدو انه ينقل عن ابن الخطيب ـ انه توفي بتونس في السنة المذكورة (٢) .

٣ ـ وذكر المؤرخ المصري جلال الدين السيوطي (ـ ٩١١) ما رواه ابن فرحون وابن الخطيب (٣) .

٤ ـ الا ان بعض المؤرخين المشارقة وعلى رأسهم ابن شاكر الكتبي (٤) (ـ ٧٦٤) وابن تغري بردي (٥) ذهبوا الى ان ابن سعيد توفي سنة ٦٧٣ . وقد حدد ابن شاكر مكان الوفاة فقال انه دمشق وحدد ابن تغري بردي تاريخها باليوم والشهر والسنة فذكر انه توفي يوم السبت حادي عشر شعبان ثلاث وسبعين وستمئة .

ولكن هذه الرواية تبدو ضعيفة اذا ما قورنت بالرواية الاولى من حيث قوة المصادر . كما ان هناك اشارة من مصنفات ابن سعيد نفسه قد تساعد على ترجيح الرواية الاولى . فالملاحظ ان كتاب "القدح المعلى" لابن سعيد يصل في ذكره لتاريخ الوفيات حتى سنة ٦٨١ وهو وان كان اهدى الى الامير ابي زكريا ابن المستنصر قبل توليه الحكم سنة ٦٧٥ فان ذلك لا يمنع المصنف من اضافة بعض المعلومات الجديدة اليه بعد ذلك (٦) . وبناء على ما تقدم ، فان ما يمكن ترجيحه بقدر كبير من التأكيد هو ان ابن سعيد توفي بتونس سنة ٦٨٥ هـ (٧) .

---

١) ـ النفح ٣/٤١

٢) ـ الديباج المذهب ٢٠٨

٣) ـ السيوطي ، حسن المحاضرة ١/٢٦٦

٤) ـ فوات الوفيات ٢/٢١٢

٥) ـ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ورقة ٤٥٣ (مخطوط دار الكتب)

٦) ـ انظر مقدمة " القدح " التي كتبها الاستاذ ابراهيم الابياري محقق الكتاب .

٧) ـ توصل الى هذا الاستنتاج ذاته كل من الدكتور شوقي ضيف في مقدمة المغرب (قسم الاندلس) ص ٨ ، والدكتور زكي محمد حسن في مقدمة المغرب (قسم مصر) ص ١٧ وابراهيم الابياري محقق كتابي " الغصون اليانعة " و " اختصار القدح المعلى " لابن سعيد .

الفصـــل الثانـــى

شخصيته وثقافته العامـــة

١ - شكله وهيئتـــه

٢ - عوامل تكوين شخصيتـه

- بيئته العائلية وشخصية والده
- بيئة اشبيلية الاجتماعية والثقافية
- ثقافته وعلاقتها بشخصيته
- حالة الاخلاق فى المجتمع عامة
- كثرة اتصالاته ورحلاته

٣ - مزاياه الشخصية وميولـــه

- لباقته ومجاملته
- تقديره لروح الدعابـة
- حسن ذوقه وتقديره للجمال
- بين لهوه وتدينـــه
- جلده وصبـــره
- نزعته الاندلسية المغربيـــة
- هل من نزعة مذهبية خاصـــة ؟

١ - شكلـــه وهيئتـــــــه

لاتعفنا المصادر بوصف هيئة ابى الحسن ومظهره الخارجى • ولكننا نستطيع ان نتصور - باطمئنان - ان هذا الفتى الغرناطى المولد ، الاشبيلى النشأة والتربية سليل الارستقراطية الاندلسية العريقة ،ندام الامراء ومجالس الملوك ومصادق الشعراء والعلماء اينما ذهب وحيثما حل من اشبيلية الى مراكش الى تونس الى القاهـــــرة الى حلب الى دمشق الى بغداد ، اقول اننا نستطيع ان نتصور - باطمئنـــــان - انه كان بهى الطلعة مقبولا فى مظهره بل محببا الى النفس منذ اول لقاء •• والا لما كان بامكانه ان يخلق هذا العدد الهائل من الصداقات وان يكون نجم جلســـــات شعراء القاهرة وان يجالس الناصر فى خلواته وان ينادم طوران شاه وان يخلق تلـــك العلاقات الوثيقة مع ابن سهل الاندلسى والتيفاشى التونسى وابن العديم الحلبى •

ومانحن بصدد الزعم هنا ان حسن المظهر وحده كفيل بفعل كل ذلك ••• ولكن الذى لاريب فيه هو ان الذى لايتمتع بمظهر مقبول محبب الى النفس لايمكن ان ينفـذ الى قلوب الناس بسهولة •••

ولانخال ان المجاملة وحدها هى التى دفعت ابا العباس التيفاشى لقـــول البيت التالى فى ابن سعيد :

ومن محياه - والله الشهيد - اذا يبدو الى بصرى ابهى من القمر (١)

وليس لنا ان نجارى ابا العباس فى وصفه لصديقه بانه " ابهى من القمر " •• حسبنا ان نخرج من ذلك انه كان بهى الطلعة ،حسن المنظر •

---

١) - النفح ٣/٩١

وبالاضافة الى ذلك يبدو ان ابن سعيد كان حسن الصوت مجيدا للالقاء ،وقد تنبه الى هذه الميزة الملك الناصر الايوبى سلطان لا حلب فى اول لقاء شخصى له معـــه ، اذ قال له مداعبا بعد ان القى ابن سعيد قصيدة مدح فيه وحدثه عن جهوده فى تأليف "المغرب" و "المشرق" : "اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك وايرادك للشعـــر فان كنت ترضى به ، والا لم يعلم به احد غيرنا — وهو البلبل ... (١)"

٢ — عوامل تكوين شخصيتـــــه

يلعب العامل الجسمانى دورا له اثره فى تكوين الشخصية. ويبدو ان ابن سعيد لم يجد فيما يختص بهذا العامل عائقا يمنعه من الاندماج بالناس والظهور فى المجتمعات ، بل ان الدلائل تشير الى انه ساعده على التفاعل مع بيئاته الاجتماعية المختلفة الى مدى بعيد . اذ لا توجد اية اشارة الى ان الرجل كان يشكو من نقص يتعلق بجسمه أو هيئته . ولنا ان نتصور ان تمكنه من القيام بتلك الرحلات الطويلة المتعددة فى ظروف المواصلات التقليدية الشائعة عندئذ — وقد قام برحلته الثانية الى المشرق وقد قارب الستين — وتأليفه لذلك العدد الكبير من المصنفات ،ومداومته على حضور مجالس اللهو والنزهات حيثما حل ، اقول لنا ان نتصور ان تمكنه من كل ذلك يشير الى انه كان يتمتع ببنية جسمية قويـــة وصحة جيدة علـــى وجه العموم .

واذا كان للعامل الجسمانى اثره الذى لا ينكر ،فان العوامل النفسية والمنزلية والثقافية والاجتماعية لها الاثر الاعمق فى صهر الشخصية واعطائها خصائصها ومميزاتها الهامة . وجعلهـــا ما هى عليـــه . وهـــذه فى نظرى اهم العوامل التى اثرت فـــــى شخصيـــة ابن سعيد :

---

١) — النفح ٣/٤٠

١ — بيئته العائلية وشخصية والده :

انحدر ابن سعيد كما اشرت من اسرة اندلسية عريقة ذات اصل عربي معروف وذات تاريخ بارز في الحياة الاسلامية. وكان اجداده الاقربون شخصيات مرموقة في عهدي المرابطين والموحدين فمنهم الوزير ومنهم القائد ومنهم الشاعر المبرز ومنهم البحاثة المصنف (١) ومما لاشك فيه ان خصائص من تلك البذور الوراثية دخلت في تركيب شخصية صاحبنا ابي الحسن.

وفتح ابو الحسن عينيه ... وقرأ تاريخ اسرته السياسي والعلمي — وكله مسجل — فاذا به سجل يدعو للفخر ويدفع لمواصلة العمل .. ونظر ابو الحسن الى اقرب افراد اسرته اليه .. الى ابيه موسى .. فاذا به رجل بارز من رجالات دولة الموحدين. واذا به كاتب وبحاثة له مكانته وشأنه بين علماء الاندلس.

والواقع اننا مهما اسهبنا في شرح تأثير الاب على شخصية الابن لانكون مبالغين (٢) فقد ظل يوجهه في كل الظروف توجيها دقيقا رزينا حقق اغراضه دون ان يؤثر على شخصية الابن تأثيرا سلبيا .. اذ ان طول مرافقته لوالده ومصاحبته له في الحل والترحال والاستماع الى آرائه وتوجيهاته في كل ظرف لم يخلق منه شخصية ضعيفة تنتظر المساعدة والتوجيه باستمرار .. بل كان كل ذلك بالنسبة له اعدادا لتحمل مسؤولية المستقبل. ولقد كان ابن سعيد عند حسن ظن ابيه ، فعند وفاته بالاسكندرية بقي ابن سعيد وحيدا في ديار الغربة وكانت الظروف غير مشجعة بالنسبة له — كما ينعكس ذلك في شعره خلال تلك الفترة — ولكنه لم ييأس ولم يتخل عن الرسالة العلمية التي ورثها عن اسرته واعتبرها هدفه الاكبر في الحياة وهو مازال شابا في التاسعة والعشرين من عمره بل واصل السير وحيدا ، دون ان يدفعه فقده لوالده وعونه الاكبر على الرجوع الى المغرب.

ولقد خلق والده عنده هذا الاحساس بالمسؤولية منذ سن مبكرة يتمثل هذا الاتجاه في انابته عنه في ولاية الجزيرة الخضراء وهو مازال في الحادية والعشرين من العمر ، وفي استصحابه الى المغرب مع موكب العادل وهي ابن خمس عشرة وفي السماح له بمرافقته في زياراته المتعددة لزملائه علماء الاندلس ورجالاتها البارزين وفي محادثاتهم والاخذ عنهم.

---

١) — انظر القسم الخاص بالحديث عن " بني سعيد "

٢) — ومن الغريب الانجد شيئا عن دور الام في حياة ابن سعيد . اذ لم اعثر على اية اشارة له عن امه.

ولمس الاب فى ابنه الميل الادبى فشجعه ٠٠ واوكل اليه مهمة علمية تاريخية الا وهى اكمال كتاب " المغرب " الذى عمل اجداده على تصنيفه لمدة قرنين من الزمان ، والبدء فى اعداد كتاب المشرق متمم الكتاب الاول ومكمله ٠

ومن خلال الامثلة العملية الحية خلق الاب فى نفس الابن تقديرا للجهد العلمى وللصبر والجلد واحترام الحقيقة. أُخبر — يوم توليه حكم الجزيرة الخضراء — ان احدهم يمتلك بعض المصادر التى تهمه ٠٠٠ فبعث اليه يطلبها منه فأبى ٠٠ فذهب بنفسه الى بيته — رغم جفوة اللقاء — ونقل ما اراده وشكره بأدب وانصرف ٠ ولما تعجب ابنه من مشيه الى منزل ذلك الرجل بنفسه قال له — باسلوب يتوخى تجسيد العبرة واعطاء القدوة — " انى لاامشى له ولكن امشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس اشعارهم واخبارهم لو اُتراهم لوكانوا احياء فى موضع انفت ان امشى اليهم ؟ " فاجاب الابن " لا " ٠ فقال الاب : " فان الاثرينوب عن العين " ٠ ثم اراد بأن ينبه ابنه الى اولية العلم بالنسبة للسياسة فى عصر الثورات والاضطرابات فعقب على الزيارة قائلا : " الم تعلم يابنى اننى سررت بهذه الفائدة اكثر من الولاية ، " (١)

ودخل الفتى علي على والده فى يوم عيد فاذا به " فى جهد عظيم من الكتب " فقال له " ياسيدى افى هذا اليوم لاتستريح ؟ " فنظر الى كالمغضب وقال : " اظنك لاتفلح ابدا " اترى الراحة فى غير هذا ؟ والله لاحسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت ان الله تعالى يضاعف عمرى حتى اتم كتاب المغرب على غرضى " وكان لهذه اللفتة اثرها فى نفس الفتى — وذلك الاثر البعيد الذى وصفه لنا بقوله " فاثار ذلك فى خاطرى ان صرت مثله ، لا التذ بنعيم غير ما التذ به من هذا الشأن ولولا ذلك مابلغ هذا التأليف الى ماتراه " (٢) ٠

وحرص موسى — فوق ذلك — على غرس الثقة بالنفس فى شخصية الابن من خلال احترام تخصصه العلمي والتمسك به رغم كل شىء ٠٠ " ومتى دفعك الزمان الى قوم يعرفون من العلم ماتحسنه حسدا لك وقصدا لتصغير قدرك عندك وتزهيدا لك فيه فلا يحملك ذلك على ان تزهد فى علمك وتركن الى العلم الذى مدحوه فتكون مثل الغراب الخ " (٢). وينتهز الاب الاحداث والمناسبات ليبصر ابنه بطبائع الناس وحقائق الحياة ٠٠٠

---

١) — النفح ٣/ ٩٥ — ٩٦
٢) — المصدر السابق ٣/ ٩٩
٣) — المصدر السابق ٣/ ١٢٣

حدث ذات يوم ان كان الاب والابن جالسين فى مجلس ابن البناء الاشبيلى الذى كان يتصف بالميل الى نوع من الجد المشوب بالحقد على الناس . وسأل ابن سعيد الرجل ان ينشده شيئا من غزله " فاعتذر وخجل وفكر ولم يات بشىء " فلما خرجا من عنده بادره ابوه بقوله : " ما اخالك تعقل ، هذه صورة ينطبع فيها عشق او ارتياح اوشىء من اسباب الرقة انما اسأل منه ان ينشدك فى فتنة اوسخط اوملاء فطبعه الطباع الى ذلك " (١)

وفى اثناء الثورة اليهودية المتوكلية كانت الخواطر ثائرة والنفوس قلقة ، وكان من حسن السياسة ان يتبعد الانسان عن كل مايثير الريبة ويخلق الاعداء ، وحدث فى تلك الفترة ان تولى الافلح اللخمى عملا لابن هود فداخله نوع من الخيلاء المثيرة للاشمئزاز وصادف الامر موكب له وابن سعيد وصديقه ابن سهل الاسرائيلى موجود ان فى المكان فقال ابن سهل : وزيرنا ياويحنا افلح ، فاكمل ابن سعيد : فهل ترانا معه نفلح ، وواصل ابن سهل : يقرأ راجيه على فيه لا ، فختم : ابن سعيد : فحاجة المسكين لاتنجح . فبلغ الهجاء الافلح فاسرها فى نفسه وقطع عطاء لابن سعيد . وعلم ابوه بالامر فاستدعاه ووبخه بشدة قائلا : ما ابعد الفلاح عن وجهك ما كفى بك ادخلت روحك فى النعيمة بهجو الاعيان ، حتى رضيت ان تكون زاملة يهودى شاعر فاشتركت معه فى الصفة بالهجو وانفرد بحصول المعنى " وكان هذا الكلام كافيا لتوضيح معالم الطريق امام الفتى الذى خجل من عمله واقسم الا يعود الى مثل ذلك .

ثم حثه والده على نظم قصيدة اعتذار .. ففعل والقاها فى محضر الافلح رغم السخرية التى قوبل بها فى البداية "(٢) ومما لاشك فيه ان هذه التجربة المبكرة القاسية كان لها اثرها فى علاقات ابن سعيد بمن اتصل بهم من ذوى النفوذ والسلطان .

والى جانب الاستفادة من الوقائع العملية كان الاب يعمل على انضاج تفكير الابن بالحكايات وضرب الامثال . فقد كانا يوما يتحدثان " فى اختلاف مذاهب الناس وانهم لايسلمون لاحد فى اختياره ، فقال (الاب) : متى اردت ان يسلم لك احد فى هذا التأليف ـ اعنى المغرب ـ ولا يعترض اتعبت نفسك باطلا ، وطلبت غاية لاتدرك ، وانا اضرب لك مثلا ....

---

١) ـ القدح ١١٩

٢) ـ المصدر السابق ١٤١

ثم قص عليه حكاية الرجل الذى خرج ابنه الى الطريق ومعهما حمار واحد فركباه معا ثم تناوبا ركوبه ثم مشيا معه راجلين والناس ينتقدونهما فى كل حال (١) فالاب حريص الايهتم ابنه بالانتقادات التى توجه الى عمله العلمي • من ناحية ـ وهو يريد ان يبصر ابنه باختلاف نزعات الناس واهوائهم من ناحية اخرى •

ويستمر الاب المجرب ، العليم ببواطن الامور ، الذى شهد دولا تنهار ودولا تقوم ، والذى اكتشف بعد احداث مريره مرت بوطنه ان الاشتغال بالعلم هو اثمن الاعمال فى هذه الدنيا الفانية ـ يستمر فى توجيه ابنه حتى آخر يوم فى حياته ـ ففى اثناء مرضه الاخير بالاسكندرية كتب لولده وصية (٢) تكون بمثابة دستور له فى غربته شملت كثيرا من النصائح الشخصية والعلمية ، فمن ذلك قوله :

ولاتجالس من فشا جهله ... واقصد لمن يرغب فى صنعتك
ولاتجادل ابدا حاسدا ... فانه ادعى الى هيبتك

وقوله محذرا اياه من التطرف فى الاعتداد بالنفس :

ووف كلا حقه ، ولتكن ... تكسر عند الفخر من حدتك

ودعوته اياه لتغليب العقل على الشهوة :

ولتزن الاحوال وزنا ولا ... ترجع الى ماقام فى شهوتك
ولتجعل العقل محكا وخذ ... كلا بما يظهر فى نقدتك

وتذكيره له بمبادئ السلوك الهامة فى الغربة متمثلا بقول القائل :

يزين الغريب اذا ماغترب ... ثلاث فمنهن حسن الادب
وثانيه حسن اخلاقه ... وثالثة اجتناب الريب

ويعلق على ذلك بقوله : واذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها فى الغربة رأيتها جامعة نافعة لايلحقك •• مع استعمالها ندم •• " (٣)

---

١) ـ النفح ٣/٩٣ ـ ٩٤
٢) ـ المصدر السابق ٣/١١٦ ـ ١٢٤
٣) ـ المصدر السابق ٣/١١٨

وينبهه الى ضرورة الاستفادة من تجارب السابقين والنظر اليها باحترام وتقدير وعدم الاعتماد كليا على النظر الشخصي : " وفي امثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ، فاحتذ بامثلة من جرب واستمع الى ماخلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال فانها خلاصة عمرهم ، ولا تتكل على عقلك .. " (١) ويرسم له طريق التعامل مع الناس : " واقلل من زيارة الناس ما استطعت ولاتجفهم بالجملة .. ولاتقل ايضا اقعد في بيتي .. واستريح من الناس فان ذلك كسل داع الى الذل والمهانة (٢) .

وهكذا يتضح الاثر البعيد الذي خلفه والده في شخصيته . وهو - كما تبين - تأثير ايجابي مثمر على كافة المستويات . ويمكن القول ان حياة ابن سعيد سارت في خط الاتجاه الذي سار عليه والده في الشطر الثاني من حياته بعد ان نفض يده من العمل السياسي نهائيا واخذ يجول في المدن الاندلسية مقابلا العلماء مسجلا لفوائدهم ، متعرفا على المدن واحوالها الجغرافية وصفات سكانها عن كثب . وهذا الشطر الثاني من حياة الاب هو الذي وعاه الابن وشارك فيه مشاركة فعالة ، ثم واصل السير فيه من بعده .

٢ - بيئة اشبيلية الطبيعية والاجتماعية والثقافية :

وبعد البيئة المنزلية العائلية ، تأتي البيئة الاجتماعية .

ولقد قضى ابن سعيد سنوات عمره الحاسمة في اشبيلية ، التي تمت الاشارة الى جوها الطبيعي الجميل ومبانيها الانيقة ولطف سكانها المتعدد الاجناس ومرحهم ، وخصب الحياة الثقافية فيها وكونها المركز الاكبر للعلم والسياسة - معا - في الاندلس . ونستدل من شعر ابن سعيد ومن مذكرات رحلته التي اشار فيها الى الفروق بين مصر والاندلس ، ان الفتى قد انفعل منذ صغره بجمال المدينة الطبيعي الخلاب وتربى ذوقه على رؤية شوارعها ومبانيها الانيقة وتعود على العيش بين اهاليها المعروفين بتأدبهم وحسن مظهرهم ولياقتهم وظرفهم ، وكانت له مع صديقه الشاعر ابن سهل الاسرائيلي نزهات وجولات في ضواحي المدينة وبساتينها . ومن ناحية اخرى فان وجوده مع والده في المدينة اتاح له فرصة التعرف عن كثب على طبقتها الارستقراطية من علماء ووزراء وقواد وشعراء مما اعطاه مجالا للتأمل في اخلاق القوم وطباعهم ومظهرهم ومسكنهم وملبسهم وحديثهم وطرق تفكيرهم .

---

١) - النفح ٣/ ١١٩

٢) - المصدر السابق ٣/ ١٢٠

وسنرى ان من مميزات ابن سعيد فى ترجمته للشخصيات عدم الاكتفاء بذكر الحقائق التاريخية والحرص فى معظم الاحيان على اعطاء انطباعه الشخصى الذى يكون عبارة عن تقويم للشخصية الرجل او ذكر ميزة هامة تميز شخصيته .. ولعل لهذه اللقاءات المبكرة مع علية القوم فى اشبيلية اثره فى هذا الجانب عند ابن سعيد خاصة وان والده كان يهتم بلفت نظره الى طبائع الناس الذين يتلقاهم بهم (١) .

بالاضافة الى ذلك سيؤثر جو اشبيلية الضاحك اللاهى وجوها العلمى والاجتماعى المتسامح فى شخصية ابن سعيد كلاً فى ناحيته . وقد كان ابن سعيد يشارك فى الجو مشاركة فعالة ، هذه المشاركة التى ستكسبه سعة فى الافق وميلا الى التسامح الدينى والاجتماعى والفكرى ،وما انسجامه مع ابن سهل الاسرائيلى فى مجال اللهو وفى منتديات العلم معا الادليل مرونته وبعده عن التعصب . وسنأتى الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن مزاياه الشخصية .

٣ ـ ثقافته العامة :

يؤثر نوع الثقافة فى الشخصية ،كما ان الشخصية بدورها توجه الثقافة وتطبعها بطابعها والعوامل المكونة للشخصية يكون لبعضها اثر فى تشكيل الثقافة وبلورتها ووضع حدودها وآفاقها. وفيما يتعلق بثقافة ابن سعيد العامة ،فان البيئة الاندلسية الغنية بمقومات الثقافة ساهمت فى اطلاعه على كثير من آفاق المعرفة السائدة عندئذ وشخصية والده كان لها دورها التثقيفى الضخم واتصالاته المبكرة باعيان الاندلس والمغرب اعطته خبرة فى شؤون الناس والمجتمع ماكان يمكن ان يجدها فى الكتب . ثم جاءت رحلاته الكبرى واتصالاته العديدة بشخصيات العالم الاسلامى من امراء وعلماء وشعراء لتوسع وتعمق ثقافته الحية وخبراته المباشرة .

وثقافة ابن سعيد العامة يمكن ان يلمسها المرء فى نواح عدة من آثاره وشخصيته ومنهج تفكيره . ولسنا هنا بصدد الحديث عن ثقافته بمعناها العلمى اوبماتعنيه من مجالات التخصص فى فروع معينة من المعرفة فلهذا مكان آخر فى الفصل الخاص بعلمه ومنهجه العلمى .

---

١) ـ القدح ١١٩

والمقصود هنا النزعة العامة فى مواجهة كافة الامور علمية وغيرعلمية وطريقة النظر الى الاشياء وما يمتلكه المرء من "حكمة" وبعد نظر فى شؤون الحياة والمجتمع • واذا امكن التمييز بين مجالى "التخصص العلمى" و "الثقافة العامة" فانه لايمكن الفصل التام القاطع بينهما فكلاهما يرفد الاخر ويتفاعل معه• وقد انعكست ثقافة ابن سعيد الخصبة الواسعة فى الظواهر التالية :

أ ـ تعوده على اصول الحياة الاجتماعية الراقية حيث نشأ فى بيئة راقية اصلا ثم اخذ يتنقل بين بلاطات الامراء فى المغرب والمشرق حيث التقى بابن يغمور فى مصر والناصر الايوبى فى حلب والمعظم فى دمشق • ولاشك انه الم باصول المعاملات وطرائق السلوك الاجتماعى الراقى فى البيئة التى نشأ فيها والبيئات التى تنقل فيمابينها • وسنهتم بتفصيل هذه الناحية عند الحديث عن مزاياه الشخصية مكتفين هنا بالاشارة اليها •

ب ـ تفهمه الدقيق لطبائع الافراد والجماعات • وهذا ينعكس بوضوح فى كتاب "القدح" الذى ترجم فيه لاشخاص التقى بهم حيث تكشف تعليقاته على شخصياتهم وتصرفاتهم فهما دقيقا لنفسية الافراد ، كماينعكس فى اشاراته الى طبائع المجتمعات التى تعرف اليها فتراه يتنبه الى الفروق الدقيقة بين اخلاق المغاربة والمشارقة (١) بل يستطيع التنبه الى الفارق بين اخلاق اهالى القاهرة واخلاق اهالى الفسطاط (٢) على قرب وشدة شبه بين المدينتين المتجاورتين •• وهو المغربى الوافد الذى قدم من بلاد تختلف طباع اهلها عن طباع الجماعتين •

جـ ـ اتصافه بثقافة تاريخية واسعة : وهذه الثقافة التاريخية تنعكس بوضوح فى كثرة الاشارات التى ترد فى شعره والتى تكون مستمدة من حوادث التاريخ العام او تاريخ الادب او القصص الدينى • وهذا يدل على مدى هضمه لكل ذلك حتى اصبح جزءً من نتاجه الذاتى (٣) •

د ـ تعدد فروع اهتمامه العلمى : وهذا مايتضح فى مصنفاته بين مختارات لنصوص شعرية الى تاريخ للبلدان والدول والاشخاص الذين ينسب اليهم ذلك الشعر الى وصف جغرافى لتلك البلدان •

---

١) ـ مسالك الابصار ٤ ، ورقة ١١١
٢) ـ النفح ٣/١٠٦
٣) ـ راجع الفصل الخاص بشعره

فكتابا " المغرب " و " المشرق " عبارة عن مختارات ضخمة من الشعر بالاضافة الى تراجم مختصرة للشعراء وتاريخ للمدن والدول التي قامت بها ووصف جغرافي لتلك المدن • وكتاب المرقصات — على سبيل المثال — كتاب له طابع نقدي بالاضافة الى كونه مختارات شعرية ونثرية تغطي فترة حياة الادب العربي منذ القدم حتى عصر ابن سعيد • اما كتاب " بسط الارض " فهو كتاب جغرافي علمي دقيق (١)، بكلمة اخرى ان ابن سعيد كان اديبا ومؤرخا ومصنفا جامعا وجغرافيا رحالة •

وعلى ضوء هذا التعدد المتباين في فروع اهتمامه العلمي وعلاقة هذا التعدد بشخصيته يبرز السؤالان التاليان :

— هل كان ابن سعيد يتأرجح في ميله الشخصي بين خط التصنيف الادبي ومايلحق به وبين اتجاه العمل الجغرافي وماتبعه ام انه كان ينظر للاثنين باعتبارهما وحدة متكاملة وانه ليس ثمة تأرجح في الاختيار • ويستتبع ذلك : هل ان الادب والجغرافيا كانا يسيران جنب الى جنب منذ البدء ام انه مال الى احدهما في فترة معينة من حياته واتجه الى الآخر في فترة اخرى ؟

— هل كان هناك — من ناحية اخرى — تصادم بين متطلبات جهده العلمي عامة وبين النواحي الاخرى في حياته الشخصية كميله الى مجالس اللهو والتنزه والالتقاء باصدقائه واندماجه في اجواء المرح والدعابة ومايستتبع ذلك من تخلص من مسؤوليات التقييد والتصنيف؟

للاجابة على السؤال الاول نلاحظ ما يلي :

ان التصور الجغرافي كان اساسيا في كتاب " المغرب " وهو الكتاب الذي نذر ابن سعيد نفسه لاكماله منذ شبابه فكتاب " المغرب " قائم على تلاحم قوي بين الجغرافية والادب ، وكل التراجم والنصوص الشعرية ترتبط باجواء مدنها واوصاف تلك المدن وطباع اهلها • ولا نستطيع ان نتصور " المغرب " بدون التقسيم الجغرافي المستند اليه • كما ان التاريخ والترتيب الزمني روعيا مراعاة دقيقة اذ لاتبدأ تراجم العلماء والشعراء الابعد الحديث عن الامارات والدول التي عاشوا في ظلها •

---

١) — راجع الفصل الخاص بعلمه ومؤلفاته •

ومن هنا كان الاهتمام بالتاريخ والجغرافية لايسير فى اتجاه مضاد للعمل الادبى بل يغنيه ويكمله وكل جهد فى حقل تسجيل الملاحظات الجغرافية او الفوائد التاريخية يرتبط بالجهد الاكبر المبذول فى ترجمة الشعراء وجمع اشعارهم ٠

وقد كان ابن سعيد يعى هذه العلاقة بين الجغرافية والتاريخ من ناحية وبين التصنيف الادبى من ناحية اخرى بل انه كان يدرك ان الادب وحده لايمكن ان ينهض علما مستقلا بذاته وانه يتوكأ على العلوم الاخرى فنراه يقول : " اذ هذا الفن الادبى متطفل على سواه متوشح بغيره من الفنون توشح البلابلة بالدوح من اسفله الى اعلاه ،ولذا احتجنا مع الاستضلاع من صميم فنه الى مطالعة غيره من الفنون التى مزجناه بها مزج الصهباء بالماء ٠٠٠ وهكذا نرى ان ابن سعيد لم يكن متأرجحا بين الميلين لانه جمع بينهما فى انسجام متكامل ٠ كما انه ليس ثمة دليل على ان الميل الجغرافى او التاريخى سيطر على فترة معينة من حياته فلقد بدأ ابن سعيد مصنفا ادبيا بكتاب " المغرب " وانتهى مصنفا ادبيا ايضا بكتاب " القدح المعلى " وكتاب " المقتطف من ازاهر الطرف " ٠ اما فيما يختص بالعلاقة بين حياته الشخصية ومجهوده العلمى عامة فالملاحظ ان الرحلة غدت متعة شخصية عند ابن سعيد ولم تكن عملا اضطراريا فقد كان بامكانه البقاء فى بلاط الناصر الايوبى صاحب حلب الذى كان متمسكا به ممانعا فى رحيله عنه (٢) وقد غذت متعته الشخصية هذه جهوده العلمية كما اننا نلاحظ ان ابن سعيد فى نزهاته ومجالس لهوه مع اصدقائه — الذين هم من العلماء اوالشعراء او الظرفاء — يقيد مايسمع منهم من اشعار وطرف ادبية ٠٠٠ بل ان تلك الجلسات كانت مثارا للافكار والاشعار ومجالا لاشتراكه مع زملائه فى نظم القصائد المشتركة (٣) ٠ وهنا ايضا يوجد التكامل بين الميول الشخصية والعمل العلمى ويرفد احدهما الاخر بحيث تغنى فوائد تلك الجلسات اعمال التصنيف ويشجع الميل لاغناء التصنيف على المداومة على تلك الجلسات ٠

---

١) — مسالك الابصار ٨ / ورقة ٣٨٢

٢) — القدح ٨

٣) — انظر احاديثه عن امثال هذه الجلسات ومانتج عنها من فوائد ادبية فى القدح ٧٣—٧٧ والمقتطف ٥٤—٥٦

ولابن سعيد قصيدة "ذاتية" تكشف عن نظرته فى هذا الامر حيث يربط بين حياة التنقل وصفاء الافكار والتخلى عن المسؤوليات العائلية وبين العمل العلمى وما يتطلبه من تفرغ :

انا شاعر اهوى التخلى دون ما ... زوج كليما تخلص الافكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصا ... فى كل حين رزقها امتار
دعنى اح طول التغرب خاطرى ... حتى اعود ويستقر قرار
كم قائل : قد ضاع شرخ شبابه ... ما ضيعته بطالة وعقار
اذ لم ازل فى العلم اجهد دائما ... حتى تاتت هذه الافكار (١)

فابن سعيد يربط هنا بين حياته الخاصة وجهده العلمى الذى يلتزم به التزام الناس بازواجهم ومسؤولياتهم العائلية • وهكذا نرى التوافق تاما بين الجانبين الشخصى والعلمى •

ومن الخير قبل ان نشرع الحديث عن ثقافة ابن سعيد ان نشير الى علاقة ثقافته بانواع الثقافات المعروفة فى عصره : يمكن القول ان ثقافته اقرب ما تكون الى ثقافة "الكاتب". والكاتب له وظيفة مهمة فى المجتمع الاسلامى لعلها من امتع الوظائف واكثرها خصبا ، فهو الذى يجالس الخليفة او الوالى او الامير : يجالسه فى اوقات خلوته وسمره ليمتعه بطرائف الشعر والحكايات وليقرا عليه ما يشاء من كتب تهمه ، وعلى الكاتب ان يكون مستعدا للقيام بسفارات خاصة لولى الامر عندما يستدعى الامر ذلك • فللكاتب كما نرى صبغة سياسية وعلمية وادبية وادارية فهو بمثابة السكرتير الرسمى والخاص للامير • ومنصب كهذا يتطلب من صاحبه ـ بجانب اللياقة الشخصية ـ ثقافة تاريخية وادبية عريضة بالاضافة الى التمكن من كتابة الرسائل الرسمية والخاصة • ومما يدل على اهمية هذا المنصب ان عددا من الشخصيات

---

١) النفح ٣/٣٥ ـ ٣٦ •

البارزة فى التاريخ الاسلامى اضطلعت باعبائه : فقد شغله رجال من امثال عبد الحميد الكاتب وابن العميد وابن زيدون وابن خلدون وابن الخطيب .

وقد تولى ابن سعيد شيئا مقاربا من ذلك عند الامير ابى زكريا صاحب تونس ، وتولى الوظيفة كاملة عند وزيره ابن جامع ، كما انه قام ببعض واجبات الكاتب عند الناصر صاحب حلب وعند توران شاه فى دمشق . ولعل كتاب "المقتطف من ازاهر الطرف" نموذج مصغر لما يجب ان يكون عليه الكاتب من حسن الثقافة العامة ؛ وقد يكون للكاتب - اذا كان مبرزا - تخصص يركز عليه جهده ويشتهر به . فكاتب كابن زيدون تفوق فى مجال الشعر والنثر الفنى الى جانب قيامه بوظيفته ، وابن خلدون ركز على التاريخ وفلسفته .. وكذلك كان لابن سعيد تخصص استحوذ على اكبر قسط من اهتمامه الا وهو الروايات الادبية والتصنيف فى حقل الترجمة للشعراء والعلماء حسب اصول معينة .

وعلى العموم فان ثقافة ابن سعيد الواسعة فى افاقها ، المتعددة فى نوعيتها ، التى تلاقت فيها حرارة التجربة الشخصية مع مطالعات واسعة فى كتب الادب والتاريخ والجغرافيا كان لها اثرها الكبير فى خلق اتزان فى شخصيته وفى اضفاء مسحة من التسامح والموضوعية عنده تجاه شخصيات الاخرين وتصرفاتهم وافكارهم . وسنأتى لتفصيل ذلك عند الحديث عن ميزاته الشخصية مكتفين هنا بالاشارة الى ثقافته العامة باعتبارها عاملا هاما من عوامل تكوين شخصيته .

٤ - حالة الأخلاق في المجتمع عامة

كما المحنا سابقا ، لم يكن عصر ابن سعيد بالعصر الذى يشجع على انتهاج مبدأ الصراحة فى القول والعمل ولا اتباع منهج الثقة التامة بالاصدقاء والمخدومين . وقد لقنه حادث هجائه للوزير الافلح درسا قاسيا .. كما علمته معاصرته لفتن الاندلس فى عدها الاخير الكثير من العبر .. فكان لكل ذلك اثر بين على شخصيته سنعمل على استجلائه عند الحديث عن مزياه الشخصية .

٥ - كثرة اتصالاته ورحلاته :

جال ابن سعيد كثيرا .. واتصل بالكثيرين .

جال بلدانا تختلف فى مظاهرها الطبيعية والعمرانية وشهد شعوبا تختلف فى طبائعها .. واتصل باشخاص تتنوع طباعهم وتتعدد تنوع ملامحهم بتعدد اسمائهم .

كل ذلك له اثر البعيد الخطير .. وعلى الاخص بالنسبة لشخص ذكي دقيق الملاحظة كابن سعيد ....

فلقد زار مراكش المحافظة وهو فى الخامسة عشرة بعد فترة خصبة قضاها فى المجتمع الاشبيلى المنفتح ، ولقد جال معظم مدن الاندلس قبل ذلك وبعده ، ثم جاء الى تونس وهو فى السادسة والعشرين ورحل الى مصر وهو فى التاسعة والعشرين ...

والرحلة فى بيئات متباينة تدفع المرء الى التأمل والمقارنة وبالتالى الى استخراج العظة والعبرة التى يؤدى التوصل اليها بهذا الطريق العلمى الحي الى تحقيق نضج عقلى وسعة ادراك وفهم متزن لكثير من مظاهر المجتمع وطبائع الناس .

وهذا القول ينطبع على ابن سعيد الى حد بعيد فقد انعكس على تاثره بهذا العامل على نفسيته ومؤلفاته بشكل واضح .

٣ - مزاياه الشخصيـــــة

تفاعلت تلك العوامل المتعددة فى نفسية ابن الحسن .. فأى نتاج كان ؟

فى اعتقادنا ان الطبع الهادئ والعاطفة المتزنة والتعقل الرزين .. كل ذلك ممزوجا بثقة فى النفس ونظرة متفائلة للامور هو الخيط الرئيسى فى شخصية ابن سعيد وهوالذى يمكن ان يفسر كل مزاياه الشخصية الاخرى ..

لم يكن الرجل حاد الطبع جياش العاطفة ، ولم تكن لديه عقدة نقص ترفعه لاتخاذ مواقف حادة متطرفة سلبا او ايجابا .

.../..

"الاعتدال " .. ذلك هو جوهره النفسى .

اذ يبدو ان تركيبه فى الاساس قائم على هدوء العاطفة والبعد عن الانفعالات ثم جاءت العوامل البيئية من شخصية أبيه حكيم وبيئته مدينة منفتحة ... وصداقات شخصية متسامحة .. ومطالعات طويلة متنوعة .. ورحلات واتصالات استغرقت سنين طوالا ، لتدعم ذلك التركيب الاصلى فى تكوينه المبكر ولتنتج هذه الشخصية الهادئة ، المتزنة ، البعيدة عن اى تطرف اوانفعال ، التى تغلب العقل على الشعور بسهولة ويسر .

وبجانب هذه المزية الاولى والرئيسية اتصفت شخصية ابن سعيد بمزايا اخرى تؤكد هذه المزية الكبرى وتظهر كانعكاسات جانبية لها ..

١ ـ لباقته ومجاملته :

فمن ذلك لباقته وقدرته على المجاملة : فابن سعيد لبق مجامل واللباقة " صنعة " قديمة تعلمها ابو الحسن فى فترة مبكرة فى مجالس اشبيلية .. وهى صنعة تتناسب مع شخصيته ولا ترهقه من امره عسرا فهو يجامل بشكل طبيعى عفوى وهو من خلال هذه المجاملة الصادقة ـ ان كان ثمة مجاملة صادقة على وجه هذه الارض ! ـ يكون الصداقات الحميمة بسرعة مذهلة وباعداد ضخمة . والشخص الذى يصطنع المجاملة واللباقة لايمكن ان يكون صداقة حقيقية واحدة ... " (وهنا نستثنى نفاقه الذى لابد منه فى علاقاته الرسمية برجال السلطة ")(١) .

وابن سعيد كعادته معتدل فى صداقاته وفى مجاملاته التى يكون من خلالها تلك الصداقات . فهو لايحب كثيرا لانه لايكره كثيرا فمن يتملكه الحب الشديد يتملكه الكره الشديد ايضا .

ومما لاشك فيه ان ادبه ومنزلته العلمية لهما اثر فى صداقاته . ولكن الذى لاشك فيه ايضا ان الادب والمنزلة العلمية وحدهما لايجذبان صديقا واحدا .

---

١) ـ انظر مقدمة الرايات

والمرونة التى يتمتع بها ابن سعيد فى معاملة الناس عامة واصدقائه خاصة هى "اداة" ضرورية من "ادوات "عمله الكبير : الاطلاع على المصادر واخذ الاخبار الشفوية من اصحابها ... وله فى ابيه ، والى الجزيرة الخضراء الذى مشى الى بيت "احدهم" من اجل العلم .. اسوة حسنة . ولابن سعيد فى هذا المجال اخبار يرويها عن نفسه تكاد تصل به الى درجة البرود العجيب .

روى ابو الحسن : " انشدنى (ابو بكر محمد بن الاسبتى) يوما قصيدة قال فيها :

اذا رأيت نجوم الافق بادية ... فاعلم بان الثريا راعت الظلما

فقلت : هذا بيت لاافهم له معنى . فاغتاظ وقال : " لو كنت تفهمه لكنت من بنى آدم ، احسن الشعر وانبله مايكون معناه غامضا عن امثالك . فاضحكنى "(١)

والان .. علينا ان نعترف ان الذين يخرجهم مغرور ،معجب بشعره ،من دائرة "بنى ادم" ثم يضحكون هم قلائل للغاية .

والغرابة ليست فى الحكاية فحسب بل فى الطريقة الهادئة التى يرويها ابن سعيد وكأنه يحدثنا عن احدى نزهاته فى اشبيلية مع ابن سهل .

ثم ماذا حدث بعد ان اضحكه ؟ هل تركه ابن سعيد وشأنه ؟ كلا ... لقد واصل حديثه معه ببساطة " ثم حفظت من هذه القصيدة قوله فى الممدوح ،وهو مثل غيره ثقيل الروح . واورد الابيات " (٢)

يخرجه الرجل من آدميته ، ثم يواصل حديثه معه ،ويحفظ ابياتا من شعره .

يبدو ان ابن سعيد هنا ـ وهو يعامل هذا الرجل الذى هو واحد من "موضوعات بحثه" ـ كعالم سيكولوجى يجرى تجاربه على نوعية استجابات الحيوانات الهائجة وهو فى غاية الهدوء والمواجهة الموضوعية للتجربة .

---

١) ـ القدح ١٢٧

٢) ـ المصدر السابق ١٢٧

ولكن ابن سعيدعند ترجمته لهذا الرجل يصف كل شعره بانه " ثقيل الروح " ... فتكون اثقل تحية على الطريقة " السعيدية " الهادئة.

وهذه حادثة اخرى...

كان ابو جعفر احمد بن طلحة شديد التهور كثير الطيش ذاهبا بنفسه كل مذهب، يرى نفسه افضل من البحترى والمتنبى وابى تمام. وحدث ان تحداه بعض جلاسه وطلبوا منه ان يقرأ عليهم من شعره. فلما قرأ " لم ينصفوه فى الاستحقاق وردوه فى الغيظ الى اشد ماكان فقلت له ياسيدى، هذا والله هو السحر الحلال وماسمعت من شعراء عصرنا مثلك، فبالله الامازدتنى من هذا النمط. فقال: لله درابيك من منصف ابن منصف اسمع وافتح اذنيك :

ثم انشدنى قوله : .. (واورد له ثلاثة ابيات).

قلت : بالله اعد وزد. فاعاد والارتياح قد ملأ عطفه، والتيه قد رفع انفه ثم زاد قوله (واورد بيتين).

فقلت : ماعلى هذا من مزيد فى الاحسان فعسى ان يكون مزيدا فى الانشاد فزاد ارتياحه وانشد (واورد بيتين).

فقلت له : ايه، زادك الله احسانا، فزاد : (واورد بيتين)

فقلت : كل ما يكرر ويطول فانه مملول، الا ماوردته آنفا فانه كنسيم الحياة ما ان يمل فبالله الا تفضلت بالاعادة والزيادة، فاعاد. ثم قال : وهذا حسبك لئلا تكثر المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وانصافها. ثم انشد اذ ذاك (واورد بيتين) فقلت : ملأ الله سمعك بكل بشرى. فمازالت المحاسنُ عليّ من قِبَلِكَ تَتْرى " (١).

فابن سعيد يريد ان يأخذ المادة ممكنة، والرجل شديد العجب بنفسه فهو يشبع فى نفسه هذا الميل بطريقة تدرجية ذكية، وهو يسجل انفعالاته من " تيه " و " رفع انف " و " زياد ارتياح وهو لا يظهر اهتماما بعبارات الشاعر النامة عن استصغاره لابن سعيد من مثل " اسمع وافتح اذنيك " ومن مثل هذه الاهانة الغبية : " وهذا حسبك لئلا تكثر عليك المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وانصافها ".

---

١) ـ القدح ١١٤ ـ ١١٥

وابن سعيد يروي الكثير من هذا النمط وخاصة فى كتاب "القدح" الذى ترجم فيه لشخصيات معاصرة التقى بها .. وكل مايرويه فى هذا المضمار تاكيد لظاهرة مرونته ولباقته ومجاملته التى تنضغط وتتمدد بحسب نفسية الشخص الذى يتحدث اليه ، فان كان شخصا ثقيلا او مغرورا جامله بمايشبهه الهزء وان كان شخصا يرى انه يستحق احترامه وصداقته عامله برقة ولباقة تنم عمايكن له وتقرب من المصارحة القائمة بين الاصدقاء فهذا ابن سهل الاسرائيلى يسمعه قصيدة خمرية خاتمتها الشطر " ولااشتهي وردا سواها لدى الحشر " فاذا به يستحسن خطابه اولا ثم ينكر " عليه فنزع بيته الاخير " ويلدغه " من الملام بيسير " فيقول ابن سهل : " اليس فى الجنة نهر خمر ، فذلك حسبى لا ابتغى به بدلا " فينتهز ابن سعيد هذه الفرصة فيسأل صديقه السؤال الذى كان يدور فى ذهنه منذ زمن : " بحرمة ما بيننا الا ماازلت عنى شك الناس فيكم ، وصدقتنى هل انتم على دين اسلافكم اودين المسلمين ؟ فيجيبه ابن سهل : " للناس ما ظهر ، ولله ما استتر ، وبعد فهذا خلاف مانحن فيه " ويعلق ابن سعيد على هذه الروايه بقوله : " فاضربت عن مناقشته ولم اقف له على ما اثبته او انضيه :

وانى لارجو ان تكون وفاته ... على ملة الاسلام كيما يسلما
والقاه فى جنات عدن مخلدا ... فليس باهل ان يحل جهنما " (١)

ويمكن للمرء ان يستخرج من هذا الخبر امورا عديدة . منها طريقة ابن سعيد اللبقة فى اثارة الموضوع فهو ينتهز فرصة ورود اشارة متطرفة فى شعر صديقه فيعلق عليها ويسأله السؤال الحساس لكى يزيل عن نفسه " شك الناس " فى بنى سهل ، وهو عندما لايرى اجابة صريحة يضرب عن المناقشة ولا يثقل على صديقه بمزيد من الاستفسارات حفظا لحسن العشرة بينهما . ثم انه امانة منه فى الرواية ينقل شكه للقارئ ولايبرئ صديقه مما عرف عنه .. وان كان يسجل امنيته الشخصية - بعد تسجيله الحقيقة - فى ان يصلح امر ابن سهل ويتوب الله عنه .

ومن هنا نتبين الى اى مدى كان ابن سعيد لبقا فى علاقاته مع الاباعد والاقارب .. والى اى مدى كان مخلصا لعلمه وللحقيقة .. والى اى مدى كان وفيا للصديق .. وفاء لا يطغى على امانة العلم .

---

١) - القدح ٧٤

٢ ـ تقديره لروح الدعابة :

يبدو ابن سعيد مقدرا لروح الدعابة فى كل مايكتب فتراه يحرص على رواية اية دعابة او نكتة تتوفر لديه عمن يترجم لهم بجانب مايذكره من اخبار واشعار .

وتقديره لروح الدعابة امر غير مستغرب فيه وهو المجالس والمنادم الظريف الذى استطاع ان يجد له مكانا اينما ذهب وحيثما حل .

ومما لاشك فيه ان جو طلبة اشبيلية المرح .. و " الشلة " التى كان هو وابن سهل وابن الصابونى ـ الذى كانوا يلقبونه بالحمار ـ من رؤسائها لهما اثر فى خلق هذا الميل عنده ولانشك فى ان هذه " الشلة " المؤلفة من طلبة اذكياء " اشقياء " كان لها اثرها فى " عكننة " مزاج علماء النحو فى مدارس اشبيلية وفى نشر النكت والاخبار المضحكة عنهم وعن زملائهم من الفقهاء ومقرئى الادب الذين كانوا يحيون مجالس العلم فى المدينة المستنيرة الضاحكة .

ولقد سجل لنا ابن سعيد فى ترجمته لزملائه ولشيوخه ذلك الجو الضاحك الذى شهده واشترك فيه ولقد ركز على اساتذته بالذات ـ كعادة الطلبة فى كل زمان ومكان ـ وتعقب كل نكاتهم وامورهم المضحكة من مظهر وخلق وكلام واخبار وتصرفات :

فاستمع الى هذه " المناظرة النحوية " بين الشلوبينى ـ امام النحو فى المغرب عندئذ ـ وبين الشاعر ابن الصابونى احد تلامذته :

" واتفق له (الشلوبينى) مع ابن الصابونى الشاعر الحكاية المشهورة . وذلك ان الشاعر المذكور كان يلقب بالحمار ويغتاظ من ذلك فبينما هو ذات يوم يقرأ عليه كتاب (الايضاح) اذ مرت مسالة " السمن منوان بدرهم " وتشعبت المذاكرة الى ان اغتاظ الاستاذ عليه ، فزحف اليه من صدر مجلسه وقال له : يا حمار يا ابن حمارين وجعل يصعد هكذا شيئا فشيئا الى ان قال له : يامائة الف حمار ، يامل الارض حميرا ثم جعل اصبعيه فى اذنيه ونهق وهو يزحف اليه واجتمعت العامة على باب المسجد وكانت حالة مضحكة (١)

---

١) ـ القدح ١٥٢ ـ ١٥٣

فتأمل فى منظر هذا النحوى الغاضب الزاحف الناهق .

وابن سعيد يتتبع اساتذته حتى فى لفظهم فها هو ذا يروى هذه الحكاية عن استاذه الشلوبينى " ولما سافر ابو العلاء (المامون الموحدى) الى مرسية خطب خطبة قال فى اولها ثلمك الله ونثرك . وكان يجعل السين والصاد ثاء فتطير الناس بذلك ... " . (١)

ويستمر ابن سعيد فى تتبع نوادر شيخه النحوى " وله حكايات مشهورة فى الغفلة منها عنقود العنب الذى وضعه فى نهر اشبيلية وهو بالقارب حتى يبرد ثم يمد يده لياخذه .. ومنها انه كان ينسخ والشعير الى جانبه فينشف الورقة بالشعير فستود جميعها " (٢) .

ولكن ابن سعيد لايسمح لكل هذه الاخبار ان تؤثر على شخصية استاذه فى نظر القارئ بل يختم كل ذلك بقوله : " ومع هذا فانه كان من ذوى المروءات .. واما فى درجة العلم والدراية فاليه كانت قصب الغاية " (٣) وكان فى مطلع الترجمة قد اعطاه حقه من التنويه والتقدير . وهكذا يتضح لنا ان ابن سعيد مع تقديره لروح الدعابة . يفهم مفعولها واثرها ويحسن استخدامها فلايجعل منها وسيلة للنيل من احد بل يقصرها على مايجب ان تقصر عليه من امتاع ومؤانسة .

وكما فعل مع شيخه الشلوبينى فعل مع شيوخه الآخرين واصدقائه وكتاب " القدح " و " المقتطف " حافلان بالنوادر . بل انه فى كتاب المقتطف خصص فصلا كاملا للحكايات الطريفة ، وحتى فى كتاب " المغرب " الذى كان يترجم فيه للشخصيات باختصار ليفسح المجال امام النصوص الشعرية لم يفته ذكر بعض النوادر خاصة عن بعض اهل المدن وعلى رأسها قلعتهم التى اورد عن اهالى بعض قراها حكايات طريفة . (٤)

---

١) ـ القدح ١٥٣
٢) ـ المصدر السابق ١٥٤
٣) ـ المصدر السابق ١٥٤
٤) ـ المغرب ٢/ ١٨١ ، ١٨٦

وابن سعيد الذى اورد ذلك العدد الهائل من الطرائف عن غيره لم يجنب نفسه لمسة الخبر الضاحك فهو يخبرنا انه عندما اراد الانتقال من القاهرة الى الفسطاط لم يربدا من ركوب الحمار عندما راى الفقهاء " ذوى الشارات " يركبونه على غير عادة اهل المغرب ، ولكنه لم يحتمل ركض الحمار السريع فوقع على الارض وتلوث بالغبار فنقد المكارى اجره وطلب منه ان يحسن اليه بتركه يمشى راجلا . ثم سجل هذه الحكاية فى الابيات الطريفة التالية : (١)

لقيت بمصر اشد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الريا ... ح ، لا يعرف الرفق مهما استطار
اناديه مهلا فلا يرعوى ... الى ان سجدت سجود العثار

وعندما التقى بالملك الناصر فى حلب واخذ فى مجالسته وزالت بينهما الكلفة خيره الملك بين امور ثلاثة : بين لقب " البلبل " الذى اطلقه عليه وبين انعام القصيدة التى مدحها بها . وبين الخلع والتواقيع التى كان سيحصل عليها خلال مدة ضيافته . فيجيبه ابن سعيد بظرف " ياخوند ، انا مغربى اكول لا اغص بعشر لقمات فكيف بثلاث " فيسر الملك بالرد وبظرف صاحبنا الاكول (٢) .

وابن سعيد يروى هذه النوادر عن نفسه دونما تحرج مما يدل على سماحة روحه وعدم تكلفه .

---

١) - النفح ١٠٣/٣

٢) - المصدر السابق ٤٠/٣

٣ - حسن ذوقه وتقديره للجمال :

خلقت عنده بيئة اشبيليه الجميلة طبيعة" ، الانيقة شوارع وعمرانا ، المترفه دورا وقصورا ، احساسا بالجمال وتقديرا له .

١ - ينعكس ذلك في شعره الملئ بوصف المناظر الطبيعية، الطافح بمختلف الالوان والزخارف (١) .

٢ - ويتضح تنبهه للفارق بين نظافة وجمال شوارع اشبيلية ومبانيها المطلية بالبياض المحاطة بالبساتين وبين ما رآه - وتضايق منه نفسيا - في بعض احياء القاهرة من مبان يعوزها الترتيب وحسن الهندسة وجمال المنظر (٢) .

وابن سعيد - عند وصفه لاية مدينة اوقطر - يحرص على ذكر شكلها وبيئتها الطبيعية مما يدل على اهتمامه بهذه الناحية وشعوره باهمية الاناقة وجمال النظر بالنسبة لنفسية الانسان .

٣ - وحتى عقليته تأثرت بناحية الاهتمام بجمال الشكل وحسن مظهره . فتراه في تخطيط كتابه الضخم " المغرب " يقسمه على هيئة عرائس ... فكل مدينة عروس لها تاجها وبساطها ومنصتها واهدابها الخ (٣). ولا نشك في ان هذه الناحية قد ورثها ابن سعيد من بيئته المنزلية الارستقراطية العريقة .

٤ - بين لهوه وتدينه :

وردت في مختصر " القدح " وفي بعض المصادر المتأخرة اوصاف لابن سعيد على انه من الفقهاء او من حفظة الحديث مثل " الفقيه " (٤) و "الشيخ " و " الحافظ " الا ان ابن فرحون - مؤرخ المذهب المالكي في المغرب - كفانا مؤونة التحقيق في هذه الناحية

---

١) - انظر فصل " شعر ابن سعيد

٢) - النفح ١٠٢/٣

٣) - انظر فصل " علمه ومصنفاته ومنهجه "

٤) - القدح : ١

عندما اوضح في ديباجـــه المذهب — وهو كتاب في فقهاء ومحدثي الملكية — ان ابن سعيد " لم يكن من نمـــط من قصد ذكرهم وان ترجم له لان " مؤلفاتـــه اشتملت على كثيـــر من الفوائد العلمية " (١) فابن سعيد اذن لم يكن فقيهـــا ولا من حفظـــة الحديث ولنا ان نرجح ان ثقافتـه الدينية لم تصل الى حـــد التخصص والتأليف اودرجـــة التمكن والوثوق وان كانت تناسبه مع مستواه العلمي والثقافي العام كرجل مطلع على التاريخ ومتخصص في شؤون الادب والرواية.

ولكن ذلك لاينفي عنه التدين اوحتى شدة التدين الا اننا من ناحية اخرى لانملـــك من الشواهـــد مايثبت تدينـــه (وعدم ثبوت تدين شخص لايعنـــي بالطبع انه من اهل الزيغ والضلال ولايدل على انه لم يكن قوم بواجباته الدينية المعتادة ..) بل ان هذه الشواهد تشيـــر الى انه كان متسامحا بعض الشيء في امور دينه وانه كـــان يمتع نفســـه بانواع المتعة السائدة في عصره من جلسات لهو ومنادمة . والـــــذي يدفعنا الى ترجيح ذلك الشواهد التاليـــة :

١ — ان هدف الحج لم يكن المحرك الاول لرحلته المشرقية . يدل على ذلك كثرة تأجيله ولايعقل ان هذا التأجيل كان — باستمرار — لاسباب قاهرة . فقد بقي في مصر ثلاث سنوات وفـي حلب ثلاث سنوات اخرى وفي الشام سنة وفي العراق سنة ثم ذهب الى الحج ،ويبـدو ان الاهتمام بالاطلاع على المصادر الادبية كان يحتل الجانب لاكبر من تفكيره ،وهـذا ما يشككنا في صدق لهجة قصيدته التي قالها في الاسكندرية عندما تعذر عليه الحج سنة ٦٣٩ ،والتي تشوق فيها الى قبر الرسول ومدحه . وهي كسائر شعره لاتعكس شعورا حارا .

٢ — اننا في كل ما وصل الينا من تصانيفه لانلمس في كتابتـــه تدينا بارزا وكثير من النـاس يمكن ان ينعكس شعورهم الديني فيما يكتبون ولوكان مايكتبونه تاريخا اوادبا اوشعرا .

٣ — نجد في شعره الكثير من الخمريات ووصف مجالس المنادمة .. وقد لايكون ذلك دليلا ،فالشعر

---

١) — ابن فرحون ،الديباج المذهب ،ص ٢٠٨ ،ط القاهرة ١٩٣١

الخمرى تقليد فنى قديم فى الشعر العربى . ولكننا نجد مع ذلك فى شعره غزلا غلمانيا بوفرة .. والغزل الغلمانى ليس بالتقليد الفنى وان كان شائعا فى عصره.. وبعض هذا الشعر قاله ابن سعيد فى مناسبات معينة قد تبعده عن جو التقليد الفنى " المجرد " .. من ذلك ابياته التى قالها عندما دخل الى حمام بتونس مع صديقه التيفاشى بعد ان رأى فى الحمام غلمانا فى الغاية " من نعومة الابدان "(١)

والواقع ان كتب ابن سعيد ـ من ناحية اخرى ـ تنضح باجواء الظاهرة الغلمانية السائدة فى عصره . فهو يروى لنا شعرا وفيرا فى ذلك.. وهو لا يقتصر على الشعر بل يروى لنا حكايات واخبارا عن علاقات واضحة بين شخصيات معروفة وبين غلمان كلفوا بهم.. وهذه الحكايات والاخبار لاتورد فى " اطار شعرى " حتى يمكن النظر اليها خلال الاطر والتقاليد الراسخة ولكنها تورد كحكايات واخبار تروى للتاريخ والحقيقة فحسب..

ويبدو ان ابن سعيد كَلِفٌ بهذا النوع من الروايات والاخبار فهو يوردها بكثرة وهو يتفنن فى ايرادها .. ولانشك فى انه شاهدها عن كثب من خلال مرافقته لابن سهل الاسرائيلى ـ علم الشعر الغلمانى بعد ابى نواس...

ويصعب على المرء ان يمر بهذه الناحية دون ان يساوره الظن حول علاقة ابن سعيد بهذه الظاهرة عموما ودون ان يميل الى شىء من الاعتقاد فى ان ابن سعيد قد اصابه رذاذ من هذه الظاهرة بشكل او بآخر ...

وابن سعيد ـ من ناحية اخرى ـ لم يتزوج (٢) وهو يعلل ذلك فى قصيدة حول هذا الموضوع . فهو رجل رحالة وصاحب افكار " لا يريد تحمل مسؤولية الزوجة ويريد ان يتمتع بجلساته ولهوه دون تنغيص (٣) ولابن سعيد قصيدة اخرى فى افتضاض بكر (٤) ولانعلم ان كان ذلك مجرد تفنن فى النظم ام انها اكثر من تفنن . ولنختم حديثنا هذا بعبارة ابن سعيد المعهودة فى مثل هذه الاخبار : الله اعلم بالسرائر !

---

١) ـ النفح ٣/٥٧

٢) ـ على الاقل حتى وقت القصيدة المذكورة

٣) ـ النفح ٣/٣٥ ـ ٣٦

٤) ـ المصدر السابق ٣/٣٢ ـ ٣٣

وعلى اى حال فاذا نحن نظرنا الى الموضوع من خلال فهمنا لنفسية ابن سعيد القائمة على التوسط والاعتدال امكننا ان نقول انه لاينتظر منه ان يكون متزمتا فى تدينه ولامسرفا فى لهوه وانه على الارجح استطاع ان يقيم توازنا بين الطرفين • وربما اكدت الحكاية التالية هذا الرأى : " زار (ابن سعيد وصديقه ابن العديم) المشاهد الخارجة عن دمشق وفى خدمتهم المماليك بمناطق الذهب كالولدان فى الجنان فادركته خشية وخرج عن الدنيا ،والزمه ذلك وهاهده عليه ، ومضى الى حلب فبلغه انه عاد الى ماكان عليه من اتخاذ المماليك وذلك شىء لابد منه لمن يخدم السلطان فكتب اليه :

يا ابن سعيد اليك شوقى ... شوقك للغصن والكثيب
نقضت بعد البعاد عهدى ... فارجع الى الله من قريب

فأجابه :

يا ابن الكمال اطرح عتابا ... فى الشوق للغصن والكثيب
واسأل الى الله ان يعافى ... من مقلة الشادن الربيب
تبناكلانا ،وسوف ننسى ... لكننى عدت من قريب (١)

فابن سعيد لايسرف فى لهوه ويتذكر الآخرة•• ولكنه لايستمر فى زهده ويقضه بل هو بين بين فى توسط واعتدال •

٥ ـ جلده وصبره :

وهى مزية لاتحتاج الى دلائل خاصة ، بعد ان يقرأ المرء سيرة ابن سعيد ويتأمل قائمة مصنفاته العديدة الضخمة •

وابن سعيد صبور فى بحثه عن مصادره ومعلوماته ،وفى تبويب مادته وترتيبها وفى تمسكه الشديد بهدفه الاول الذى وضعه له ابوه رغم كل المصاعب التى اعترضته ولا تغير رأينا فى صبره وجلده مقالته للملك الناصر بانه يضجر ويتضايق عندمايعمل على تنصيف مؤلفاته الكبيرة الشاملة (٢) فهذا الضجر قد يعود الى عدم القدرة على تحقيق كل مايصبو اليه

---

١) ـ القدح : ٦ ـ ٧

٢) ـ المقتطف : ورقة ٣

من كمال فى التصنيف وليس من العمل فى حد ذاته اذ لو كان ضجرا من الجهد التصنيفى لصرفه عن القيام بمهامه العلمية التى نُدب لها .

وماكان لابن سعيد ان يبدى هذا الجلد فى التصنيف لو لم يكن متمتعا بطبعه الهادئ وعاطفته المتزنة . فالصبر والجلد ليسا من صفات الرجل الذى يكون عرضة لسرعة الانفعال .

٦ - نزعته الاندلسية المغربية :

فيما يختص بهذه النزعة التى عرفت عن الاندلسيين والمغاربة ، نرى ان ابن سعيد يعتز بوطنه اعتزازا كبيرا ولكنه اعتزاز قائم على مراعاة الحقيقة لاعلى الجدل الخطابى والمغالطة . فهذا الاعتزاز يريد اجلاء الحقيقة كاملة عن بلاد الاندلس حتى ينصفها بعد ذلك كل محب للحقيقة ، وهو فى الوقت ذاته لا يؤدى الى ظلم بلاد المشرق والتقليل من شأنها . والمبدأ العام عند ابن سعيد عدم تفضيل عصر على عصر او قطر على قطر فتراه يكرر : " ان المحاسن قسمها الله على البلاد والعباد ... والمنصف من لم يخص بالفضيلة عصرا من الاعصار ولا مصرا من الامصار " (١) الا ان هذا المبدأ لا يمنعه من التصدى للمتحيزين بل انه يوجب عليه ان يفعل ذلك خاصة اذا مس هذا التحيز بلاده واقليمه ففى الشام وجد ان المشارقة يقللون من شأن المغرب ويظلمونه من كل جهة فقرر ان يؤلف كتابا فى ذلك لاعادة الامور الى نصابها يحدثنا عن ذلك بقوله : " والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتمل كتابا وقد صنفته صنفته بالشام لضرورة دعت الى ذلك من شدة اتخاذ المشارقة على المغاربة من كل جهة حتى قال ابن دحية ﷺ خطبة كتابه فى اخبار المغرب يخاطبهم :

وان كنتم فى العدد اكثر مفخرا ... فلا تظلمونا فى القليل الذى لنا

وسميت الكتاب الذى وضعته فى ذلك الشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة " (٢) .

---

١) - عنوان المرقصات ٣

٢) - مسالك الابصار : ٣ ورقة ٧٦

وقد اثار هذا الكتاب ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الابصار الذى اخذ يرد عليه فى مصنفه محاولا التقليل من شأن المغرب. وما وصلنا من كتاب " الشهب الثاقبة " هو الفقرات التى اختارها العمرى للرد عليه وهى فقرات مقتضبة اقتصها العمرى من سياقها لكى يتخذها وسيلة للرد والهجوم. كما ان المقرى فى النفح اورد فقرات من مقدمة ابن سعيد لكتاب " المغرب " تتضمن جملا من " الشهب الثاقبة " (١)

ونرى ابن سعيد فى هذا الكتاب موضوعيا يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ويتجنب اطلاق الاحكام الذاتية التى لاتستند الى اساس وهو لا يتردد فى ذكر فضائل المشرق وفى تفضيله على المغرب فى بعض الامور ، فمن ذلك اشارته الى ان العمران متصل فى الاراضى المشرقية من الشام الى العراق الى بلاد العجم بعكس المغرب الذى يغطى مساحته البحر " لهذا كان المشرق اعظم عمارة من المغرب واكثر مدنا .. فوجب التسليم من المغاربة فى هذه المزية " (٢) وهو عندما يقارن بين الاوضاع السياسية فى المشرق والاندلس يرى ان الانظمة المالكة اكثر احتراما وثباتا فى المشرق بينما الحكم فى الاندلس يعتمد على ثورات قواد الجند مثل ابن الاحمر وابن هود (والمقارنة التى فى ذهن ابن سعيد هى طبعا بين استقرار مصر والشام فى ظل الايوبيين وتمزق الاندلس بين زعمائها قبل سقوط قواعدها الكبرى) ويشير الى ان سرعة تغير الحكام تؤدى الى اضاعة الجهد وتغلب العدو ويخلص من ذلك بقوله : " واهل المشرق اصوب رأيا منهم (المغاربة) فى مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع (٣) وابن سعيد منصف للمشرق حتى فى مفاخره التى لاتعتمد على حقائق مسلم بها ، فنراه يشير الى تلك المفاخر ويتحفظ ازاءها فمن ذلك : " ذكر ابن سعيد ان بعض الحكماء شبه الارض بجسد آدمى وعدد اعضاءه ، وجعل الصين والهند رأسه والمغرب رجله .. وبهذا التشبيه للمشرق غاية الفخر وان سلمه اليهم المغاربة (٤) فهو هنا يذكر ماقاله الحكماء ويرى فيه فخرا للشرق ولكن لأن التشبيه غير قائم على حقيقة بينة وضع ابن سعيد تحفظه.

---

١) ـ النفح ١/١٩٦
٢) ـ مسالك الابصار ٣ ورقة ٧٦
٣) ـ النفح ١/٢٠٠ ـ ٢٠١
٤) ـ مسالك الابصار ٣ ورقة ٧٨

وبالمقابل نراه يدافع عن الاندلس معتمدا على المنهج الموضوعي ذاته . فما اثاره من المشارقة قول الجغرافي ابن حوقل : " ومن اعجب مافي هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر احلام اهلها ،وضعة نفوسهم ،ونقص عقولهم ،وبعدهم من البأس والشجاعة ... " ويعلق ابن سعيد على ذلك بقوله : " لم أُريداً من اثبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيه من الظلم والتعصب مالا يخفى ،ولسان الحال في الرد انطق من لسان البلاغة ، وليت شعري اذ سلب اهل الجزيرة (الاندلس) العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ واني لاعجب منه اذ كان (ابن حوقل) في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب الى الشام .. حتى انهم دخلوا مدينة حلب .. فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك ... وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره ،وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره " (١) .

فابن سعيد هنا موضوعي الى حد بعيد فهو يورد قول ابن حوقل حرفياً رغم ما فيه من ظلم لبلاده ،ثم يلجأ الى واقع الحال وليس الى تنميق البلاغة ويرد عليه مستندا الى الحقيقة التاريخية في صمود الاندلسيين عدة قرون ،ويذكره انه في الوقت الذي كانت فيه ديار المشرق عرضة للغزو وملوكها في تفرق وغفلة عنها كانت الاندلس صامدة متحدة ، وابن سعيد يحرص بحكم نزعته العلمية الامينة على ذكر مصدر يسند اليه اقواله فيشير الى تاريخ ابن حيان . وهو ـ مع تمسكه بالموضوعية ـ يجد في بلاده اموراً كثيرة تستحق الفخر . فمن حيث جمال الطبيعة وحسن المباني يحدثنا قائلا : " منذ خرجت من جزيرة الاندلس وطفت في بر العدوة .. ثم افريقية ... ثم دخلت الديار المصرية ... ثم دخلت الشام ـ لم ار ما يشبه رونق الاندلس في مياهها واشجارها الا مدينة فاس ومدينة دمشق الشام ،وفي حماة مسحة اندلسية ولم ار مايشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع الا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن وبعض اماكن في تونس " (٢)

---

١) ـ النفح ١/١٩٦ ـ ١٩٧

٢) ـ المصدر السابق ١ / ١٩٤

ويشير معتزا الى ثورة الاندلسيين ضد الظلم والانحراف عن الدين : " ... وقد يلج السلطان فى شيء من ذلك (تعطيل الحدود) ولاينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير فى اخبارهم واما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للاعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم .. (١)

ثم يتحدث عن اعتزاز الاندلسيين بشرف العمل : " واما طريقة الفقراء على مذهب اهل المشرق فى الدروشة التى تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب فى الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية ، واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه واهانوه " (٢) فهو يفخر بحب اهل بلده للعمل ونبذهم للخمول الجالب للضعة غامزا من قناة المشارقة .

ويقول : " واهل الاندلس اشد خلق الله اعتناء بنظافة مايلبسون ومايفرشون ... " ثم يتحدث عن كرم الاندلسيين معللا سبب نسبة البخل اليهم مشيرا الى ان لديهم من المروءات مايدهش حاتم الطائى نفسه وهو فخر العرب فى الكرم، يقول : وهم اهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى ايديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه ... (٣) .

---

١) ـ النفح ٣/٢٠٤ ـ ٢٠٥
٢) ـ المصدر السابق ٣/٢٠٥
٣) ـ المصدر السابق ١/٢٠٨

فهو لايخجل من ذكر نسبة البخل اليهم ، وان كان يعلل ذلك بمايستدعى الفخر من تدبير واحتياط ، ثم يرفع الكرم الاندلسي الى مصاف الكرم الحاتمي الذى سمع المشارقة يتشدقون به دون شك .

ومن ناحية اخرى نجده معجبا بشعر الاندلس لا يقدم عليه شعر المشارقة لافى القديم ، ولا فى الحديث ، ويرى ان الشعر المغربي حق له ان يعلو فوق النجوم لما يتضمنه من معان رقاق ودقاق (١) ونراه فى مجلس الملك الناصر يسمع الملك يعلق على شعر " الذويبيات " العراقي المشرقي بقوله :

" هذا طراز لا تحسنه المغاربة " فيجيبه ابن سعيد على الفور شعورا منه بشخصيته الاندلسية المغربية : " ياخوند (يامولاى) كما ان الموشحات والازجال طراز لاتحسنه المشارقة ، والمحاسن قد قسمها الله تعالى على البلاد والعباد " (٢) جواب صريح يقوله ابن سعيد لملك فى مجلسه بالرغم مما عرف عنه من مجاملة خصوصا فى مخاطبته للملوك والامراء ... وما ذلك الا رغبة منه فى ان لاينكر فضل بلاده ويخفى .

ونلاحظ ان تفضيله لاقطار المشرق بعضها على بعض خاضع لنزعته المغربية ، فلقد اعجب ابن سعيد بالشام اشد اعجاب - شأنه شأن الاندلسيين رضاع المجد الاموى - وتجد هذا الاعجاب فى شعره وفى كتاباته فى حين انه لايعجب بمصر من نواح عمرانية وبشرية .

---

١) - انظر الفصل الخاص بنقده من هذا البحث

٢) - المقتطف ٣٩

والواقع ان اعجابه بالشام ما هو الا تعبير عن نزعته تلك كما ذكرت فحمص هى اشبيلية ودمشق هى غرناطة : المدن متشابهة والتقاليد متقاربة والامجاد الاموية مشتركة • ولكن كون دمشق هى الاصل وغرناطة هى الفرع لايمنع ابن سعيد من تفضيل مسقط رأسه الاندلسي على دمشق رغم اعجابه الشديد بالاخيرة ،اذ نراه يقول : " انها (اى غرناطة) وان سميت دمشق الاندلس احسن من دمشق لان مدينتها مطلة على بسيطها (١) ••••

وهكذا نجد ابن سعيد يفتخر باندلسه فى توسط واعتدال ـ كما يفعل فى كافة مناحي حياته ـ فيعترف بما فيها من نقائص ويشير الى ما فيها من فضائل ويفعل الشيء ذاته مع المشرق ••• الا ان شعوره الواضح القوى فى هذه الناحية ان الاندلس تقف فى شعرها وتاريخها ومحاسن اهلها وعمرانها شامخة متعالية فى مصاف ارقى اقطار المشرق وان لم تفقها فى بعض الامور •

٧ ـ هل من نزعة مذهبية خاصة ؟

لاحظنا ان ابن سعيد كان مالكى المذهب ـ كغالبية اهل الاندلس ـ كما اشار الى ذلك ابن فرحون فى ديباجه المذهب ، الذى هو من المصادر الموثوقة فى تاريخ المذهب المالكى فى المغرب • وليس مايدعو الى التشكيك فى انتمائه للمالكية اصلا • الا ان هنالك بعض القضايا التى قد يستدل منها على احتمال وجود ميل شيعى اوحب خاص للعلويين فى نفسه :

---

١) ـ المغرب ٢ / ١٠٣

اولا - قضية انتسابه الى عمار بن ياسر الذى كان من كبار المتشيعين لعلى ، والذى قتل على يد بنى امية تحت لوائه وقد سحبت هذه القضية ظلالها الدموية على تاريخ الاسرة فى الاندلس اذ وقف عبدالله بن سعد بن عمار ، اول من دخل منهم الاندلس ، ضد الداخل الاموى رغم ان عبدالله كان قائد جند دمشق الذى عرف بولائه الشديد للامويين . وادى هذا الموقف الى قتل عبدالله على يد الداخل " لما بين بنى عمار وبنى امية من الثأر " (١) ،

ثانيا - الف ابن سعيد كتابا خاصا باسم " كنوز المطالب فى آل ابى طالب" وهذا الكتاب لم يصل الينا ولكن لا شبهة فى وجوده فقد رآه رحالة مغربى فى القرن الثامن هو التجانى ، ونقل منه ترجمة احد الطالبيين وهو الشريف محمد الحسينى التاجورى .

ولا يمكن الحكم على الغرض من الكتاب وعلى الطابع المميز له الا بعد الاطلاع عليه . الا ان الملاحظ ان ابن سعيد فى ترجمة الطالبى المذكور اظهر مكانته وكرمه واشار الى بعض كراماته وذكر انه التقى به شخصيا وتحدث معه ثم اورد له ابياتا من ضمنها :

السنا بنى بنت النبى وعمه ... وفى الذروة العلياء من آل غالب
ليوث ولكن لاتصاد بحيلة ... سيوف ولكن لاتدين لضارب (٢)

---

١) - النفح ٣/٩٦

٢) - رحلة التجانى ص ٣٠٨ - ٣٠٩

والذى يلفت النظر فى امر هذا الكتاب انه خارج عن نمط مؤلفات ابن سعيد عامة فهو ليس كتابا فى الشعر اوالادب.. وليس بكتاب جغرافى فما عساه ان يكون ؟

اهو كتاب فى شعر الطالبيين وغرضه ادبى خالص ، ام ان له غرضا يتعلق بميل مذهبى خاص؟ ان عنوانه على اى حال لايشير الى الاحتمال الاول اذ يبدو انه كتاب يترجم للطالبيين ويبين اخلاقهم ويذكر اخبارهم وقد يورد بعض اشعارهم ان وجدت كما فى المثال السابق.

ماعدا ذلك لاتوجد اشارات اخرى يمكن ان تلقى الضوء على هذه الناحية ، وهناك اشارة تنفى وجود نزعة تشيع قوية عنده على الاقل : فعندما ترجم لشميم الحلى ، وهو من " اعلام فقهاء الشيعة بالحلة واهل الفتيا والاقراء عندهم " لم يظهر من حديثه عنه انه يظهر ميلا وتقديرا ازاءه بل على العكس من ذلك نراه يقول عنه " جملة امر هذا الرجل ان ذكره فوق شعره فعلى كثرته لم اقف له على مافيه اغراب ولا ابداع " ، ثم يجارى ياقوتا الحموى فى وصفه له بانه " كثير الدعاوى ، خارج عن نمط الانصاف والاعتراف " ثم يورد بعض الحكايات المضحكة عنه " (١) .

---

١) ـ الغصون ٥ ـ ١١

وايا كان الامر ،فليس بمستبعد ان يُكنّ ابن سعيد حبا للعلويين وفاء لذكرى جده الاكبر عمار ، الا ان نفسية ابن سعيد ليس من طبعها ان تتطرف في ميولها وتعصب وان كان ثمة ميل فهو ميل معتدل رزين كميول ابى الحسن الاخرى . وحتى لو وجد ميل كهذا فليس من ادنى احتمال في امكانية تأثر مصنفاته الادبية به اذ لامجال من حيث مادة تلك المصنفات للتأثر بميل كهذا . كما ان الموضوعية التي عرف بها ليس من شأنها ان تسمح بذلك ،ثم انه لاتوجد اية اشارات في تلك المصنفات توحي بشيء من هذا في كثير او قليل .

× × ×

تلك هي شخصية ابن سعيد في عوامل تكوينها وفي مظاهرها ومزاياها وميولها . وقد اتضح كيف ان الاعتدال والاتزان وهدوء الطبع كان خطا واضحا في كل ماتم التعرض له من مظاهر شخصيته . وعلى العموم فان هذا التركيب النفسي لم يكشف حدة في الذهن اوخصبا في الخيال اواتقادا في الشعور وهي خصائص ضرورية - منفردة اومجتمعة - لكل عمل خلاق عظيم . وعليه فليس من المتوقع من ابن سعيد - على ضوء هذا التحليل لشخصيته - ان يأتي بنتاج يتجاوز حد " التوسط " على صعيد الفكر اوالادب او التصنيف .

الفصل الثالث
علمه ومصنفاته ومنهجه

١ ـ حدود علمه واتجاهاته

٢ ـ اساتذته

٣ ـ مؤلفاته

٤ ـ منهجه فى التأليف : طابعه وخصائصه

٥ ـ اهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

(١) حدود علمه واتجاهاته

سأل ابن سعيد يوما استاذه الاعلم البطليوسى النصيحة العلمية ، فاجابه : " ان كان غرضك اقراء الادب والاشتهار بكتبه فعليك بأركان الادب الاربعة " البيان " للجاحظ ، و "الكامل" للمبرد ، و " الامالى " للقالى و " الزهر " للحصرى وان كان غرضك ان تكون اديبا محاضرا بملح الآداب فعليك من النثر والنظم والحكاية بما قصر مداه وراق لفظه واغرب معناه "(١) . ولا ندرى بم اجاب ابن سعيد استاذه فى ذلك الوقت ، ولكنه يذكر فى مناسبات اخرى انه قرا على استاذه الشلوبينى النحوى كتاب "الكامل" للمبرد ، و " ديوان ابى الطيب "(٢) ، كما قرا على ابى بكر بن هشام كتاب "الذخيرة "(٣) .

ويبدو انه ليس ثمة فصل تام بين الاختيارين اللذين ذكرهما له استاذه الاعلم ، فالغرض الثانى لا يتحقق دون اهتمام بالغرض الاول واستفادة من كتب الاصول المذكورة ، كما ان الذى يريد التخصص فى اقراء الادب يحتاج الى المام بشيء مجمل من النثر والنظم والحكاية قبل ان يتمكن من التركيز والتعمق . الا ان الفارق - طبعا - يظل متعلقا بالميل الشخصى : فهل يركز الدارس اهتمامه على الناحية النحوية واللغوية والبلاغية ليتوسع فيها ثم يدرسها للطلبة ، ام يلتفت الى الناحية الروائية الشعرية الجميلة ، والخبر التاريخى الطريف ، والعبارة الادبية الانيقة ، والحكاية

---

١) المقتطف ، ورقة ٨٠ (نسخة مصورة)
٢) القدح : ١٥٢
٣) المقتطف ، ورقة ٨٠

المشوقة . وفيما يختص بابن سعيد ، ليس ثمة من شك ـ كما سنرى بعد قليل ـ انه اطلع على كثير من الاصول الادبية والتفت الى اللغة والنحو غير ان صفة "الاديب المحاضر بملح الآداب" تغلبت في خلق شخصيته العلمية وبلورتها على صفة الشيخ النحوي المقرئ لكتب الادب" ، واذ لا توجد اية اشارة تدل على ان ابن سعيد كان يقرئ كتب الادب او انه فكر بذلك . كما انه لم يؤلف ـ طبقا لجميع مصادري المتوفرة ـ اي كتاب لغوي او نحوي او بلاغي او له صلة بشروح الشعر والبحث في اصوله ... في حين تجده في كل مجلس يحضره "اديبا محاضرا" بالقطع الشعرية والاخبار والحكايات ، حتى اثناء اجتماعه بالملوك . فها هو يحدثنا عن لقاء له مع السلطان يوسف الناصر الايوبي صلحب حلب: "وجعلت احاضر بمجلسه بما انتقيته مما جمعته من ذلك ، وهو مع الساعات يسطني بارتياحه ..." (١). وهو عندما يجتمع بالعلماء لا يسألهم عن احجية نحوية او لغوية بل يهتم برواية شعرية غزلية او بحكاية طريفة ، فتراه عندما يجتمع ـ مع والده ـ بكاتب ووزير من اشبيلية كأبي بكر بن البناء يطلب منه ان ينشده شيئا من غزله ، حتى ان والده يؤنبه على ذلك (٢) وفي مناسبة اخرى تتيح له الفرصة حضور مجلس عالم مرسية عزيز بن خطاب ، فلا تبقى من رغبة في نفسه بعد المقابلة الا طلب الاستماع الى شيء من شعره وقد حالت هيبة المجلس دونه ودون التصريح بذلك الطلب (٣).

---

١) المقتطف : ١ - ٢
٢) القدح : ١١٩
٣) المصدر السابق : ١٤٩

ويلاحظ ان علاقاته بجميع من ترجم لهم فى كتابه " القدح " تدور حول مثل تلك الجلسات الادبية التى تروى فيها الاشعار والحكايات والروايات المتعة ،والتى هى اقرب الى جلسات الاصدقاء والندماء منها الى مجالس الجدل والاقراء والشرح .

وهكذا نجد ان صفة الاديب المحاضر بملح الآداب تغلب على ابن سعيد حتى انه فى مصنفيه الادبيين - التاريخيين - الجغرافيين الكبيرين "المغرب" و " المشرق" كان يشعر انه يقوم بمهمة الاديب المجالس والنديم المحاضر . فقد سأله السلطان الناصر يوما عن منهجه فى الكتابين ،فذكر له المنهج ثم اشار الى الغرض النهائى منه قائلا : "انه متى ذكر بلد ابتدى فيه بالحلى البلادية مما هو داخل فى علم الجغرافيا ، فترسم صورته ثم يذكر حيوانه ومعدنه ومما يتركب من ذلك الى ما يتعلق بوصف الانهار والمنتزهات مما تتحلى به المحاضرة . ثم يعقب ذلك بالحلى العبادية فيذكر اول من حل بذلك البلد ،ويؤتى بتاريخه على النسق الى الوقت الذى صنف فيه الكتاب .. ويذكر من ارباب رياسته السيفية والقلمية ومن انضاف الى ذلك من الاعلام فى فنون الجد والهزل ما يمتع الجليس بنكت النثر والنظم والحكايات ويعمر المجلس النبيل "(١) وليس لنا ان نستنتج ان اسرة بنى سعيد تضافرت على تأليف كتاب " المغرب" مدة قرن ونيف لمجرد " امتاع الجليس " ، فثمة اغراض ابعد من ذلك ،ولكن عبارة ابن سعيد هنا تكشف ميله الشخصى اذ يرى ان تلك المعلومات من جغرافية وتاريخية وادبية تهدف الى تحلية المحاضرة وامتاع الجليس واحياء الجلسة . والواقع ان هذه العبارة بالذات تتضمن البذور التكوينية لاتجاهات علم ابن سعيد

---

١) المقتطف ،ورقة : ١-٢

كله • فهو قد اخذ على عاتقه ـ بتوجيه والده ـ اكمال كتابى " المغرب " و " المشرق " حسب الخطة التى اشار اليها فى العبارة السابقة • وهذه الخطة تتطلب منه الماما بعلوم ثلاثة : الجغرافيا والتاريخ والادب • وفى هذه المجارى الثلاثة انصبت جهود ابن سعيد التصنيفية على درجات متفاوتة من التركيز والتوسع والاهتمام ، وضمن ميل ابن سعيد الادبى الذى طبع جهوده بالصبغة الادبية بصفة عامة • وهكذا فانه لم يدع ميله لدور الاديب المهتم بملح الآداب يقف به عند حد حفظ اخبار وحكايات من كتب الادب المعروفة ، بل انه توسع فى مطالعاته ونوع فيها وبحث بنفسه عن كثير من الحقائق الجغرافية والتاريخية والمعلومات الادبية من خلال مشاهداته واتصالاته حتى استقامت له شخصيته العلمية المتكاملة ، وحتى غدا مرجعا يستند اليه كبار المصنفين من بعده •

والواقع انه ليس من المبالغة ان يقال ان كتاب "المغرب" كان مدرسة ابن سعيد الكبرى ، وان هذا الكتاب اساسا هو الذى حدد له حدود علمه واتجاهاته • يقول ابن سعيد محددا علاقته بهذا الكتاب مبينا دوره فيه وفى تأمه كتاب "المشرق" : " كان والدى قد جمع المغرب فى حلل المغرب ، والمشرق فى حلى المشرق • وجل جهدى فى تكميل هذين الكتابين على ما رسم لى " (١) اما ما رسمه له والده فتبين من حديثه السابق للملك الناصر ، هذا الحديث الذى اتضح منه اتجاه ابن سعيد نحو الجغرافية والتاريخ باعتبارهما رافدين يصبان فى مجرى اهتمامه الادبى الاوسع •

وعندما يقال كتاب "المغرب" ، فان التراث العلمى لأسرة بنى سعيد معنى بذلك • واذا كان ابن سعيد قد اتم كتاب المغرب

---

١) المقتطف ، ورقة : ١-٢

وكان خاتمة مؤلفاته ، فانه ايضا كان الخاتمة الطبيعية والمصب الجامع لذلك التراث العلمى الخصب المتنوع . فالمتامل لتراث الاسرة يرى ان تلك الاتجاهات الثلاثة ـ من ادب وتاريخ وجغرافية ـ كانت تبرز منفردة بين حين وآخر : فالجارى ، كاتب عبدالملك بن سعيد ، وضع جذور الاهتمام بالجغرافيا بطريقة تاليفه لكتاب المسهب (١) ، والشاعر ابو جعفر بن سعيد ، عم والد ابن سعيد ، مثل الاتجاه الادبى الخالص وحاول ان يطبع كتاب "المغرب" بطابعه . ثم جاء موسى ، والد ابن سعيد نفسه ، فمثل الاتجاه التاريخى ـ العلمى حتى ان ولده وصفه ـ كما تقدم ـ بانه اعلم بنى سعيد بالتاريخ . وعندما جاء ابن سعيد وناطت به الظروف اخراج الكتاب بصيغته النهائية جمع بين الاتجاهات الثلاثة فى شخصيته العلمية الخصبة .

ولقد تنبه ابن سعيد ـ بفضل ارشاد والده ـ الى مهمته تلك وهو لما يتجاوز العشرين من عمره ، عندما كان يصحب والده لزيارة الخزائن العلمية ومقابلة اهل الادب والعلم . ولذلك استطاع ان يوجه جهوده منذ الصغر نحو ذلك الهدف الذى حددته خطة كتاب المغرب فجاء كل نشاطه العلمى ـ على تنوعه وتعدده ـ منسجما مع تلك الخطة مخصبا لها ومغنيا .. حتى انه ليس من المبالغة ان يقال ان مؤلفاته الاخرى ـ على تنوعها وتعددها ايضا ـ ما هى الافروع لتلك الموسوعة الكبيرة التى يمثلها "المغرب" و"المشرق" .

ويمكن رصد مظاهر تعلمه وبحثه عن مادته العلمية ضمن المراحل والحالات التالية :

---

١) النفح ٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥

١ - حضوره الدؤوب لمجالس الاقراء فى مساجد اشبيلية ومعاهدها تحت اشراف كبار الاساتذة كالنحوى الكبير الشلوبينى والدباج والاعلم البطليوسى (وسأتحدث عنهم وعن غيرهم من اساتذته بعد قليل) . وكان يداوم على ذلك عندما كان بين سن الخامسة عشرة والعشرين .

٢ - مرافقته المستمرة لوالده فى جلساتهما الخاصة والعامة منذ بلغ الحلم . (فقد رافق والده - كما تقدم - فى رحلة الى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدى العادل ، وهو حدث لم يتجاوز الرابعة عشرة) . وقد تحدثت عن علاقته بوالده عند الحديث عن شخصيته ، كما سأتوسع فى البحث عن علاقاتهما العلمية عندما اتحدث عن والده باعتباره استاذا من اساتذته .

٣ - جلساته مع اصدقائه التى لاتخلو من فوائد ادبية وخصوصا فيما يتعلق بالرواية الشعرية . وقد استمرت هذه الجلسات منذ ان كان شابا يافعا يلتقى بابن سهل والصابونى فى اشبيليه حتى غدا رجلا وكهلا يجتمع بكبار رجالات العالم الاسلامى فى القاهرة ودمشق وحلب وبغداد . ويندر ان يذكر ابن سعيد جلسة من هذه الجلسات دون ان يشفع ذكره لها بفائدة ادبية شعرية ، على ان بعض هذه الجلسات يسهم فى تفتيح القرائح لانتاج شعر جديد . فها هو يجتمع بابى العباس احمد بن بلال فى الجزيرة الخضراء ويمر عليهما " يوم انس سمح به الزمان فكمله .. " فيتبادلان القصائد حول ذكره ووصف ملذاته (١) وفى تونس يدعوه ابو العباس الغسانى كاتب الامارة الحفصية ، الى جلسة انس فى احد بساتينه فيتشاركان مع ابن يامن الشاطبى فى نظم قصيدة مشتركة فى وصف الجلسة (٢) ثم يعيدون الكرة ثانية ويخرجون بنتاج جديد (٣) .

---

١) - المغرب ١/٣٢٦ ، وكذلك القدح : ٨٦

٢) - المقتطف ، ورقة ٥٦

٣) - المصدر السابق ورقة ٥٤

وفى القاهرة يجتمع بشعراء العصر فى مصر من امثال البهاء زهير وابى الحسين الجزار وابن ابى الاصبع (١) فتكون نتيجة تلك اللقاءات الجانب الشعرى الهام من القسم المصرى من كتاب " المغرب " . وفى حلب وبغداد والبصرة يحظى ابن سعيد بمثل تلك الجلسات الشخصية المثمرة على الصعيد العلمى شعرا ورواية وتاريخا (٢) . ولعل افضل ما افادت به تلك الجلسات الابحاث العلمية ذلك العدد الجيد من القصائد الذى سجله ابن سعيد عن ابن سهل الاسرائيلى احد كبار شعراء الاندلس قاطبة ، وتلك الاحاديث والحكايات عنه التى تمثل مادة صالحة لدراسة نفسيته .

٤ ـ والى جانب الجلسات الشخصية التى غلب عليها طابع اللهو ، استفاد ابن سعيد من اجتماعاته بالملوك والاعيان والامراء لتحقيق غرضه العلمى وكان الذى يهمه من تلك الاجتماعات ان يتمكن من الاطلاع على الخزائن العلمية والمكتبات النادرة التى تقع فى حوزة اولئك . ففى مرسية يداوم على حضور مجلس عزيز بن خطاب حتى يصير " فيمن انتفع بكتبه " (٣) وفى القاهرة يجتمع بالبهاء زهير اجتماع لهو ومؤانسة ولا يكتفى بذلك بل يواعده على زيارته فى بيته ، ويصل " الى ميعاده " فوجدته بخزانة كتبه ، فكان اول خزانة ملوكية رايتها لانها تحتوى على خمسة الاف سفر ونيف"(٤) وفى حلب يشرح للسلطان الناصر هدفه العلمى ويطلب مساعدته ، فيجيبه : " نعينك بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد .... وتصنف لنا ... " (٥) وسار وزراء الناصر على هدى سلطانهم فى مساعدة ابن سعيد فهذا مؤيد الدين بن القبطى يسمح له بالاطلاع ، بل توليه الوزارة على خزانة (له) فيها نيف على عشرة الاف مجلد فكنت انتفع بها ... فلما مات اخوه وولى الوزارة جئت مهنئا له .. فقال .. الخزانة التى كنت تطالعها لها خزانة اخرى وهى المختصة وقد ابحثها لك فقلت ما هذه الزيادة قال : بقدر ما زادنا الله من نعمة .."(٦) .

---

١) ـ النفح ٣/٣٦ ـ ٣٧
٢) ـ انظر بصدد هذه الجلسات : النفح ٣/٤٠ ؛ المقتطف ٥٤ ، ٥٥ ؛ القدح : ٥٦ ، ٧٢ ـ ٨٥ ـ ١٦٨
٣) ـ القدح ١٤٦
٤) ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ورقة ١٠٤ (مخطوطة دار الكتب المصرية)
٥) ـ النفح ٣/٤٠
٦) ـ المقتطف ورقة : ٢٩

٥ ـ وتعتبر مشاهداته الحية واختباراته العملية مصدرا اساسيا هاما من مصادر معلوماته سواء كان ذلك مايتعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم اووصفه للبلدان التي زارها . وكان ابن سعيد حريصا على تقييد مشاهداته وانطباعاته التي كان يكونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة . وسنأتي الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن خصائص منهجه .

والخلاصة ،فيما يتعلق بعلم ابن سعيد انه كان يميل شخصيا الى صفة الاديب الرواية لملح الاداب وان الصبغة الادبية طبعت نتاجه بطابعها الا ان جواسرته العلمي ،والمهمة العلمية التي انيطت به في كمال " المغرب " و " المشرق " والرحلات العلمية الخصبة التي قام بها ، كل ذلك اسهم في توسيع حدود علمه وتنويعه حتى شمل ـ بالاضافة الى الادب ـ الجغرافيا والتاريخ .

٢ ـ اساتذته

١ ـ والده موسى بن محمد بن سعيد (ـ ٦٤٠) :

عند الحديث عن اساتذة ابن سعيد لابد من الابتداء بابيه موسى . فعلاقته العلمية به لم تقتصر على التوجيه والارشاد فحسب ، بل انه كان استاذا له بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة . وقد سبق الحديث عنه في القسم الخاص ببيئة ابن سعيد العائلية وسيتركز التعريف هنا على صبغته العلمية الخالصة . وصفه ابنه بانه اكثر بني سعيد علما وادراهم بعلم التاريخ خاصة (١) ويعتبر موسى احد المؤلفين الرئيسيين لكتاب " المغرب " ولعله هو اول من فكر في تصنيف مماثل مشرقي لذلك الكتاب وهو كتاب " المشرق " بل يبدو انه باشر في جمع المادة المتعلقة بهذا الكتاب الثاني (٢) وبالاضافة الى ذلك يبدو ان له جهودا خاصة في حقل التصنيف اذ نرى ولده ابن سعيد ينقل في كتبه عما يسميه " معجم والدي " (٣) والارجح انه مصنف في تراجم الادباء والعلماء .

---

١) ـ المغرب ٢ / ١٧٠
٢) ـ المقتطف ورقة : ١ ـ ٣
٣) ـ الغصون ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠

٥ ـ وتعتبر مشاهداته الحية واختباراته العملية مصدرا اساسيا هاما من مصادر معلوماته سواء كان ذلك مايتعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم اووصفه للبلدان التي زارها . وكان ابن سعيد حريصا على تقييد مشاهداته وانطباعاته التي كان يكونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة . وسنأتي الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن خصائص منهجه .

والخلاصة ،فيما يتعلق بعلم ابن سعيد انه كان يميل شخصيا الى صفة الاديب الرواية لملح الاداب وان الصبغة الادبية طبعت نتاجه بطابعها الا ان جواسرته العلمي ،والمهمة العلمية التي انيطت به في كمال " المغرب " و " المشرق " والرحلات العلمية الخصبة التي قام بها ، كل ذلك اسهم في توسيع حدود علمه وتنويعه حتى شمل ـ بالاضافة الى الادب ـ الجغرافيا والتاريخ .

٢ ـ اساتذته

١ ـ والده موسى بن محمد بن سعيد (ـ ٦٤٠) :

عند الحديث عن اساتذة ابن سعيد لابد من الابتداء بابيه موسى . فعلاقته العلمية به لم تقتصر على التوجيه والارشاد فحسب ، بل انه كان استاذا له بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة . وقد سبق الحديث عنه في القسم الخاص ببيئة ابن سعيد العائلية وسيتركز التعريف هنا على صبغته العلمية الخالصة . وصفه ابنه بانه اكثر بني سعيد علما وادراهم بعلم التاريخ خاصة (١) ويعتبر موسى احد المؤلفين الرئيسيين لكتاب " المغرب " ولعله هو اول من فكر في تصنيف مماثل مشرقي لذلك الكتاب وهو كتاب " المشرق " بل يبدو انه باشر في جمع المادة المتعلقة بهذا الكتاب الثاني (٢) وبالاضافة الى ذلك يبدو ان له جهودا خاصة في حقل التصنيف اذ نرى ولده ابن سعيد ينقل في كتبه عما يسميه " معجم والدي " (٣) والارجح انه مصنف في تراجم الادباء والعلماء .

---

١) ـ المغرب ٢/ ١٧٠
٢) ـ المقتطف ورقة : ١ ـ ٣
٣) ـ الغصون ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠

وثمة كتاب آخر يذكره ابن سعيد [illegible] " فى تذييله على رسالة ابن حزم فى فضائل الاندلس ، ويدخله ضمن " ماجاء منثورا من فنون الادب " وهو كتاب " واجب الادب : لوالدى موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغنى عن المراد به ".

ولموسى نظم يميل الى الحث على العلم والوعظ الخلقى ، وقد ترك لولده وصية منظومة ومنثورة تتضمن نصائح علمية واجتماعية وخلقية وقد تمت الاشارة اليها . ويمكن اجمال العلاقـــة العلمية الوطيدة بين ابن سعيد وابيه موسى فيما يلى :

١) — [illegible] رسم له الى حد كبير خطة كتابى المغرب والمشرق وناط به مهمة اكمالهما .
٢) — اطلعه على سائر السجلات العلمية الموجودة لدى اسرة بنى سعيد واورثه اياها سواء كانت من مؤلفاته هو او تعود لمن سبقه .
٣) — صحبه فى كثير من رحلاته ولقاءاته العلمية واتاح له فرصة الاستماع لكبار علماء الاندلس(١)
٤) — كان مثالا حيا امامه لتقدير العلم واحترام الجهد العلمى والتمسك بالهدف .
٥) — كان ينتهز الفرص والمناسبات لتبصير ابنه بطائع الناس والاشياء (٢) .
٦) — لم يكتف بهذا كله بل سجل له نصائحه فى وصية جامعة ليسير على هديها بعد مماته .

٢ — ابوبحيى ابو بكر بن هشام القرطبى (— ٦٤٠) (٣) :

من اعلام النثر البارزين فى عصر ابن سعيد . كتب [illegible] لولاة قرطبة كابى العلاء المامون الموحدى والبياسى الثائر ضد الموحدين بها . وبعد مقتل الاخير هرب الى اشبيليه واخذ يطلب العفو من المأمون حتى عفا عنه واعاده الى منصب الكتابة . والى جانب فنه النثرى الذى اشتهر بانه " سهل الطريقة " له اشعار وموشحات . وقد عرف بانه حسن المعشر ، لطيف المحاضرة ذكر ابن سعيد انه انتفع بكتبه وادبه ومحاضرته ، كما قرأ عليه اصلا من الاصول الهامة فى تاريخ الادب الاندلسى الا وهو كتاب " الذخيرة " لابن بسام (٤) ويرى ان هناك شبها فى الخطوط العامة بين المغرب والذخيرة من حيث التقسيم الجغرافى .

---

١) — راجع الفصل الخاص بتاريخ حياته .
٢) — راجع الفصل الخاص بشخصيته .
٣) — راجع ترجمته فى القدح ٨٩ ، المغرب ١/ ٧٤ ، تحفة القادم ١٥٩
٤) — المقتطف ورقة : ٨٠

٣ - الاعلم البطليوسي (- ٦٤٢) (١) :

هو ابن اسحاق ابراهيم بن قاسم . ولقبه عائد الى مسقط رأسه بطليوس . تخرج في اشبيليه واشتهر باقراء كتب الادب وله شروح في كتابي " الكامل " للمبرد ، و"الامالي" للقالي كما الف كتابا في آداب اهل بلده بطليوس ،

عرف بصعوبة خلقه وادعائه حتى كان يدعي ان مؤلفاته " لم يخلق الله تعالى مثلها في فنون العرب " (٢) .

يخبرنا ابن سعيد انه اراد ان يقرأ عليه كتاب " الكامل " . ويبدو انه لم يباشر قراءته عليه (اذ يشير في مكان آخر انه قرأ الكتاب المذكور على استاذ غيره هو الشلوبيني) والاعلم هو الذي نصح ابن سعيد ان يختار بين التخصص في اقراء الادب او الاهتمام بملح الاداب ليكون اديبا محاضرا مجالسا . وذكر ابن سعيد انه وقف على " جملة من تصانيفه " . وانه كان يجلس معه ويتحدث فيما حل باشبيلية من محن في ذلك الوقت فيبدي الاعلم يأسا وتشاؤما .

٤ - ابوعلي عمر بن محمد الشلوبيني (- ٦٤٦) (٣) :

هو امام النحو في المغرب عصر ابن سعيد . ينسب الى شلوبينة من حصون غرناطة ، وهو اشبيلي الموطن . كان والده خبازا باشبيليه وتطلع هو نحو العلم واغرم بالنحو منذ صباه حتى برع فيه وصار مرجعا والف فيه المكتب . ومن اشهر مؤلفاته " شرح الجزوليه " . وله شعر يعده ابن سعيد في " نهاية من التخلف " . والى جانب تدريسه للنحو كان من مقرئي كتب " الادب الجليلة ، قائما بمعرفتها وضبطها وروايتها .. " (٤) .

وكان ابن سعيد يشهد مجلسه باشبيليه وقد ازدحم بالبلديين والغرباء من الافاق " وقد قرأ عليه كتاب الكامل " للمبرد " و " ديوان ابي الطيب " وكان الشاعر ابن سهل الاسرائيلي يحضر مع ابن سعيد مجلسه ، فكان الشلوبيني يناظر بينهما فيما ينظمانه .

---

١) - انظر ترجمته في المغرب ١/ ٣٦٩ ؛ القدح ١٥٧ ؛ المقتطف ٧٩ ؛ التكملة ٢٠٧
٢) - القدح ١٥٧
٣) - انظر ترجمته في المغرب ٢/ ١٢٩ ؛ القدح ١٥٢ ؛ المقتطف: ٨٠ ؛ الديباج المذهب ١٨٥ ؛ النفح ١/ ٢٠٦
٤) - القدح ١٥٢

ويبدو ان الشلوبينى كان يتصف بالطيبة والظرف وخفة الروح ، كما كان سريع الغضب من ناحية اخرى. وله حكايات طريفة مع ابن سعيد واترابه كابن سهل والصابونى وقد سجل ابن سعيد كل ذلك فى المغرب والقدح والمقتطف.

٥ — ابو الحسن على بن جابر الدباج الاشبيلى (—٦٤٦) :(١)

جمع بين اقراء الادب والامامة ،فكان الى جانب " منزلته العالية فى الادب " امتن الناس دينا " (٢) حتى ان اهل اشبيلية اختاروه اماما لجامع العدبس الذى كان مركزا مهما من مراكز الثقافة فيها فى ذلك الوقت. وتروى عن الدباج ايضا بعض الاشعار والموشحات.

ذكر ان بن سعيد انه قرأ عليه مدة وروى عنه عدة كتب . ويبدو ان للدباج فضلا فى توجيه ابن سعيد نحو الاهتمام بتذوق الشعر اثناء دراسته لمصنفات الادب. تدل على ذلك الحكاية التالية التى رواها ابن سعيد نفسه : " كنت اقرأ عليه الادب بجامع العدبس فبلغه انى اقرأ على ابى بكر بن هشام .. كتاب الذخيرة واحفظ عليه محاسنها . فقال لى انشدنى ماحفظته من محاسن شعرها . فانشدته . فقال : فأين انت من قول ابن حصن :

وماهاجنى الاابن ورقاء هاتف على فنن بين الجزيرة والنهر

(الى قوله) :

ولما رأى دمعى مراقا ارابه بكائى فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه وصفق طائرا وطار بقلبى حيث طار .. ولا ادرى

---

١) — المقتطف ورقة : ٨٠

٢) — انظر ترجمته فى : عنوان الدراية : ١٨٨ ،وهناك اشارة عنه فى القدح ٩٦ وكذلك فى النفح ١٧٥/٤

فصرت اقرأها عليه " (١)

مما يدل على انه كان يلفت نظره نحو المقطعات الشعرية الجميلة ويوجهه نحـــو تذوقها وحفظها • وسنرى ان لابن سعيد غراما خاصا بامثال هذه القطعة ذات الطابع الغزلي والاسلوب الرقيق والجو الوصفي ، سواء كان ذلك في نقده ام شعره •

٦ ـ ابو الحسن علي المشهور بابن عصفور (ـ٦٦٥؟) (٢) :

لم يترجم له ابن سعيد ضمن من ذكرهم من شيوخه في القدح ولكن لاشبهة فـــي انه تتلمذ عليه اذ تؤكد ذلك مصادرنا المعتمدة كالاحاطة (٣) وديباج ابن فرحـون (٤) كما ان ابن سعيد نفسه عندما يتحدث عن جهود الاندلسيين في النحو يشير تذييله على رسالة ابن حزم ، يشير الى شرح ابن عصفور قائلا : " ... ومنها شرح شيخنا ابي الحسن بن عصفور (٥) "

وقد تمت الاشارة الى ابن عصفور عند الحديث عن حركة النحو في عصر ابن سعيد (٦) وصفه الغبريني في عنوان الدراية بانه فقيه ونحوي لغوي وتاريخي • وهو من اهالي اشبيليـــه ويبدو انه غادر الاندلس في وقت مبكر حيث مر بالغرب الاقصى ثم استوطن بجاية بافريقيـه (تونس) حيث درس بها ثم رحل الى الحاضرة تونس حيث اصبح من خواص الامير الحفصي المستنصر (ـ ٦٧٥) وقد تتلمذ عليه هذا الامير قبل توليه الخلافة سنة ٦٤٧ •

---

١) ـ المقتطف ورقة : ٨٠

٢) ـ انظر ترجمته في : عنوان الدراية ١٨٨ ، وهناك اشارة عنه في القدح ٩٦ ، وكذلك في النفح ٤ / ١٧٥

٣) ـ ابن الخطيب ، الاحاطة : ١٢٠ (نسخة مصورة)

٤) ـ الديباج المذهب ٢٠٩

٥) ـ النفح ٤/ ١٧٥

٦) ـ انظر المقدمة ص ٤٠

ذكر الغبرينى انه توفى فى العقد السابع من القرن السابع ولم يحدد .

ومن تآليفه الشهيرة كتاب " المغرب " فى النحو ، الذى ذكر ابن سعيد انه اطلع عليه (١) . وله ايضا شروح نحوية على " الايضاح " و " الجمل " . كما فسر بعض اجزاء من القرآن ، ووصف الغبرينى منهجه فى التصنيف بانه مسلك " لم سبق اليه من الايراد والاصدار والاعذار بمايتعلق بالالفاظ ثم بالمعانى ثم بايراد الاسئلة الادبية على انحاء مستحسنة " (٢) . وكانت له ايضا مشاركة فى علم المنطق " .. ولاجل ذلك حسن ايراده فى (تآليفه النحوية) تقسيما وحدودا واستعمال الادلة " .. " وكلامه فى جميع تآليفه سهل منسبك " (٣) .

هذا واذا لن يتتلمذ عليه ابن سعيد فى اشبيلية بالذات فثمة احتمال ان يكون قد اتصل به فى تونس او فى بجايه . فابن عصفور كان يدرس ولى العهد المستنصر فى تونس قبل سنة ٦٤٧ وقد اقام قبل تلك الفترة فى بجايه فالاحتمال قوى ان يكون ابن سعيد قد اجتمع به خلال اقامته فى تونس بين سنتى ٦٣٦ ـ ٦٣٩ . وكان عمر ابن سعيد يتراوح عندئذ بين السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين ، وهى سن مازالت مناسبة للدرس والتحصيل .

× × ×

من هذا الغرض لاساتذته واتجاهاتهم العلمية يتبين انهم كانوا اما نحويين يميلون للادب او مقرئى ادب يهتمون بالنحو والتاريخ . وهكذا فان دراسة ابن سعيد للغة والادب كانت مستندة الى اساس متين من حيث التعليم والتوجيه . غير ان الملاحظ انه لايوجد احد من بين اساتذته اشتهر بالتخصص فى الجغرافيا

---

١) ـ النفح ١٧٥/٤

٢) ـ عنوان الدراية : ١٩٠

٣) ـ المصدر السابق ١٨٩ ـ ١٩٠

او الاهتمام بها والميل اليها على الاقل • والارجح ان ابن سعيد اعتمد فى تكوين ثقافته الجغرافية على المعلومات الجغرافية الواردة فى مسهب الحجارى وما اضافته اسرة بنى سعيد اليه ، ثم توسع بمطالعته للكتب الجغرافية الكبرى وعلى رأسها كتاب " نزهة المشتاق " للادريسى الذى سنرى ـ عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد ـ ان ابن سعيد يمثل امتدادا لمدرسته الجغرافية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر المبلادى) •

٣ ـ مؤلفاته

هناك كتب لابن سعيد امكن الاطلاع عليها والتعرف عن كثب الى مادتها ومنهجها والغرض منها • وثمة كتب اخرى ورد ذكرها فى مصادر موثوقة ونقلت تلك المصادر عنها نبذا تختلف فى حجمها ومدى دلالتها ولكنها تكفى لاثبات وجود الكتاب ولتبيان موضوعه بصورة عامة وربما اسعفت فى توضيح شىء عن منهجه • واخيرا هنالك كتب لانعرف شيئا عنها غير الاسم وقد تثبت نسبتها لابن سعيد وقد لاتثبت • وعلى هذا الاساس فقد قسمت الحديث عن مصنفات ابن سعيد الى اقسام ثلاثة : اتحدث فى القسم الاول عن الكتب التى اطلعت عليها فاصف مادتها ومنهجها واشير الى غرضها بشىء من التفصيل • واحقق فى القسم الثانى فى الكتب التى وردت نبذ منها او اشارات اليها المصادر الموثوقة اشارة واضحة • اما فى القسم الثالث فسأعدد ماذكرته المصادر من كتب لابن سعيد بقصد اكمال الصورة واستقصاء البحث•

× × ×

" المغرب " و " المشرق " وماتفرع عنهما :

يميل ابن سعيد الى اعتبار كتابى " المغرب " و " المشرق " كتابا واحدا • ففى تذييله على رسالة ابن حزم يذكر ـ فى مجال تعداد مآثر الاندلس ـ انه اكمل " كتاب " فلك الادب المحيط بحلى لسان العرب " المحتوى على كتابى

المشرق فى حلى المشرق " و " المغرب فى حلى المغرب " (١) ففكرة اعتبار الكتابين كتابا واحدا عائدة الى مؤلفهما الاخير ومكملهما على بن سعيد نفسه • ولكن الدكتور زكى محمد حسن محقق القسم المصرى من كتاب " المغرب " يظن ان المستشرق " آنخل بالنثيا " هو صاحب تلك الفكرة حين يقول : " وقد ادى التواشج والصلة الدانية بين " المغرب " و " المشرق " الى ان عدهما المستشرق الاسبانى " آنخل جنذالذبالنثيا " كتابا ادبيا واحدا ينقسم الى قسمين المغرب والمشرق (٢) والواقع ان بالنثيا كان ينقل عن ابن سعيد ويعتمد على النص المذكور حتى انه يورد الاسم الجامع للكتابين كما اورده ابن سعيد (٣) وثمة سبب جوهرى لاعتبار السفرين كتابا واحدا فهما يقومان على المنهج ذاته ويهدفان نحو تحقيق غرض واحد ويكملان بعضهما فى مجال تقديم اطار موسوعى شامل للعالم الاسلامى مغربه ومشرقه •

ولقد قدم ابن سعيد للكتابين معا بخطبة واحدة واشار الى المنهج الواحد الذى اتبعه فى الكتابين ثم قال : " وقد ابتدأت منهما بكتاب **المشرق** " فلم يحملنى التعصب على تاخير ماقدمه الله •• "(٤) " يقصد انه بدأ سفره بالحديث عن المشرق لماحباه الله من فضائل تفوق فضائل المغرب • ونرى فى هذه المقدمة حديثا عاما عن صورة الارض باقاليمها السبعة وبحارها (٥) وكل هذا يدل على ان ابن سعيد يصنف ويرتب على اعتبار انه يؤلف موسوعة واحدة متكاملة غير ان هذه الوحدة النظرية لاتجعل الكتابين متساويين من حيث قيمة مادتهما وترتيبهما التفصيلى ثم ان فكرة " المغرب " اقدم وطريقة تصنيفه تختلف بعض الشىء عن الدور الذى مر به تصنيف المشرق ولذا يكون من الافضل التحدث عن كل كتاب على حدة تسهيلا لخطة البحث •

---

١) ـ النفح ١٧٤/٤
٢) ـ المغرب (قسم مصر) م ١٩
٣) ـ تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤٤
٤) ـ مقدمة المشرق ورقة ٧ (نسخة مصورة)
٥) ـ المصدر السابق ورقة ٩

المغـــــرب :

يرتبط تاريخ كتاب " المغرب " بتاريخ اسرة بنى سعيد منذ عهد عبد الملك بن سعيد (٤٩٦ ـ ٥٦٢) عندما وفد عليه الحجارى فى قلعته بغرناطة والف له كتاب "المسهب فى غرائب المغرب " سنة ٥٣٠ زمن المرابطين (١) . وقد اهتم عبد الملك بالمسهـــب وصير مطالعته ديدنا ثم ثار فى خاطره ان يضيف اليه ما اغفله الحجارى ،ويختصر مالم يوافق غرضه وفيه تطويل غير مفيد " (٢).

فكتاب " المسهب " ـ اذن ـ هو نواة كتاب " المغرب " واذا كان ابنو سعيد منذ ايام جدهم عبد الملك اخذوا يضيفون اليه او يختصرون منه ،فان ذلك لايقلل من اثـره باعتباره المنطلـــق والهيكل العام الذى قام على اساسه الكتاب الموسع الجديد فتاثيـــره قوى واكيد سواء كان مباشرا اوغير مباشر . ومن اسف انا لانعلم الكثير عن كتاب " المسهـب " فقد انصب فى المغرب واندمج به ولم يصـــل الينا كتابا قائما بذاته. ومن هنا تاتـــى صعوبة التمييز بين جهد الحجارى فى التخطيط والتبويب وبين جهود الاسرة السعيدية : غير ان الاشارات التى ذكرها ابن سعيد عن مسهب الحجارى ومكانتـــه بين المصنفـــات الادبيـــة الاندلسية الهامة تكفـــى لاعطاء صورة شبه واضحـة عن دور الحجـــــارى فى وضـــع خطة التصنيف التى بنى عليهـــا المغرب وظهر على اساسها فى صورتـــه الاخيرة.

ينقل المقرى عن ابن سعيد فى خطبة المغرب : " وصنف (الحجارى) ... كتاب " المسهب فى غرائب المغرب " فى نحو ستة اسفار ،وابتدا فيه من فتح الاندلس الـــى التاريخ الذى ابتداه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة .. " (٣) . من هذا النـــص ـ على اقتضابه ـ يمكن استنتاج امور هامة هى ان المسهب خاص بالاندلس وانه يحـــوى

---

١) ـ انظر تاريخ بنى سعيد ص٥٣ ـ ٦٠ من هذا البحث.

٢) ـ مقدمة المشرق ورقة ١ ـ ٦

٣) ـ النفح ٣/ ٩٥

مادة ليست بالقليلة فهو فى ستة اسفار (وان كنا لانعلم حجم هذه الاسفار) ، ثم انه يسير حسب التتابع التاريخـــى منذ فتح الاندلس حتى سنة ٥٣٠ هـ على وجه التحديد . وثمة اشارة اخرى لابن سعيد عن المسهب اكثر اهمية ووضوحا : "·· وكتاب ابى محمد عبدالله بن ابراهيم الحجارى المسمى بـ " المسهب فى فضائل (١) المغرب" صنفه بعد الذخيرة (٢) والقلائد (٣) من اول ماعمرت الاندلس الى عصره ، وخـــص فيه عن مقصد الكتابين الى ذكـــر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا وخلطـــه بالتاريخ وتفنن الادب ··· ولم يصنف فى الاندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنف لـــه عبد الملك بن سعيد ··· (٤) فهذه الاشارة الهامة تبين موقع المسهب من خط التصنيف عند الاندلسيين وكيف انه جاء بعد كتاب " الذخيرة " الذى هو كتاب تراجم ومختارات ادبيـة تخضع لتقسيم مكانى عام حسب اقاليم الاندلس من غرب ووسطة وشرق وبعد كتاب " القلائـــد " الذى هو ايضا كتاب تراجم مسجعة تضم مختارات من الشعر والنثر . وتوحى عبارة ابن سعيد ان المسهب ضم منزع الكتابين فى ايراد التراجم والمختارات ثم خرج عن منهجهما بما ادخله من تبويب جغرافى يتناول " البلاد وضواحيها " فالمسهب اذن كتاب ذو طابع ادبى يخضع لنسق تاريخى ويقوم على تصور جغرافى مفصل ، وهذه الخصائص ذاتها اهم ما يميز كتـــاب " المغرب " وهكذا فان المسهب هو النواة الاصلية المهمة التى سمت " المغرب " بميسمها ، والخطة المبدئية التى سار عليها المؤلفون الخمسة من اسرة بنى سعيد ، تلك الخطة التى ستطاعت ان تستوعب مادة ادبية وتاريخية هائلة وتسبكها فى قالب موحد متماسك . وهذا لايحتم — على اى حال — ان تكون خطة المغرب التفصيلية الدقيقة من وضع الحجارى ولكن الثابت — كما تبين من اشارات ابن سعيد نفسه — ان الخطوط العامة لمنهج " المغرب" كانت موجودة فى المسهب ".

واكمالا لتسلسل الادوار التاريخية فى تأليف المغرب نتم ماقاله ابن سعيد عـــن اضافات عبد الملك الى " المسهب " : " وخلفه (اى عبد الملك) ابناه ابو جعفر الشاعر

---

١) — راينا ابن سعيد فى النص السابق يسميه المسهب فى غرائب المغرب وفى هذا النص يورد " فضائل " بدل " غرائب " .

٢) — هو كتاب " الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة لابى الحسن على بن بسام الشنترينى (٥٤٢) س ٣ هو

٣) — هو كتاب " قلائد العقيان " لابى نصر الفتح محمد بن خاقان (— ٥٢٩ هـ) ٤ هو النفح ٤/١٧٤

٤) — النفح : ٤ / ١٧٤

ومحمد ، واضافا له ما استفاداه ، ولم يزل لهما خزانة ادب يتزايد عمرها الى ان استبد به موسى بن محمد بن عبد الملك (اى والد ابن سعيد) وكان اعلمهم بهذا الشان ، وذكره بالمغرب فى فنون الآداب لا يحتاج الى تنبيه عليه ، فاعتنى به اشد اعتناء واضاف اليه ما طالعه فى الكتب والتقطه من الافواه ." (١) ونعلم ان ابن سعيد تولى امره بعد ابيه واخرجه بصورته النهائية .

اما فيما يختص بخطة المغرب التى ظهر بها ـ وهى خطة المشرق ايضا من الناحية النظرية على الاقل ـ فقد اشار اليها ابن سعيد بتفصيل فى عدة مواضع من مصنفاته ، يقول فى مقدمة كتابه " المشرق " وهو يقدم للكتابين : " كل من التصنيفين مرتب على البلاد متى ذكر بلد ذكرت كوره واتكلم عليه وعلى كل كورة بمكانها من الاقاليم ومن بناها وما يحف بها من نهر او منزه او خاصة نباتية ومعدنية ، ومن تداول عليها من ابناء الملوك اولى التواريخ التى لا يجب اغفالها . ثم ناخذ فى الطبقات واحدة بعد الاخرى ، وهى خمس : طبقة الامراء وطبقة الروساء ، وطبقة العلماء وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف . (والاربع الاولى) مخصوصة بمن له نظم من اولى الخطط المذكورة .. وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من اى صنف كان ، ممن لا يجب اغفاله وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون مثل الاحماض ." (٢)

ويعبر ابن سعيد عن الفكرة ذاتها بطريقة اخرى وبشكل اوجز عندما يصف الكتابين للملك الناصر : " انه متى ذكر بلد ابتدئ فيه بالحلى البلادية مما هو داخل فى علم الجغرافيا فترسم صورته ثم تذكر من حيوانه ونباته ومعدنه وما يتركب من ذلك الى ما يتعلق بوصف الانهار والمنتزهات مما يتحلى به المحاضر . ثم يعقب ذلك بالحلى العبارية فيذكر

---

١) النفح ٣/ ٩٥

٢) مقدمة المشرق ورقة : ٦ـ٧

اول من نزل بذلك البلد ويؤتى بتاريخه على النسق الى الوقت الذى صنف فيه الكتاب. ويذكر من ارباب رياسته السيفية والقلمية ومن انضاف الى ذلك من الاعلام فى فنون الجد والهزل ما يمتع الجليس بنكت النثر والنظم والحكايات ويعمر المجلس النبيل " (١)

فمنهجه اذن دقيق متعدد الحلقات ومترابطها ، فهو يراعى الناحية المكانية فيورد تراجم الرجال واشعارهم حسب مدنهم وكورهم ، ويراعى الناحية الزمنية فيورد التراجم حسب تسلسل الزمن ، ثم هو يراعى الناحية الاجتماعية فيبدا بالملوك والامراء فالاعيان فالعلماء فالشعراء فبعض رجال اشتهروا بناحية جد او هزل معينة ولم يرد لهم نظم . والواقع ان ذلك مجرد ذكر للخطوط العامة فى الكتاب فمنهجه التفصيلى اكثر دقة من ذلك .

ولعل القسم الخاص بالاندلس هو افضل نموذج يمكن التعرف من خلاله الى " المغرب " باعتباره اوفى الاقسام التى وصلتنا واكثرها غنى بالمادة العلمية والشعرية بحكم صلة الكتاب كله بالبيئة الثقافية فى الاندلس : يبدا القسم الاندلسى بالحديث عن الاندلس وصفاتها الجغرافية وفضائلها الثقافية وميزاتها التاريخية وكورها المختلفة باعتبارها اقليما واحدا ذا شخصية مستقلة بارزة. (٢) وبعد هذه المقدمة قسم هذا القسم الاندلسى الى ثلاثة اقسام جديدة ـ وهو يسمى كل قسم جديد كتابا ـ باعتبار الاقاليم الجغرافية الرئيسية التى تتكون فيها الاندلس من غرب وموسطة وشرق . ثم قسم كل اقليم الى " ممالك " الكبرى فقسم منطقة المغرب (البرطبة والشبيلية) وبطليوس وشلب وباجة واشبونة ومالقة . وقسم الموسطة الى اربعة كتب تضم على التوالى ممالك طليطلة وجيان والبيرة والمرية . اما الشرق فقسمه الى ستة كتب جديدة تضم على التوالى ممالك تدمير وبلنسية وطرطوشة والسهلة وجهات الثغر وجزيرة ميورقة .

---

(١) المقتطف ، ورقة ٢ـ٣ من الباب ضمن القسم الاندلسى من كتاب " المغرب " الذى قام بتحقيقه الدكتور شوقى ضيف

(٢) لم ينشر هذا الباب ولكن المقرى يورد نبذا مطولة وهامة منه فى القسم الاول من كتاب "النفح " عند حديثه عن الاندلس انظر النفح ١ / ١٢٤ ـ ٢١٣ ، وخاصة ما بين ١٩٦ ـ ٢٠٩ .

والكتاب يتناول كل "مملكة "على حدة ويقسمها الى قاعدتها (العاصمة) والى مدنها وقراها الاخرى بادئا الحديث عن القاعدة باعتبارها "عروسا " لها ماللعروس من زينة. وهكذا يجرى الحديث عن القاعدة ـ العروس بادئا بمنصتها فتاجها فسلكها فحلتها فاهدابها. والمنصة تختص بالوصف الجغرافى للمدينة بينما يختص التاج بذكر الملوك والذين تعاقبوا على حكمها والسلك برجال الوزارة والقضاء والكتابة والشعر وهؤلاء يقسمون حسب فئاتهم ضمن السلك ، اما الحلة فتترجم لاشخاص يدخلون ضمن الطبقة السابقة ولكن ليس لهم نظم اونثر ، ويلى ذلك اخيرا الاهداب للحديث عن الوشاحين والزجالين واصحاب النوادر. ويلاحظ ان بعض الممالك لها اكثر من قاعدة واحدة كمملكة قرطبة التى لها ثلاث حواضر هى قرطبة والزهراء والزاهرة وهكذا نجد فى هذه المملكة ثلاث "عرائس " لكل عروس منصتها وتاجها وسلكها وحلتها واهدابها (١) ومن الملاحظ ان هذه التقسيمات قد لاتنطبق حرفيا على جميع الحواضر والمدن فقد لانجد الحلة او قد يجىء السلك ناقصا (٢) أما فى المدن التى ليست بحواضر فيوضع لها "بساط " بدل المنصة وفى الاغلب ليس لها حلة او اهداب. وقد يكون هذا عائدا اما لضياع اوراق من الكتاب اولعدم وجود مادة تملأ تلك الابواب اصلا.

وهكذا نجد ان هذا المنهج المتشعب المتنوع يجعل من الصعب تحديد هوية الكتاب على وجه الدقة ـ وان كان فى الوقت ذاته يعطيه سر تفرده واهميته ـ فهل هذا الكتاب كتاب تراجم ؟ ام كتاب جغرافية وتاريخ ؟ ام كتاب نصوص ادبية مختارة؟ ام انه خليط من كل ذلك بحيث لايمكن تحديد الطابع الغالب عليه او الهدف الاخير منه؟ .

الواقع ان كتاب المغرب ابعد مايكون عن الاستطراد والخروج عن الموضوع مدار البحث والاضافات التى تأتى عفو الخاطر . وعليه فان وصفنا له بانه كتاب جغرافية وتاريخ وادب لايعنى انه من قبيل الاصول العربية القديمة ككتب الجاحظ مثلا. ولكن هذا القول لايحدد لنا بالضبط ماهو كتاب "المغرب"؟

ان من يتصفح الكتاب بتمعن يشعر ان الهدف الاخير منه هو تقديم نماذج رائعة للشعر الاندلسى منذ اقدم عصوره حتى الزمن الذى الف فيه ،

---

١) ـ المغرب ١/ ٣٧ ، ١٧٤ ، ١٨٨

٢) ـ المصدر السابق ١/ ٣٦١ ، ٣٨١ ـ ٣٨٧ ، ٤٢٣ ـ ٤٤١

وان ما عدا ذلك من تقسيمات ومعلومات جغرافية وتاريخية منظمة ماهو الا الاطار المكانى والزمانى والبشرى — او الحلى البلادية والحلى العبادية على حد تعبير ابن سعيد — الذى شاء المؤلفون ان يقدموا من خلاله تلك النماذج الشعرية • والواقع ان هذا الشعور — اوبالاحرى الاستنتاج — غير قائم على نوع من التخمين والحدس بقدر ماهوقائم على ملاحظة احصائية لمادة الكتاب • فقد لايذكر الكتاب وصفا جغرافيا للمدينة موضع الحديث ، وقد يختصر ترجمة من يتحدث عنه الى سطر واحد اوربما اكتفى باسمه ولكنه حريص ، الحرص كله ، على ذكر الابيات الشعرية قليلة كانت ام كثيرة وقد يورد اسم شخص ونبذة قصيرة عنه ليقدم لنا بيتا واحدا اوبيتين له •• وذلك كل ماروى عنه • ولهذا السبب نرى ان المادة الشعرية — شعرا وموشحات وزجلا — تفوق فى كميتها المواد الجغرافية والتاريخية على الرغم من ضخامة هذه المواد • الا ان وصفنا للمغرب بانه — فى صفته الاخيرة — كتاب مختارات شعرية لايقلل من الاهمية التاريخية للمواد الاخرى وانما يضعها فى موضعها الصحيح من الكتاب •

واكمالا لهذه الصورة الوصفية للمغرب نذكر ان الكتاب اعتمد على ثلاثة انواع من المصادر : المشاهدة ، والرواية الشفوية ، والكتب الجغرافية والتاريخية والادبية السابقة لتاريخ تاليفه او المعاصرة له ومعظمها من امهات المصادر الاندلسية الهامة • وقد بلغ عدد هذه المصادر خمسة واربعين كتابا فيما يختص بالقسم الاندلسى وحده (١) الذى تضمن ستمائة وسبعا واربعين ترجمة • وسنعود الى التحدث عن مصادر المغرب — وغيره من كتب ابن سعيد — عندما نباشر البحث فى منهجه التصنيفى •

وقد ضم كتاب المغرب فى مجلده وعشرين سفرا : الستة الاولى منها عن مصر ، اما السابع والثامن والتاسع فخاصة بافريقية وبلاد البربر ، على حين اختصت الستة الاخيرة بالاندلس (٢) •

---

١) — انظر القائمة التى استخرجها الدكتور شوقى ضيف لمصادر القسم الاندلسى ، المغرب ٢/٥٦٣

٢) — انظر مقدمة الدكتور زكى محمد حسن لكتاب " المغرب " (القسم المصرى) — ص م ٣٢ •

ويبدو ان ابن سعيد فرغ نهائيا من كتاب المغرب سنة ٦٤٧ هـ • يدل على ذلك ماجاء فى نهاية السفر الخامس عشر منه : " •• كمل جمع كتاب المغرب فى حلى المغرب•• وذلك بخط مكمل تصنيفه على بن سعيد فى مدينة حلب•• للخزانة الصاحبية الكمالية••• بتاريخ سنة سبع واربعين وستماية (١) " كما ان ابن سعيد فى ترجمته الخاصة بالمغرب يذكر انه "عزم على الحج فى هذه السنة ، وهى سنة سبع واربعين وستمائة (٢) ممايدل على انه كان على وشك الانتهاء من الكتاب لكى يتسنى له الرحيل للحج • وبذلك يكون تأليف هذا الكتاب الموسوعى قد استغرق حوالى قرن وخمس قرن (٥٣٠ ـ ٦٤٧) بمساهمة ستة مؤلفين لم يتسرع احد منهم فى اخراجه باسمه فى صورة غير كاملة حتى سنحت الفرصة لاخرهم وهوعلى بن سعيد فاخرجه تاما كاملا بعد ان انهى تجميع اداته الضرورية •

وهذا الكتاب الذى بدأ تأليفه فى اقصى المغرب ـ مع توأمه المشرق ـ الى اميرمشوقى هو الصاحب بن ندى الجزرى والى الجزيرة وهو من الامراء الذين اكرموا ابن سعيد وتعلقوا به (٣) •

وفيما يختص بطبع اجزاء الكتاب بذلت محاولات منذ اواخر القرن التاسع عشر لطبع اقسام منه (٤) حتى قام الدكتور شوقى ضيف بتحقيق القسم الاندلسى والدكتور زكى محمد حسن بتحقيق كتاب من القسم المصرى هوكتاب "الاغتباط فى حلى مدينة القسطاط وهو يضم نقولا تاريخية هامة عن الدولتين الطولونية والاخشيدية بالاضافة الى تراجم مصرية عديدة من بينها شعراء مصر المشهورين الذين التقى بهم ابن سعيد •

---

١) ـ المغرب (قسم مصر) ٣٢ •

٢) ـ المصدر السابق ٢ / ١٧٣

٣) ـ انظر ترجمة الجزرى (ـ ٦٥١) فى الوافى بالوفيات للصفدى ح ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٥ ، وقد اشار الصفدى الى اتصال ابن سعيد به واهدائه الكتابين كما اشار الى هذا الاهداء حاجى خليفة فى كشف الظنون رقم ١٢٤٦٨ • هذا وقد اشار ابن سعيد نفسه الى علاقته بمحى الدين الجزرى : انظر المقتطف ورقة ٧١ •

٤) ـ طبع الكتاب المشتمل على سيرة احمد بن طولون مع مقدمة بالالمانية لكارل فولرس فى ليدن ١٨٨٩ كما طبع فى ليدن الكتاب الخاص باخبار الفسطاط والدولة الاخشيدية ١٨٩٩ ، وهذان الكتابان اعيدا طبعهما ضمن كتاب " الاغتباط " الذى حققه الدكتور زكى حسن • وبالاضافة الى ذلك طبقت قطعة من المغرب عن صقلية نشرها الدكتور مورتس ضمن كتاب العيد المئوى لميلاد ميشيل اماري ، وقد صدر الكتاب فى بالرم سنة ١٩١٠ (انظر تاريخ اداب اللغة العربية لزيدان ٣/ ٢٠٨ ، وكذلك معجم سركيس ١/ ١١٩) •

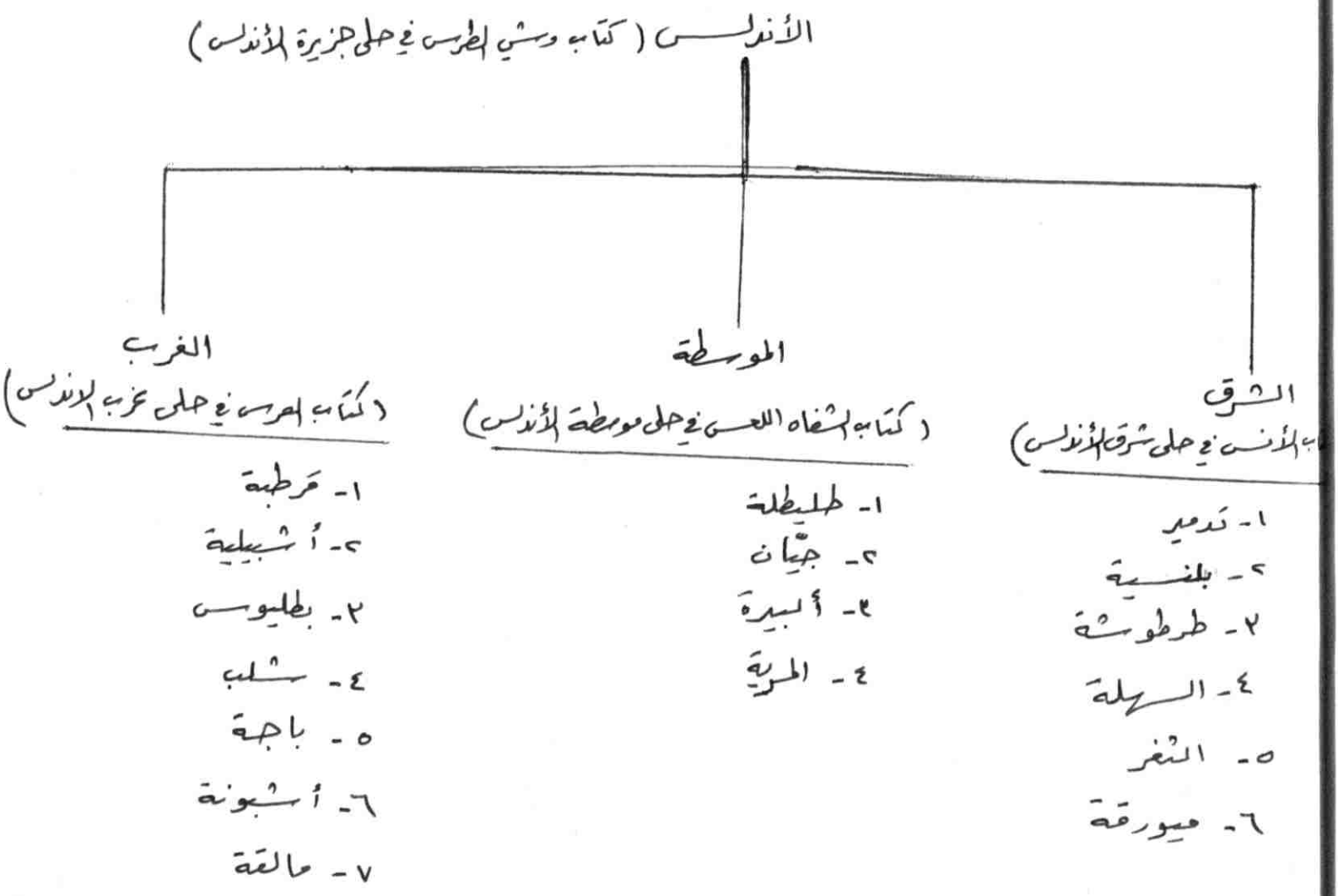

رسم بياني يبين الخطة العامة لكتاب "المغرب"

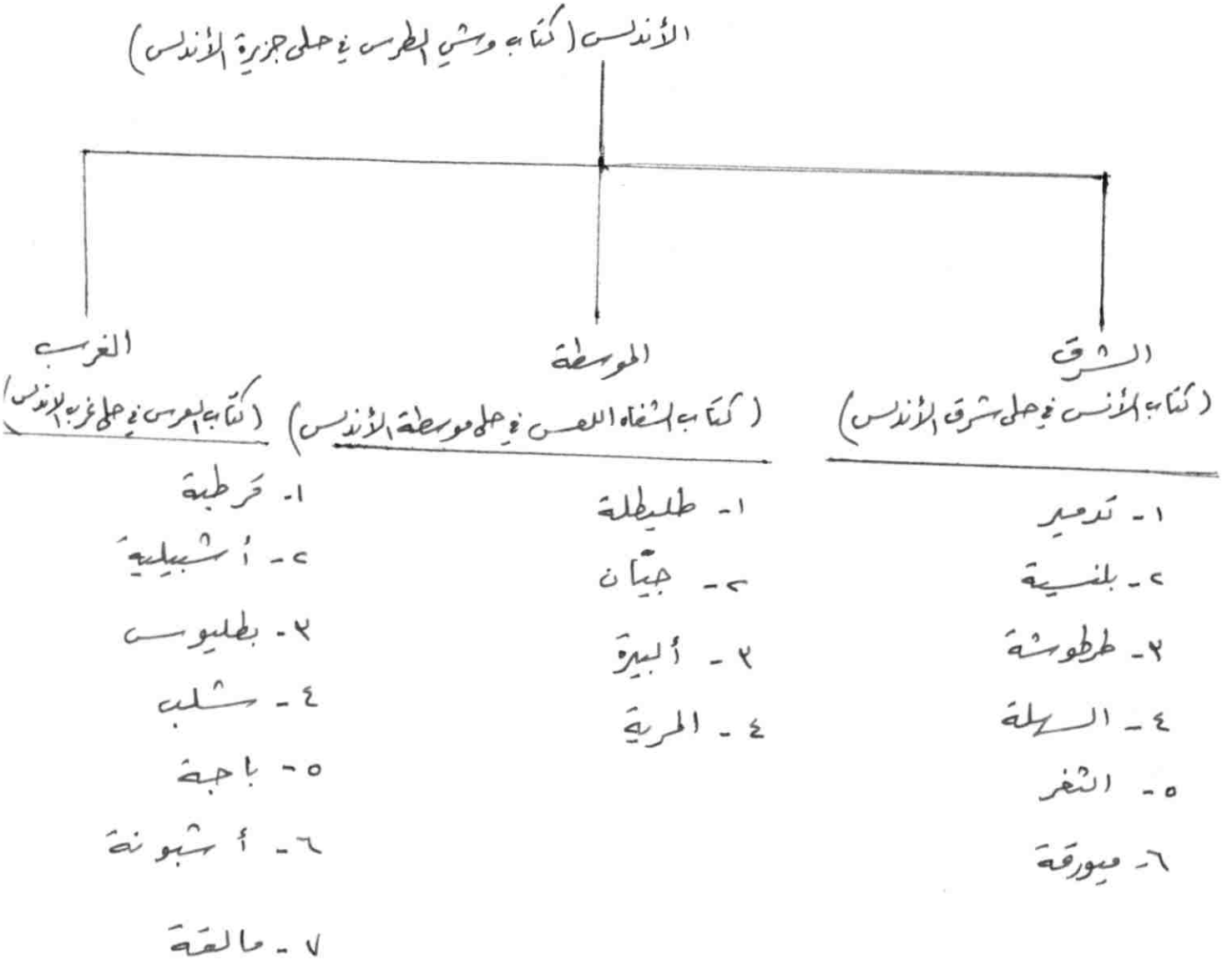

رسم بياني يبين الخطة العامة لكتاب "الغرب"

المشـــرق :

القسم الذى وصل الينا من هذا الكتاب مازال مخطوطا ، وقد اطلعت على نسخـــة مصورة منه عن مخطوطته فى المكتبة التيمورية تحت رقم ٢٥٣٢ ـ تاريخ . وبالنظر الى ان هذا الكتاب غير منشور ومجهول المحتويات فقد آثرت عن اتحدث عن مخطوطته ومحتوياته بشىء من التفصيل .

ان مابين أيدينا من هذا الكتاب هوعبارة عن القسم الخاص بجزيرة العرب ومكة على وجـــه التحديد . وهذا القسم موزع بين مخطوطتين منفصلتين : الاولى مكتوبة على بخط مشرقى كبير واضح وفيها المقدمة العامة والمقدمة الجغرافية والحديث عن فضائل جزيرة العرب وعن السيـــرة النبوية وسير الصحابة العشرة المبشرين بالجنة (باستثناء الخلفاء الراشدين الاربعة الذيـــن الذى يحتم السياق ان تأتى سيرهم بعد سيرة الرسول) وهنا تأتى المخطوطة الثانيـــة ـ وهى مكتوبة بخط مغربى قديم ـ لتسد هذا النقص فتركز الحديث على سير الخلفاء الراشدين وابنائهم واحفادهم مهتمة بالشعراء منهم على وجه الخصوص . وهناك ملاحظة مضافة الى الاولى هذه المخطوطة تقول انها بخط المؤلف وهذه الملاحظـــة بخط الشيخ حسن العطار شيخ الازهـــر المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣١ م) . وليس لى فى هذه المقدمة التعريفية ان ابحث فى العلاقـــة بين المخطوطتين وفى سبب اغفال سير الخلفاء الاربعة فى المخطوطة الاولى وانفـــراد المخطوطة الثانية القديمة بها فهذا من شأن من يتصدى لتحقيق دقيق للمشرق وقد جمع اكبر عدد من مخطوطاته .

ويبدأ الكتاب ، الذى ورد اسمه هنا : " المشرق فيما يحاضر به من آداب المشرق " وليس " المشرق فى حلى المشرق " كما تعود ابن سعيد ان يسميه عند الاشارة اليه فى كتبـــه الاخرى (١) ـ يبدأ بخطبه عامة (وهى ناقصة من اولها وبهاخرم) تقدم لكتابى " المغرب والمشرق " وتتحدث عن منهج تأليفهما ، وقد اوردت النص الهام المتعلق بذلك عند الحديث عن " المغرب " .

---

(١) ـ النفح ٤/١٧٤ ؛ المقتطف ورقة ٢ ـ ٣

وبعد ذلك تأتى مقدمة جغرافية تحت عنوان " مقدمة فى الكلام على الارض والبحار والاقاليم " (١) وبها رسم لصورة الارض حسبما وضعها بطليموس ثم تتحدث عن الاقاليم السبعة اقليما اقليما محددة البلدان الواقعة فى كل اقليم وبعدئذ تنتقل الى الحديث عن البحار والاجزاء الواسعة التى تغمرها المياه او التى لايعرف عن عمارتها شئ . وابن سعيد يكرر الاشارة هنا الى انه يأخذ عن كتاب الادريسى "نزهة المشتاق " الذى يسميه كتاب "اجار اورجار " (٢) كما نقل مرة عن " رسائل اخوان الصفاء " (٣) وبعد المقدمة ~~الجغرافية~~ يبدأ ~~كتاب الجغرافية~~ ،يبدأ كتاب المشرق ذاته بالاشارة الى التقسيم الذى سيتبعه ابن سعيد فى تأليفه . وهذه اشارة مهمة تبين لنا المخطط العام لكتاب المشرق وتثبت ان مابين ايدينا ماهو الا الجزء الاول منه فقط . يقول ابن سعيد انه سيقسم الكتاب الى ثمانية اقسام هى (٤) :

القسم الاول	جزيرة العرب
القسم الثانى	فى العراق وارض فارس.
القسم الثالث	فى كور الموصل والجزيرة وديار ربيعة وديار بكر ودیار مضر.
القسم الرابع	فى الشامات .
القسم الخامس	بلاد الروم وارمينيه والخزر.
القسم السادس	بلاد الديلم واذربيجان وطبرستان وجرجان .
القسم السابع	فى سائر بلاد العجم.
القسم الثامن	فى السند والهند .

ويأتى القسم الاول فى "جزيرة العرب وبلدانها وتاريخها " (٥) واهم موضوعاته الكلام على الاصنام ،وقصة الفيل ،والكلام عن الحجر والملتزم والحطيم ،والمحصب والحجون ،والمفاخرة بين الحرمين : مكة والمدينة . ثم تبدأ السيرة النبوية (٦) التى تشمل : نسب الرسول وميلاده ونشأته واسمائه وصفاته .

---

١) ـ المشرق ، الاوراق ٩ ـ ٢٦
٢) ـ نسبة الى الملك روجر الثانى Roger II الذى الف الادريسى له وفى بلاطه كتاب "نزهة المشتاق فى الجغرافية.
٣) ـ المشرق ورقة ١٠
٤) ـ المصدر السابق ورقة ٢٨
٥) ـ المصدر السابق ورقة ٢٩
٦) ـ المصدر السابق ورقة ٨٢

ثم يتفرع الحديث الى ذكر اعمامه وعماته ،وزوجاته ،واولاده ومواليه ثم الى التحدث عن غزواته ثم كتابه ورفقائه وسلاحه وافراسه وعصيه واثوابه وحليته واخيرا فرائد من كلامه.

وبانتهاء سيرة الرسول يبدأ الحديث عن سير الصحابة العشرة الاوائل (دون ورود ذكر الخلفاء الاربعة) . ويلي ذلك " تلخيص في اعلام الصحابة " مثل ابن مسعود وابي ذر وعمار بن ياسر . وبعد تلك التراجم يعود الى الحديث عن قبائل عدنان واساطيرها باسهاب(١) ثم يأتي بفصل عن الرسل الاول ابتداء بآدم (٢) . وهنا تنتهي هذه المخطوطة.

اما المخطوطة الثانية وهي التي بخط المؤلف فتختص بالترجمة للخلفاء الاربعة وذراريهم. وتبدأ بعبارة " ما في مكة شرفها الله من الطبقات " وفيها الخمس التي بني عليها هذا الكتاب الامراء ، الروؤساء ،العلماء الخ ". ومعنى ذلك انه يعود الى منهجه في تنظيم تسلسل التراجم كما فعل في القسم الاندلسي والقسم المصري من " المغرب " . ولكنا لانرى هنا اي حديث عن منصة مكة اوتاجها كما هي العادة . والمنهج الذي يتبعه هنا هو ايراد ترجمة للخليفة ثم مجموعة من اخباره الهامة وبعض الحكايات التي تروى عنه ثم نماذج من شعره وبعد الخليفة يأتي على ماذكر مشاهير ابنائه واحفاده مستخدما المنهج ذاته في الحديث عنهم.

وهكذا نراه يبدأ الحديث بترجمة قصيرة عن ابي بكر مع حكايات عنه ،ثم يترجم الابنيه عبدالله وعبد الرحمن ولحفيده عبدالله بن عبد الرحمن. وبعد ذلك يأتي بترجمة اطول لعمر تشغل الروايات عن اسلامه حيزا كبيرا منها ثم يترجم لاشهر ابنائه وعلى رأسهم عبدالله بن عمر. يلي ذلك تراجم لعثمان ولابنائه : سعيد ، وابان ، وعمرو . وتأتي اخبار علي وبنيه لتستأثر بنصيب كبير من التفصيل فهنا يترجم لعلي ويذكر ما دار بينه وبين معاوية من مراسلات وخاصة في حرب صفين ويعرج على ذكر الرافضة والشيعة ويسهب في حادث مقتله ويختم ترجمته بذكر بعض فضائله وايراد نبذ من كلامه ثم يشير الى انه سيواصل الحديث عنه في السفر الثالث دون ان يذكر سبب ذلك.

---

١) ـ المشرق ورقة ١٩٣ ومابعدها.

٢) ـ المصدر السابق ، ٤.ب

وبعد ذلك الحديث عن على يأتى ذكر ابنائه واحفاده حتى يصل الى محمد النفس الزكية الذى قتل اثناء ثورته ضد ابى جعفر المنصور • وهو يحرص فى كل ذلك على ذكـــــر شعر او رسائل لكل من يترجم له • وبعد ذلك يأتى ذكر " من دعى له فى مكة بالخلافة " حيث نرى حديثا عن الزبيريين وثورتهم ،وابنتهاء هذا الحديث ينتهى ايضا هذا الشفر ، ونقرأ العبارة التالية : " كمل السفر الثانى من كتاب " المشرق فى مايحاضر به من آداب المشرق" بمدينة الاسكندرية حرسها الله فى غزة صفر سنة ثلاث واربعين وستمائة يتلوه ان شاء الله من ولى مكة من الامراء وله ترجمة " ومن هنا نعلم ان القسم الخاص بالجزيرة العربية لم ينته بعد ،وان مابين ايدينا لايعدو ان يكون جزئين من ذلك القسم المتعدد الاجزاء •

ويمكن القول بصورة عامة ان ابن سعيد هنا لم يخرج عن منهجه العام • فالسفر الاول حديث عن فضائل جزيرة العرب بصورة عامة وهو يماثل مقدمة المغرب عن فضائل الاندلس• ثم ان ايراده لسير الخلفاء الاربع وذراريهم ولاخبار الزبيريين واشارته الى بدء الحديث عن الولاة فى السفـر الثانى يدل انه بدأ الحديث عن " تاج " مدينة مكة التى هى الحاضرة الاولى فى بلاد العرب ، تماما كما فعل عند الحديث عن حاضرة قرطبة ومن وليها من الخلفاء والامراء •

واهم المصادر التى اعتمد عليها ابن سعيد فى هذين السفرين اللذين اطلعت عليهما من " المشرق " المتب التالية ، وهى مرتبة حسب التسلسل الزمنى :

١ ـ كتاب التاج لابى عبيدة (ـ ٢١٢ هـ // ٨٢٥) اعتمد عليه فى معلوماته عن اخبار الجزيرة فى العصور القديمة •

٢ ـ سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام (ـ٢٢٠هـ /٨٣٤) اعتمد عليه فى نقل رواية اسلام عمر وفى بعض اخبار على •

٣ ـ صحيح مسلم (ـ٢٦١ هـ /٨٧٣) نقل منه اخبارا عن عمر •

٤ ـ تاريخ الطبرى (ـ٣١٠هـ /٩٢٢) نقل عنه عندما ترجم لعثمان •

٥ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (ـ٣٢٨ هـ/٩٣٨) نقل عنه اخبارا عن على •

٦ — مروج الذهب للمسعودى (—٣٤٥ هـ / ٩٥٦) نقل عنه اخبارا عن على .

٧ — الاغانى لابى الفرج (—٣٥٦ هـ/٩٦٧) نقل عنه عندما ترجم لابناء الخلفاء الذى تعاطوا نظم الشعر مثل عبد الرحمن بن ابى بكر . وابناء عثمان : سعيد وابان وعمرو .

٨ — رسائل اخوان الصفاء (اواسط القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) نقل عنها معلومات جغرافية فى المقدمة .

٩ — كتاب اختصر فيه والده موسى بن سعيد كتاب " جمهرة انساب العرب " لابن حزم (—٤٥٦ هـ / ١٠٦٤) استعان به فى الحديث عن انساب القبائل .

١٠ — كتاب العمدة لابن رشيق (—٤٥٦ هـ /١٠٦٤) ذكر ابن سعيد انه راجع فيه اشعار الخلفاء الراشدين التى افتتح بها ابن رشيق كتابه .

١١ — كتاب الاستيعاب لابى عمر يوسف بن عبد البر القرطبى (٤٦٣ هـ / ١٠٧١) هذا كتاب فى التراجم ، وكان جل اعتماده عليه فى الترجمة للخلفاء وابنائهم وقد ذكره مرارا ونقل منه مقاطع عديدة وطويلة ويمكن اعتباره المصدر الاساسى لهذا الجزء من " المشرق " .

١٢ — سراج الملوك للطرطوشى (٥٢٠ هـ / ١١٢٦) نقل عنه حكاية عن اسلام عمر .

١٣ — كتاب اجار او " نزهة المشتاق " للشريف الادريسى (—٥٦٤ هـ/ ١١٦٩) هو مصدره الجغرافى الاول ونقد ذكره مرارا فى المقدمة الجغرافية .

واذا علمنا ان ابن سعيد اكمل كتاب المشرق قبل سفره الى مكة وان هذا القسم منه بالذات كتب فى الاسكندرية سنة ٦٤٣ كما اشار ابن سعيد نفسه ادركنا ان ابن سعيد قد اعتمد على المصادر كليا وان عنصرى المشاهدة والرواية الشفوية لم يعد لهما اثر فى هذا القسم وهذا مما يقلل من قيمته خاصة وان اغلب المصادر المذكورة وصلت الينا . فمعلومات ابن سعيد تعد فى هذه الحالة ثانوية ولو انه اجل اكمال الكتاب حتى زيارته للحجاز ومشاهدته لمدنها لجاء كتابه اكثر دقة جغرافيا على الاقل كما هو الحال بالنسبة للقسم الاندلسى والقسم المصرى من " المغرب " الا ان ابن سعيد على مايظهر وفر ماده مشاهداته لكتاب آخر هو " النفحة المسكية " الذى ستتم

الاشارة اليه بعد قليل ، واعتمده في تأليف المشرق او هذا القسم الذى وصفته على الاقل - على المصادر كليا لينهيه مع " المغرب " سنة ٦٤٧ اى قبل ان يتوجه الى الديار الحجازية .

عنوان المرقصات والمطربات :

هو احد ثمار كتابى " المشرق " و " المغرب " . قال ابن سعيد انه لما شاع امر اشتغاله بهذين السفرين اخذ الناس يتعجلونه فى شأنهما " وتكرر الطلب والسؤال قبل ان (ينتهيا) الى غاية الكمال . فجعلت هذا الكتاب كالمقدمة ... وصنفته ليكون كالمدخل .. وسميته عنوان المرقصات والمطربات " (١) .

ويعتبر هذا الكتاب الذى يشمل نماذج من الشعر والنثر لشعراء العربية وكتابها منذ العصر الجاهلى حتى عصر ابن سعيد ، وثيقة هامة بالنسبة لمقاييس ابن سعيد النقدية (٢) .

رايات المبرزين وغايات المميزين :

لما حل ابن سعيد بمصر بين سنتى ٦٣٩ - ٦٤٣ واشتهر امر كتابه (المغرب) رغب اليه الامير موسى بن يغمور ان يختار له مجموعة طيبة من اشعار اهل المغرب يختارها من سفره الكبير الذى لم يكمل . " وسميته برايات المبرزين وغايات المميزين " المنتقاة من كتاب " المغرب فى شعراء اهل المغرب " وطرزته باسم من يتلقى راية المجد باليمين .. مستشار الملوك .. موسى بن يغمور " (٣) .

وقد اتبع ابن سعيد فى تصنيف هذا الكتاب هدى منهجه المعروف فى تصنيفه للمغرب . فقسم الكتاب تقسيما مكانيا حسب الاقاليم وزمانيا حسب القرون واجتماعيا حسب المكانة الاجتماعية الا انه قصره على الثلاثة القرون السابقة لزمنه فقط وكأنه يريد ان يعطى الامير والمشارقة فكرة عن نهضة الشعر المغربى فى عصور ازدهاره لاكما عرف عنه فى عصوره الاولى .

ويتكون الكتاب من اربعة اقسام حسب الاقاليم : قسم خاص بالاندلس يتفرع بدوره الى اربعة اجزاء : غرب الاندلس ووسطها وشرقها وجزيرة يابسة وقسم ثان مختص بالمغرب الاقصى والاوسط ، وثالث عن افريقية (تونس) ورابع عن جزيرة صقلية وذكر ابن سعيد انه فرغ من تنصيف هذا الكتاب سنة ٦٤١هـ (٤) وهو شامل لثلاثمئة واربعة عشر نموذجا من الشعر (٥) .

---

١) - المرقصات ٣ ٢) - الرايات ٦ ٣) - المصدر السابق ١١٤ ٤) - قام المستشرق غرسيه غومس بتحقيقه ونشره فى مدريد سنة ١٩٤٢ مع مقدمة وترجمة بالاسبانية . ٤) - طبع الكتاب فى بولاق سنة ١٢٨٦ هـ كما طبع القسم الاندلسى منه مع ترجمة فرنسية سنة ١٩٤٩ بالجزائر .

المقتطف من ازاهر الطرف :

هذا الكتاب اغنى مادته من " المرقص " و " الرايات " فهو يشمل احاديث نبوية وحكما ورسائل وحكايات واشعار من المربعات والمخمسات والمتسعات الخ ، وموشحات وازجالا . والكتاب مقسم بحسب الموضوع لا بحسب منهج ابن سعيد السابق ومما لا شك فيه ان هذه المادة المتجمعة لديه هي جزء مما جمعه في تنقيبه وبحثه لكتابي المغرب والمشرق .

وقد نشأت فكرة هذا الكتاب من جلسة لابن سعيد مع الملك الايوبي الناصر ابي المظفر يوسف صاحب حلب . فبينما كانا يتحدثان عن كتابي المشرق والمغرب سأله الملك ان كان سيطول فيهما ام سيختصر . فاجاب " يا خوند ، هكذا يجري لي دائما . كلما شرعت في مصنف لم تسمح نفسي بان اجعله صغيرا واخذ استيفاء ما اجتمع لي من مواده ، والبخل ان اسقط منها الى ان اضجر وتقع السآمة في بعض مسافاته . " (١)

فنصحه الملك بالاختيار والاختصار تعميما للفائدة فقال : " قد وقع لي بهذا المجلس المبارك ما رفع عني حجاب الحيرة فكم خبطت عشواء لا اهتدي الى صباح " . (٢)

وحدد له الناصر ان يكون الكتاب في ١٢ كراسة من الرسم الناصري المستخدم في خزائن الناصر العلمية بحلب .

والظاهر ان ابن سعيد انهى كتابه عندما عاد الى تونس بعد رحلته الاولى اذ نراه في المقدمة يمدح المستنصر صاحب تونس قبل ان يمضي في سرد حكايته مع الناصر (٣) . في حين انه لم يفعل ذلك في مقدمتي " الرايات " و " المرقصات " .

---

١) المقتطف ورقة : ٢-٣

٢) المصدر السابق ورقة : ٢-٣

٣) المصدر السابق ، ورقة : ١

وقد قسم ابن سعيد كتابه تقسيما دقيقا على النحو التالى حسب فصول السنة وشهورها : (١)

الفصل الاول : فى ازاهر النثر •

الخميلة الاولى : الكلمات القصيرة على اربع طبقات
" الثانية : الكلمات المتوسطة " " "
" الثالثة : الكلمات الممتعة " " "

} بويت هذه النصوص حسب اطوالها وعدد كلماتها

الفصل الثانى : فى ازاهر النظم •

الخميلة الاولى : فى الابيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة •

الخميلة الثانية : فى الابيات الخمسة والمسدسة والمسبعة والمثمنة •

الخميلة الثالثة : فى الابيات المتسعة والمعشرة والكونة من احدى عشر واثنى بيتا •

الفصل الثالث : فى ازاهر الحكايات •

ويتالف من ثلاث خمائل ايضا فى الحكايات المختصرة والمتوسطة والممتعة •

الفصل الرابع : ازاهر الاوزان المولدة من موشحات وازجال •

وهو يتالف ايضا من ثلاث خمائل •

على هذا النسق وضع ابن سعيد منهج كتاب المقتطف ، ولكن النسخة (٢) التى بين ايدينا لا تتقيد بالترتيب المذكور • فبعد انتهاء فصل ازاهر النثر مثلا بخمائله الثلاث لا نرى ذكرا للفصل الثانى بل نصادف هذا العنوان : الخميلة الرابعة المشتملة على الابيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة • (٣) وهناك المفروض حسب مخطط الكتاب ان تكون الخميلة الاولى من الفصل الثانى •• وبجانب ذلك نرى ان هذه الخميلة تبتر عند انتهاء الابيات المزدوجة ونصادف هذا الباب الذى كان يجب ان يكون ضمن الفصل الثالث : الطبقة الرابعة من الحكايات الممتعة • (٤)

---

١) المقتطف ، ورقة : ٥
٢) مصورة عن مخطوطة سوهاج ـ ٣٠٣ ادب •
٣) المقتطف ، ورقة : ٢٨
٤) المصدر السابق ، ورقة ٣٢

وهناك اختلافات اخرى كثيرة من هذا القبيل •

ومن الجدير بالذكر ان هذه النسخة التى يظن انها بخط المؤلف ناقصة من الاخر • ونظرا للاضطرابات الحاصل فى ترتيب فصول الكتاب لا يعلم بالضبط مدى ما فيها من النقص •

وفى مجال اختيار الاشعار الواردة فى هذا الكتاب يلاحظ ان ابن سعيد يطبق مقياسه النقدى فلا يورد " الا ما كان هزازا من طبقة الرقص التى هى اعلى الطبقات وهى التى لا تخلو من غرض تخيل ولطف تحيل " (١) ويكثر من ايراد شعر الغراميات الذى هو من نتاج عصره •

وبالرغم من ان ابن سعيد يقسم كتابه على اساس الموضوع لا على اساس المكان والمنزلة كما فعل فى " المغرب " فانه يتاثر بعض الشئ بمنهجه الاول فنراه فى فصل النظم يورد اشعار الخلفاء اولا ثم الحسباء والفضلاء ••• الخ وهو التقسيم المتبع فى "المغرب " •

ولعل اهم ما فى هذا الكتاب الفصل الاخير المتعلق بالموشحات والازجال الا ان هذا الفصل فى النسخة المذكورة مضطرب وناقص من آخره •

كتب التواريخ والتراجم

اشتهر ابن سعيد - اكثر ما اشتهر - بكتابى " المشرق " و " المغرب " بالرغم من انه مؤلف مشارك فيهما ومكمل لهما وليس مؤلفهما الوحيد • وعمله فيهما قد خضع بلا شك للخطة المرسومة من قبل ولطبيعة المادة التى جمعها اسلافه • وهذا لا يعين ان اثره فيهما اثر ضئيل فهو الذى اخرجهما بصورتهما النهائية وقد يكون ادخل عليهما بعض التعديل والتهذيب • الا اننا اذا اردنا ان نتعرف الى جهد ابن سعيد الشخصى الخالص فعلينا ان نلتفت الى كتب كالقدح والغصون فهنا يظهر طابعه الخاص بوضوح اكثر •

---

١) المقتطف ، ورقة : ٢٨

القـدح المعلـى

اطلعـت علـى جزئين من هذا الكتاب بينهما تباين كبير من حيث طبيعة المادة والاهمية . هما " كتاب نشوة الطرب فى تاريخ جاهليـة العرب " ،وهو نسخـة مصـورة (١) وكتاب " اختصار القدح المعلى " فـى تراجم اعلام اندلسيين من معاصـرى ابن سعيد ،وهو مطبوع (٢)

ويبدو ان ابن سعيد فى هذا الكتاب كان يحاول تصنيف موسوعة تاريخيـة ـ ادبية جديدة تتناول تاريخ الامم والرجال منذ العصر الجاهلى ـ او ربما ـ اقـدم من ذلك حتى عصره هو فى القرن السابع الهجرى . وما الجزءان اللذان اشـرت اليهما الا حلقتان فى سلسلة موسوعة " القدح " الشاملة . وثمة اشارات واضحـة تؤكـد ذلك . فـفى الصفحة الاولى من كتاب " نشـوة الطرب " نقرا ما يلـى : " فهذا القسم الثاني ، وهو القسم الاعظم مما اشتمل عليه كتاب القدح المعلى فانه فى التاريخ المحلى : تاريخ الامة العربية ،وهذا التاريخ مشتمل على كتابين : " كتـاب نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب " و " كتاب مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام " .

وهذا النص يشير اولا الى ان هناك قسما اول من كتاب القدح سبق تاريخ الامة العربية فى جاهليتها وفى اسلامها ،ولعل هذا القسم الاول عن تاريخ بدء الخليقة او لعله فى تاريخ الامم غير العربية ، اذ ان تسمية القسم الثانى الذى يشمل كتابى " نشـوة العرب " و " مصابيح الظلام " بتـاريخ الامـة العربية قـد يشير الى ان القسـم الاول هو عن تاريخ الامم الاعجمية . وثمة كتاب نسبه حاجى خليفـة الى ابن سعيد وقال انه يقع فى مجلدين وهو كتاب " لـذة الاحلام فـى تاريـخ الاعجام " (٣) ، فهل هذا الكتاب هو القسم الاول من القدح الذى سبق كتاب " نشوة الطرب " ؟ .. ايا كان الامر ، فالنص المذكور يؤكد وجود قسـم اول . وبالاضافة الى ذلك فان النص يخبرنا بوجود كتاب تال لنشوة الطرب وهو " مصابيـح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام " . وكل ذلك يكفى لاعطاء فكرة عامة عن حدود كتاب " القدح " وغرضـه .

---

١) صورها معهد المخطوطات للجامعة العربية فى القاهرة عن مخطوطة بمكتبة توبنجى بالمانيا
٢) بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابيارى
٣) حاجى خليفة ،كشف الظنون : ٣٠٩/٥

ويقوم كتاب " نشوة الطرب " على تقسيم العرب الى الفئات الثلاث ، وهو التقسيم التقليدى الشائع عند المصنفين القدماء :

القسم الاول : فى العرب المبلبلة البائدة (١) .

القسم الثانى : فى العرب العاربة .

القسم الثالث : فى العرب المستعربة .

ويتحدث ابن سعيد عن اصل كل فئة واشهر فروعها او قبائلها ثم ياتى بتراجيم او نبذ تاريخية عن اشهر رجالاتها ويشفع ذلك بحكايات واقوال تنسب اليهم وتروى عنهم .

وبعد هذه الفصول التاريخية يلتفت الى بعض النواحى الخاصة فى ادب العرب وحياتهم فيعقد فصلا بعنوان " امثال وفوائد من اوابد العرب " ، وفصلا آخر عن " خيل العرب المشهورة " . ونراه يحرص على ذكر الروايات الشعرية ما اسعفته مصادره بذلك . وهو ينقل فى هذا الكتاب عن : البيهقى ، والمسعودى فى مروج الذهب ، وتاريخ الطبرى ، ويعتمد على كتاب الملك والنحل للشهرستانى فى التحدث عن العقائد الدينية المنتشرة بين العرب فى الجاهلية .

ونلاحظ ان مادة هذا الكتاب تتشابه مع مادة القسم الخاص بالجزيرة العربية من كتاب " المشرق " ، وهو القسم الذى جاء وصف مخطوطه فيه قليل . ومما لا شك فيه ان ابن سعيد استفاد من المادة الكبيرة المتوفرة لديه لكتاب المشرق . فادخل قسما منها فى هذا الكتاب ، خاصة وان كثيرا من مصادر الكتابين واحده . وما قلناه عن كتاب " المشرق " من حيث قلة الاهمية التاريخية يمكن ان نقوله عن كتاب " نشوة الطرب " ، فمادته ثانوية ، ومصادره الاصليه متوفرة لدينا .

---

١) ـ اشارة الى الاسطورة القائلة بتبلبل السنة البشر ـ اى اختلافها واضطرابها ـ فى بابل .

هذا وتعود الاشارة فى نهاية الكتاب التالى هو "الى انه المجلد الثانى من كتاب " القدح المعلى " ،والى ان الكتاب التالى هو " مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام ".
كما توجد اشارة اخرى الى ان كتاب " نشوة الطرب " الذى تحدثنا عنه مكتوب بخط المؤلف نفسه .

واذا وصفنا كتاب " نشوة الطرب " بانه كتاب ثانوى فى اهميته التاريخية ، فان القسم الاندلسى من كتاب " القدح المعلى " ،وهو الذى وصلنا باسم " اختصار القدح المعلى " يعتبر من اهم المصادر الاولية عن الثقافة الاندلسية فى اواخر عصر الموحدين ،وعن جو اشبيلية العربية خلال الخمسين سنة الاخيرة من تاريخها .

يشتمل هذا الكتاب - او اختصاره الذى اختاره شخص يدعى محمد بن عبد الله بن خليل - تراجم الاثنين وسبعين علما من اعلام الاندلس المبرزين فى ميادين الشعر والادب والفقه والسياسة ممن عاشوا فى عصر ابن سعيد . والغالبية العظمى من هؤلاء التقى بهم ابن سعيد شخصيا وتعرف اليهم عن كثب وربما عاش مع بعضهم مدة طويلة من الزمن . فمعلومات الكتاب - اذن - معلومات مباشرة استقيت من اصحابها الاصليين ومن انطباعات المصنف الحى عنهم .

ومنهج ابن سعيد فى هذا الكتاب ان يورد اسم المترجم به وبلده وشهرته ومكانته واهميته فى صدر الترجمة لاعطاء فكرة عامة تعريفية عنه . ثم يمضى فى رواية نتف من اخباره واشعاره ذاكرا مكان اجتماعه به وكيفيته وزمانه . كما انه لايخفى فى الاغلب انطباعه الشخصى تجاه المترجم به فتراه يذكر شيئا عما تراءى له من اخلاقه وطباعه .

وقد اشار محقق هذا الكتاب فى مقدمته سؤلين مهمين عنه وهما :

١ ـ هل ما بين ايدينا كتاب مستقل بذاته ام انه جزء من مصنف تاريخي كبير ؟

٢ ـ هل ما بين ايدينا هو حقا اختصار عن كتاب اصلي لابن سعيد ، ام ان هذا هو الكتاب الاصلي وان القول باختصاره مجرد وهم ؟

وفيما يختص بالسؤال الاول يبدو انه من الاصوب القول ان هذا الكتاب ـ رغم طابعه المستقل ـ كان يشكل في تصور ابن سعيد سلسلة في حلقة موسوعية كبيرة ـ كالمشرق والمغرب ـ باسم كتاب " القدح المعلى في التاريخ المحلى " ، الذي كتبت مخطوطة " نشوة الطرب " وجوده وتشير الى بعض اجزائه . ولعل ما اشتهر بانه " اختصار القدح المعلى " هو القسم الاندلسي من الكتاب الكبير او ربما كان فرعا من قسم اندلسي يشمل كافة العصور ولا يختص بزمن ابن سعيد فحسب كما هو الحال بالنسبة لهذا " الاختصار " .

اما فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فان المحقق يرجح ان ما بين ايدينا هو كتاب اصلي بقلم ابن سعيد نفسه . وان وجود ترجمة ذاتية لابن سعيد في بداية مع ورود عبارة في المقدمة تقول : " فهذه نبذة خاقانية ... انتخبتها بقصد الاختصار " هما سبب الوهم وسبب تصور النساخ ان الكتاب مختصر من قبل هذا الشخص الذي لا نعرف شيئا عنه ، والذي ربما كان من مالكي احدى النسخ ليس غير .

وبالنسبة لهذه الترجمات ارى ما يلي :

١ ـ ان جميع ما لدينا من معلومات وتصورات عن شخصية ابن سعيد ومن منهجه في التصنيف تشير الى انه لا يمكن ان يترجم لنفسه بالطريقة التي ترجم بها في " اختصار القدح " . فهذه الترجمة كلها تعظيم وتفخيم بشكل لا يمكن ان يصدر عن ابن سعيد الذي ترجم لنفسه بغاية التواضع في مصنفه الضخم " المغرب " عندما جاء الحديث عن اسرة بني سعيد ، والذي اشار الى نفسه واورد نماذج من شعره في ختام كتابي " المرقصات " و " الرايات " بايجاز وتواضع

(بينما نجد ترجمته هنا تتصدر الكتاب ، فهي اول ترجمة فيه) . والواقع ان القاء نظرة على ترجمته في المغرب وترجمته في القدح كافية لاقناع المرء ان ابن سعيد لا يمكن ان يكتب عن نفسه الكلام المذكور في "القدح" :

فهذه خلاصة ترجمة ابن سعيد في المغرب : " هو مكمل تصنيف هذا الكتاب ، ولد نغرناطة ... ورحل عنها وجال مع ابيه بر الاندلس .. ورحل الى القاهرة .. ثم عزم على الحج في هذه السنة .. يسر الله ذلك بمنه .. ومن قوله .. " (١) فكيف يتفق هذا الاسلوب الموضوعي الدقيق مع الكلام المذكور في القدح على اساس انه ترجمة ابن سعيد : " بحر لا يقطى ثبجه .. علامة الاعلام ورواية الجاهلية والاسلام ، مالك عنان البيان ومصرفه ومسند حديث العلم ومصنفه . ان ذكر التفسير نسى الزمخشري او التاريخ فمن الطبري ؟ او التصوف فاين الجنيد والسري ؟ .. ذلك الذي جاب الاقطار .. درله حلب حلب ، وبالموصل وصل الى ماطلب .. وزار الزوراء فازدراها .. " (٢)

حقا ان امثال هذه المبالغات موجودة في كتب التراجم العربية القديمة عندما يتحدث المصنف عن علماء يجلهم ، اما ان يكتب مصنف ـ وكابن سعيد ـ عن نفسه ذلك فمما يصعب تصديقه للغاية .

٢ـ ان بقية التراجم يبدو عليها اثر قوي من نهج ابن سعيد وروحه وجميع ما فيها من تفاصيل يدل على ان كاتبها هو ابن سعيد نفسه .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان الترجمة الاولى في الكتاب ـ وهي عن ابن سعيد ـ ليست باسلوب ابن سعيد وربما كانت من اضافة المختصر ، اما التراجم الاخرى فقد تناولها يد الاختصار والحذف ولكن ما بقي منها يمثل اسلوب ابن سعيد ، وقد تكون ناقصة بعض الشيء ولكن لا يظهر عليها آثار للتحريف . وعليه يمكن اعتباره ما يسمى " اختصار القدح " بانه كتاب اساسي لابن سعيد يمثل منهجه وروحه .

---

١) ـ المغرب : ١٧٢/٢

٢) ـ القدح : ٢

الغصـــون

هو كتاب تراجم الشعراء والعلماء من المغرب والمشرق شهدوا القرن السابع وتوفوا فيه . اسمه الكامل : " الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة " انتهى ابن سعيد من كتابته سنة ٦٥٧ عهد اقامته بتونس على ما يذكر فى المقدمة . والقسم الذى وصلنا من الكتاب (١) جميع من ذكروا فيه لا تتجاوز سنى وفاتهم سنة ٦٠٥ . وهذا معناه ان ما وصلنا اليه ما هو الا جزء من كتاب كبير . وابن سعيد يذكر ان هذا القسم هو الكتاب الثامن من الكتب التى اشتمل عليها جامع طبقات الشعراء الموسوم بـ " الحلة السيراء " (٢) . ويظهر ان ما بين ايدينا ليس جزءا من " الحلة السيراء " فحسب بل هو جزء من هذا الجزء الثامن الذى سمى " الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة " ، اذ نرى المصنف يذكر احد الشعراء عرضا فى ترجمة ابيه المتوفى سنة ٦٠١ ثم يقول عنه : " وهو شاعر تقف على ترجمته فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة " (٣) مما يدل ان كتاب الغصون مصنف ضخم لا يساوى القسم الذى بين ايدينا الا جزءا يسيرا منه .

وقد وردت فى هذا القسم تراجم لستة وعشرين شاعرا وعالما من المشارقة والمغاربة . ومنهج الكتاب يشبه منهج كتاب القدح . فعند البدء بالترجمة تعطى فكرة عامة عن المترجم به ، ثم تذكر نتف من اشعاره واخباره . ومصادر الكتاب شفوية وخطية فقد جمع ما سمعه فى رحلاته عن اولئك الرجال بالاضافة الى اعتماده على تقاييد والده وعلى كتب مشرقية ومغربية كمعجم الشقندى (ـ ٦٢٧) ومعجم الادباء لياقوت (ـ ٦٢٦) ، وتاريخ حلب لابن العديم (ـ ٦٦٠) ، وتاريخ بغداد لابن الساعى (ـ ٦٧٤) وتاج المعاجم للشهاب القوصى (ـ ٦٥٣) . وقد لجاء ابن سعيد فى هذا الكتاب الى الاسلوب المسجع ـ كما فعل فى القدح ـ ولكنه لم يتكلف السجع ولم يتقيد به على الدوام فنراه يبدا الترجمة بمقدمة مسجوعة حافلة بالمعلومات ثم يقصى الاخبار والروايات ـ فى الاغلب ـ باسلوب موجز بريء من السجع .

---

١) حققه الاستاذ ابراهيم الابيارى ، سنة ١٩٤٥ .
٢) الغصون : ١
٣) المصدر السابق : ٣٤

كتب الجغرافيا

ساتحدث عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافية فى الفصل الخاص بذلك ، واكتفى هنا بالاشارة الى كتابة الجغرافى الاوحد الذى اطلعت عليه ، وهو :

بسط الارض فى الطول والعرض (١)

كتاب جغرافى شامل مكثف فى مادته يهدف الى اعطاء صورة كاملة عن البلدان بما فيها من خواص معدنية ونباتية مع تحديد مواقع مدنها وقراها بالدرجة والدقيقة ضمن خطوط الطول والعرض . كما انه يذكر صفات سكان كل اقليم عند بدء الحديث عنه ويشير احيانا الى العادات والتقاليد خاصة اذا كانت غريبة كما يهتم بذكر الغرائب وتقوم خطة الكتاب على تقسيم العالم الى سبعة اقاليم تقع كلها الى الشمال من خط الاستواء . كما تضيف الى ذلك اقليمين آخرين هما " المعمور خلف خط الاستواء الى الجنوب " و " المعمور فى شمالى الاقاليم السبعة " . وكل اقليم من هذه الاقاليم ينقسم الى عشرة اجزاء . ويعتمد ابن سعيد فى هذا الكتاب على رحالة [illegible] يدعوه " ابن فاطمة " خاصة فيما يتعلق بمعلوماته عن غرب افريقيا ووسطها وشرقها .

كتب لابن سعيد وردت نقول منها

١- ديوان ابن سعيد : ذكر المقرى انه رآه وكان مرتبا على حروف المعجم (٢) وقد نقل فى ترجمة ابن سعيد فى النفح عددا لا باس به من قصائده ومقطعاته .

٢- الغراميات : ذكره ابن تغرى بردى (٣) ونقل من اوله حكاية مهمة جرت بين ابن سعيد والبهاء زهير حول المقارنه بين الشعر المشرقى والمغربى ، وتكشف هذه الحكاية عن آراء البهاء زهير فى شعر ابن خفاجة وابن زيدون كما

---

١) - حققه الدكتور خوان قرنيط خينيست من جامعة برشلونة ونشر بالمغرب سنة ١٩٥٨ .
٢) - النفح : ٣/ ٦٩
٣) - المنهل الصافى ج ٢ ، ورقة ١٠٤ ، وقد ذكر الكتاب حاجى خليفة محرفا باسم الغرائبات ، انظر كشف الظنون : ٥/ ١٢٧ .

تكشف اعجاب ابن سعيد الشديد بشعر البهاء • ويبدو ان كتاب الغراميات هذا ـ استنتاجا من تلك الرواية ومن اسم الكتاب ـ متعلق بالشعر الغزلي •

٣ ـ عدة المستنجز وعقله المستوفز : ذكره المقرى وقال انه في اخبار رحلته الثانية الى المشرق • ثم اورد فيه اخبارا عما انزله التتر باصدقائه الحلبيين كالناصر الايوبي وبني العديم ، وفيه ذكر مقتل الناصر على يد هولاكو• وصفه المقرى بانه كتاب " غرائب وبدائع " (١) •

٤ ـ الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد : ذكره ابن الخطيب والمقرى (٢) والسيوطي (٣) وهو في تاريخ اهله وبلده ونقل عنه المقرى رواية عن اجتماع ابن قزمان الزجال بنزهون القلاعية الاديبة في غرناطة بجنته بقرية الزاوية (٤) ويبدو ان ابن سعيد لما ارخ في هذا الكتاب لرجالات بني سعيد ابتع ذكرهم بذكر من مر بقلعتهم من الشعراء والادباء واصحاب النوادر• وهو قد فعل ذلك في المغرب عندما تحدث عن قلعهم ورجالاتها بعنوان : "كتاب الطالع السعيد في حلى قلعة بني سعيد " (٥) • والظاهر ان هذا الفصل في المغرب هو اختصار للكتاب المستقل السابق الذكر •

٥ ـ كتاب كنوز المطالب في آل ابي طالب : ذكره التجاني في رحلته (٦) ونقل عنه خبرا عن اجتماع ابن سعيد بالشريف التاجوري في حصن الخليل ومصر والشام كما اورد قسما من ترجمة الشريف ونتفا من اشعاره التي اوردها ابن سعيد في الكتاب• وقد سبقت الاشارة الى هذا الكتاب عند الحديث عن نزعة ابن سعيد المذهبية • هذا وقد اكد وجود الكتاب ابن تغري بردي في المنهل (٧) •

---

١) ـ النفح ٣ / ٤٠

٢) ـ المصدر السابق ٣ / ٤٠

٣) ـ حسن المحاضرة ١ / ٢٦٦

٤) ـ النفح ٦ / ٣٢

٥) ـ المغرب ٢ / ١٥٩ ـ ١٨٦

٦) ـ رحلة التجاني ٣٠٨

٧) ـ المنهل الصافي ح ٢ ورقة ٤٥٣

٦ - كتاب الزهرات : ذكره ابن هذيل فى كتابه " عين الادب والسياسة " ونقل عنه ثلاث روايات من ملح الاخبار المتعلقة بسلوك الكبراء والرؤساء (١) الرواية الاولى عن الخليفة العباسى المقتور عندما تباحث مع خاصته فى مسألة اضطراب دخل الدولة وطلب منهم تحديد المسؤول عن ذلك ، وكيف ان احد مرافقيه وهو ابوعيسى ، القى اللوم على الوزراء الذين يتلاعبون مرافقيه باموال الرعية ولايخافون سلطة الخليفة مبينا له الشروط الواجب توفرها فى الوزير الصالح مما جعل المقتدر يطلب منه تولى الوزارة بنفسه. اما الرواية الثانية فهى عبارة عن بضعة ابيات لابى دلف العجلى حول موضوع الكرم والبذل وعدم الاهتمام بتقلبات الدنيا ، ومن ضمنها البيت المشهور :

فلا الجود يفنيها اذا هى اقبلت

ولا البخل يبقيها اذا هى ولت

اما الرواية الثالثة فيرويها ابن سعيد عن صديقه كمال الدين بن العديم الذى يرويها بدوره عن قاضى حلب بهاء الدين بن شداد . وفحواها ان ابن العديم فى صغره زار هذا القاضى حلب بهاء الدين وهو مريض .. مع بعض اترابه الصغار - فقام لهم القاضى من فراش المرض واظهر لهم الاحترام ولم يمنعه وهو القاضى الشيخ المريض ان يبالغ فى الترحيب بزوار الصغار.

ويبدو من هذه الحكايات الثلاث - اذا امكن اعتبارها نماذج معبرة صالحة - ان كتاب الزهرات يتناول آداب السلوك وسياسة الملك وبلوغ الحكم عن طريق ايراد روايات تدور حول تلك الموضوعات وتتعلق بسير الامراء والمشاهير عموما ومايقوى هذا الاستنتاج ان ابن هذيل ينقل عن كتاب " الزهرات " فى كتابه الموسوم بـ "عين الادب والسياسية " وهو كتاب يدور حول الموضوع ذاته.

كتب اخرى منسوبة لابن سعيد :

اكمالا لخطة البحث اورد هنا قائمة باسماء الكتب التى نسبتها المصادر لابن سعيد ، او التى وردت عنها اشارات عابرة فى كتبه السابقة.

---

١) - ابن هذيل ، عين الادب والسياسة ، (على هامش "غرر الخصائص" للوطواط) ص: ١٦٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦

١ - ملوك الشعر : نقل المقرى عن ابن سعيد قوله : " ولما جمعت للملك الناصر كتاب " " ملوك الشعر " جعلت ملك شعر الشهاب التلعفرى البيت الرابع من القطوعة المتقدمة " - وكان المقرى قد اورد قصيدة هذا بيتها الرابع :

وتفردت بالجمال الذى خلاك مستوحشا بغير رفيق (١)

وقد ذكلا كتاب " ملوك الشعر " ايضا ابن شاكر فى الفوات (٢) • ويتضح من العبارة المتقدمة ان المقصود بملوك الشعر ابيات معينة يرى ابن سعيد انها تستحق ان تكون بمثابة الملوك فى دنيا الشعر • واذا صح ذلك فان هذا الكتاب يعتبر وثيقة مهمة بالنسبة لاراء ابن سعيد النقدية - الى جانب كتاب " المرقصات " •

٢ - الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة : بعد ان اشار ابن سعيد الى ملوك الشعر " وابيات الشهاب التلعفرى قال : " والتشفى من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب " الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة " (٣) ويبدو ان هذا الكتاب يشبه الى حد كبير كتاب " الغصون " وربما كان الاسمان لكتاب واحد فالشهاب التلعفرى يمكن ان يترجم له فى الغصون كشاعر من القرن السابع•

٣ - كتاب العنوان " فى تسمية من لقيته من الاعلام وطالعته من الكتاب ودخلته من البلدان " (٤)

٤ - كتاب الماشطة " التى تجلى بها عرائس الاشعار فى منصة المفاخر وتحلى بتزيينها فى الاسماع والخواطر " • والماشطة كتاب يتحدث عما " يقع على الاشعار المرقصة والمطربة والمقبولة " من الكلام (٥) • وظاهر ان هذا الموضوع يكاد يتطابق مع موضوع كتاب " المرقصات "

---

١) - النفح ٣/٦٢ - ٦٣
٢) - فوات الوفيات ٢/١١٢
٣) - النفح ٣/٦٣
٤) - المقتطف ، ورقة ٦
٥) - المقتطف ورقة ٦

٥ — النفحة المسكية فى الرحلة الحكية : كتاب عن رحلة حجة (١) .

٦ — المرزمة : كتاب " يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لايعلم مافيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله ... " (٢) . وذكر ابن رشيد فى رحلته الكتب التالية لابن سعيد (٣)

٧ — الخذوذ الموردة فى محاسن الاوزان المولدة .

٨ — تفريج الظلام وترصيع العالم بالاعلام .

٩ — رقم الحلل فى معرفة الملك والدول .

١٠ — السحر المذاب فى طبقات الخطباء والكتاب .

١١ — الشجرة المثمرة بالاعلام المشتهرة .

١٢ — المهاد فى اوضاع البلاد .

١٣ — جنى النحل .

١٤ — ريحانة الادب .

١٥ — غنج المحاضرة .

١٦ — اللمحة البرقية .

١٧ — ملوك الكلام .

ونسب اليه حاجى خليفة ما يلى :

١٨ — تاريخ ابن سعيد " وهو كتاب كبير مرتب على السنوات " (٤) .

١٩ — وله كتاب " تاريخ صغير ايضا ذكر فيه من لقيه من المتأخرين " (٥) .

٢٠ — كتاب " المغرب عن سيرة ملوك اهل المغرب " (٦) .

٢١ — ريحانة الادب فى المحاضرات : " جمع فيه عيون الاخبار ومستحسنات الاشعار " (٧) .

---

١) — النفح ٣/٤٠

٢) — المصدر السابق ٣/٣٨ والديباج المذهب ٢٠٩

٣) — انظر لوحة رقم ٤ بمقدمة " الغصون " والمقدمة ذاتها .

٤) — كشف الظنون : ٢/١٠٣

٥) — كشف الظنون ٢/١٠٤

٦) — المصدر السابق ٢/١٥١

٧) — المصدر السابق ٣/٥٢٤

٢٢ ـ الملقط من السلك من حلى العروس الاندلسية (١) ،ويقرب هذا العنوان من جو كتاب " المغرب "•

٢٣ ـ نتائج القرائح فى مختار المراثى والمدائح " (٢) •

× × ×

وقبل اختتام الحديث عن مصنفات ابن سعيد ،لابد من كلمة تحفظ وحذر ازاء هذا العدد الهائل من الكتب التى تنسب له• وربما امكننا تعليل هذه الظاهرة بملاحظة الامور التالية :

١ ـ ان ابن سعيد يفكر فى وضع كتاب كبير ويرسم له مخططا واسعا ،ثم ينشغل ويتطاول الزمن فاذا لم تسعفه الظروف العملية على تنفيذ الخطة تقاعس عن اتمامها ،بعد ان يكون قد اشار الى اسم الكتاب وفكرته فى مصنف سابق مما يؤدى الى ادخاله ضمن مؤلفاته الجاهزة •

٢ ـ وهو احيانا يختصر فكرته الى كتيب صغير اذا كانت الظروف ملحة كما فعل عندما اخرج "المرقصات" و " الرايات " لينوبا مؤقتا عن " المغرب " و " المشرق " فربما كانت معظم تلك الاسماء الواردة اشارة الى كتيبات من هذا النوع لم تتبع بالكتب الكبيرة الاصيلة •

٣ ـ نرى ان ابن سعيد يسمى كل فصل فى مؤلفاته " كتابا " وهذا من شأنه ان يؤدى الى ايهام النساخ والوراقين ـ فى حالة تبعثر الكتاب الشامل ـ بان كل فصل يمثل كتابا قائما بذاته •

٤ ـ <u>منهجه فى التأليف : طابعه وخصائصه :</u>

يبدو طبع ابن سعيد فى القرن السابع وكأنه نقطة التقاء وتوفيق بين عدة مذاهب فى التصنيف بل بين عدة فروع من المعرفة• ففيه التقى تيار التاريخ الادبى الاندلسى المتمثل فى الفتح بن خاقان وابن بسام وابن اليسع وابن الامام ،بتيار التصنيف الجغرافى الذى كان مستقلا فى مجراه ومتمثلا فى عبد الله بن عبد العزيز البكرى والشريف الادريسى وابن جبير • وهكذا نرى ربما لاول مرة فى تاريخ الثقافة الاندلسية عالما يجمع بعمق وشمول بين الجهود الادبية

---

١) ـ كشف الظنون ٦/١٠٨

٢) ـ المصدر السابق ٦/٢٩٦

وجهود الجغرافيـــــة والرحلات فيؤلف كتبا معتمدة فى الادب ،وكتابا معتمدة اخرى فى الجغرافية ،بل ويستطيع [illegible] ان يوفق بين لتيارين بدقة كما اظهر فى حسن تطبيقه لخطة المغرب وحسن ادراكه لمراميها واهدافها تلك الخطة التى قامت على دمج متين بين التاريخ الادبى والتصنيف الجغرافى ـ لالغرض التنويع والاستطراد ـ ولكن بقصـــد خلق منهج دقيق يضع الشعر والشاعر فى بيئته الجغرافية المحددة وفى زمانه الخاص وفى طبقـــة الاجتماعية المعنية • ولعل ابن سعيد فى الاندلس يمثل من حيث هذا الدمج ـ الظاهرة التى يمثلها ياقوت الحموى فى المشرق • فقد جمع هو الاخر بين الادب والجغرافية بشكل موسوعى ـ وان كان بطريقته الخاصة التى تختلف عن طريقة ابن سعيد ، خصوصا فيمايتعلق بكتاب " معجم البلدان " ومن الطريف ان الاثنين كانا يعيشان فى القرن السابع (وان كان ياقوت شهد جزءا من القرن السابق) وكأن ظاهرة الالتقاء بين التصنيف الادبى والتصنيف الجغرافى من المميزات الثقافية لهذا العصر بحيث ابرزت نفسها بشكـــل قوى واضح عند علميـــن مـــن كبار مصنفيه ،وفى المشرق والمغرب على حد سواء •

وفى حقل التصنيف الادبى نرى ابن سعيد ايضا يمثل مذهبين فى التصنيف • ففـــى المغرب سار على خطة التقسيم المكانى كما فعل ابن بسام فى الذخيرة ،ولكنه لم يسمح للسجع ان يضيع المادة العلمية الدقيقة الهائلة المتجمعـــة عنده فصب معلوماته فى اسلوب موجز دقيق لايتكلف سجعا ولاتحلية لفظية ،والواقع ان ذلك من فضائل المغرب الكبرى فبالرغم من ظهوره فى القرن السابع لم يسمح مكملة ابن سعيد لتلك الظاهرة الشكلية ان تسيطر عليه فهو برئ تماما من السجع عدا مقدمته •

غير ان ابن سعيد وفر براعته اللغوية وفنه النثرى لكتب اخرى فنراه فى " القدح " و " الغصون " يفتتح التراجم بمقدمة سجعية ذاكرا فيها محاسن المترجم به وافضالـــه كما فعل من قبله الفتح فى " المطمح " و " القلائد " وابن بسام فى " الذخيرة " وابن الامام فى " سمط الجمان " وحتى فى كتابى " القدح " و " الغصون " لم يؤثر السجع كثيرا على غزارة المادة العلمية فنرى العبارات المسجوعة ذاتها مليئة بالمعلومات المكثفة من مثل :

" شاعر مجيد ،وحبيب مجيد ،بيته في قرطاجنة من عمل مرسية مشهور ،وشعره يطوى الاقطار وذكره منشور ، وهو في نظمه طويل النفس منير القبس مقتدر على حوك الكلام مديد الباع في ميدان النظام ، لايخلو من الالفاظ المبتدعة ،والمعاني المولدة المخترعة ، رحل الى المغرب فاشتهرت له به قصائد ، لم يخل نظمها من فرائد ، ثم قصد هذه الحضرة العلية ، في الدولة الاميرية ، فكانت له امداح ،كطلوع انوار الصباح .. "(١)

فمن هذه المقدمة السجعية نستطيع ان نستخرج معلومات كثيرة عن المترجم به وموطنه ومذهبه في الشعر ورحلاته ومدائحه واتصالاته ،وذلك امر نادر في المقدمات السجعية الفارغة التي تحفل بها المصنفات القديمة ذات الصبغة الادبية عامة ،التي تمتاز بمبالغاتها وتضخيمها للمترجم بهم دون ان تقدم مادة تستحق الذكر. وهذه الصفة في مؤلفات ابن سعيد تستحق اعجاب الباحث الحديث بلا شك ، واذا جاز لنا ان نفسر عدم اسراف ابن سعيد في السجع المتكلف الفارغ رددنا ذلك الى تمكن الدقة العلمية ـ الجغرافية منه فهي تدعه يترك العنان لذوقه الادبي ولكنها لاتتركه يضحي بالمادة العلمية في سبيل عبارات منمقة.

هذا وقد لاحظنا ان ابن سعيد يعتمد على ثلاثة مصادر اساسية لمعلوماته : الكتب ، والرواية الشفوية ،والمشاهدة. وهذه المصادر الثلاثة مجتمعة تعطي المصنفات ابن سعيد اهمية بالغة . فباخذه من المصنفات القديمة يحفظ نبذا مهمة من مصادر اولية قد تتعرض للضياع ، وباعتماده على الرواية الشفوية يقدم المعلومات موثوقة باشرة من افواه الذين تتعلق بهم وهذا مايمتاز به " المغرب " و " القدح " على وجه العموم اما المشاهدة فان لها اهمية في الجغرافية من حيث وصف الطبيعة والعمران وازياء الناس وعاداتهم وهذا مافعله ابن سعيد في وصفه الاندلس بمقدمة " المغرب " ووصفه لمدينة مراكش والقاهرة والفسطاط .

ويتصف منهج ابن سعيد على العموم بالخصائص التالية :

---

١) ـ القدح ٢٠

١ — تحديده لخطته وغرضه بوضوح : عودنا ابن سعيد فى كل كتبه التى وردت الينا كاملة ان يحدد غرضه من تصنيف الكتاب وخطته فى التصنيف • فهويفعل ذلك فى " الرايات " و " المقتطف " و " المرقصات " و " المغرب " وهو فى الاغلب يتبع مايخطط بدقة •

٢ — دقته فى التقسيم والتبويب : وهذه ميزة بارزة فى مصنفات ابن سعيد • فهويقسم كتابه الى اجزاء رئيسية ثم يقسم تلك الاجزاء الى فصول وابواب حسيما يتطلبه الموضوع • ففى كتاب المغرب الخاص بالاندلس نراه يقسم الكتاب الى اقسامها الجغرافية الرئيسية • ثم يعود فيقسم تلك الاقسام الى ممالك والممالك الى مدن ، ويعتبر الحواضر عرائس لها منصتها وتيجانها وحليها واسلاكها واهدابها • وفى " المقتطف " نراه يقسم الكتاب حسب فصول السنة ثم يقسم الفصول الى خمائل بعد الشهور ، وفى " الغصون " نراه يقسم الكتاب حسب تواريخ الوفاة ،وفى المرقصات يتبع الترتيب المكانى والزمانى ،وفى " الرايات " يخضع لنهجه العام فى " المغرب " • وهذه الدقة فى التقسيم والتبويب تعكس ذهنيته المنظمة ،الميالة الى الدقة التفصيلية ،كما تعكس تأثره باتجاه الميل نحو التبويب الدقيق الذى كان سائدا فى حقل التصنيف عندئذ ،وهى من ناحية اخرى تظهر غرامه بالزخرف والتنميق كمافعل فى " الزاهر " المقتطف و "عرائس " المغرب•

٣ — حرصه على الاحاطة والشمول : يحرص ابن سعيد على ان تكون مصنفاته محيطة شاملة حتى المختصرة منها وهو بهذه النزعة يمثل الاتجاه السائد فى عصره ايضا ، فلقد كانت امام المؤلفين عندئذ مادة ضخمة تتوزع فى عالم واسع يمتد خلال تاريخ طويل حافل ، وكان لابد من الاحاطة والشمول لاعطاء الصورة كاملة• ويعبر ابن سعيد عن هذه النزعة فى نفسه حين يقول : "كلما شرعت فى مصنف لم تسمح نفسى بان اجعله صغيرا واخذ فى استيفاء ما اجتمع لى من مواده وابخل ان اسقط منها ••• " (١) •

٤ — حرصه على ذكر مصادره : هذه ظاهرة بارزة فى مؤلفات ابن سعيد الكبرى الهامة خاصة كالمغرب والقدح والغصون• فابن سعيد اما ان يذكر اسم الكتاب الذى ينقل منه او اسم الشخص الذى يورى عنه اويقول : شاهدت كذا •• او وقع لى كذا •• ويندر

---

١) — المقتطف ٢ — ٣

ان تجد خبرا فى مصنفات ابن سعيد الهامة غير مسند .

٥ ـ امانته وحياده : تتضح امانة ابن سعيد فى ذكره للوقائع مجردة حتى ولو لم فى صالح بلده او اسرته او اصدقائه المقربين او اساتذته . فنراه يورد قول ابن حوقل عن ضعة نفوس الاندلسيين وصغر عقولهم بالتفصيل ، وقبل ان يرد عليه يقول : " لم اربدا من اصبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدى فيه من الظلم والتعصب مالايخفى .. (١) " وهوعندما يترجم للاعمى المخزومى يورد له هجاء مقذعا فى اسرة بنى سعيد دون ان يعلق عليه (٢) وعندا يترجم لابن سهل الاسرائيلى نراه يسجل شكوكه حول عقيدته وان كان هويرغب الاتكون هذه الشكوك صحيحة (٣) . ويحاول قد رجهده ان ينصف من يترجم لهم فتراه يذكر مايشتهرون به من علم اوكرم اخلاق بجانب ما عرف عنهم من غفلة ، او بلاهة ،او قبح منظر ، او نقائص اخلاقية ودينية . ويروى ابن سعيد ان الملك الناصر سأله : " كيف يكون لسانك فيمن تذكر من الماضين والمعاصرين ؟ فاجابه : "عهدى(والدى) الى الا انقل فيما اضيفه ذم احد بنثر ولا بنظم ولا اصنع مثل ذلك لحنق على احد اولفضول لسان " (٤) .

ويبدو احيانا ان نذكر الواقع مجردا فيه اساة لمن يخصهم الامر غير ان اكثر الوقائع التى ذكرها ابن سعيد من هذا القبيل مكنتنا من فهم طبائع القوم ونفسياتهم . واذا كان ثمة مأخذ على ابن سعيد فى هذا المجال فهو اسرافه احيانا فى ذكر الفضائح الغلمانية لغرض الامتاع ليس غير دون ان تكون ففى الخبر فى حد ذاته اشارة لعلم لمترجم به وادبه . يتضح هذا المأخذ بشكله المضخم فى ترجمة ابن الياسمين فى " الغصون " (٥) اذاورد اخبارا تنضح بالفحش ويأباها الذوق واذاكانت تلك الاخبار مادة مفيدة لنا الان فان نشرها عندئذ فى كتاب ليس باقل من تشهير علنى فى شخص لم يمر عليه وفاته اكثر من ثلث قرن .

---

١) ـ النفح ١٩٧/١
٢) ـ الذيل المغرب ٢٢٦/١
٣) ـ القدح ٧٤
٤) ـ المقتطف ورقة ٣
٥) ـ الغصون ٤٢ ـ ٥٠

ولاندري ان كانت تلك الاخبار مرغوبة لدى الناس الى هذه الدرجة عندئذ او ان "حسن الرواية" سيطرعلى ابن سعيد بسبب ضخامته مروياته فاصبح لايقاوم الرغبة فى تسجيل كل ماحصل عليه من مادة. وايا كان الامر فان ابن سعيد عادة لايتعمد التشهير او الاساءة وربما كان مايذكره حقائق معروفة فى زمنه.

٦ ـ ميله الى التقييم والحكم : ولا يتبادر الى اذهاننا ان ذلك مناقض لما اوردناه عن امانته وحياده فان ابن سعيد يروى لنا كل شيء خيرا او شرا . ولكنه فى الوقت ذاته يحرص على ان ينقل لنا رأيه وانطباعه او تقييمه للشعر او الشخص او الخبر فهو مثلا يعلق على شعر استاذه الشلوبينى بقوله : " وشعره يعلد تقدمه فى العربية فى نهاية التخلف " (١) ويصف خلق استاذه البطليوسى ايضا بقوله : " ولم ار فى اشياخ الادب اصعب خلقا منه " (٢). ويصف خلق ابى الحجاج بن عتبه الوشاح قائلا : كان ظاهر الهوج ،وافر الانزعاج .. وكان مشاركا فى الطب والادب حائزا باسبابهما (٣) فتراه هنا يذكر رأيه فى الرجل ولكنه ينصفه بذكر مواهبه مما يدل على ان حكامه وتقييماته لاتمنعه من ذكر الحقيقة.

٥ ـ اهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

نوجز اهمية مصنفات ابن سعيد فيما يتعلق بالدراسات الحديثة ،فيما يلى :

١ ـ يعتبر كتابه المغرب اهم مصدر للادب لاندلسى عبرعصوره وخاصة فى عهد الموحدين فالمادة الشعرية الكبيرة التى يوردها والاخبار التاريخية والثقافية والعمرانية التى يذكرها تمثل مستندا اوليا هاما لاى دراسة للثقافة الاندلسية او الشعر الاندلسى او موشحات وازجل فى الاندلس.

٢ ـ ان كتابه "القدح" بمايعتمد عليه من رواية شفوية مباشرة يعتبر وثيقة هامة لدراسة الحركة الثقافية فى اشبيلية خاصة والاندلس عامة.

---

١) ـ المغرب ٢/ ١٢٩
٢) ـ المصدر السابق ١/ ١٦٩
٣) ـ القدح ١٦١

٣ — يمكن اعتبار كتابه " الغصون " فى طليعة المصادر التى يرجع اليها فى راسة دراسة الشعراء والعلماء الذين اورد تراجمهم بسبب اعتماده على عدة اصول اقدم منه بالاضافة الى الاستعانة بالرواية الشفوية .

٤ — نلاحظ ان ماذكره ابن خلدون فى مقدمته عن الموشحات — وهو من المراجع الهامة لدراسة الموشح الاندلسى — نقله ابن خلدون بدوره عن " المقتطف من ازاهر الطرف " لابن سعيد الذى استقاه من مسهب الحجارى ، وهو لم يصل الينا .

٥ — حفظ لنا ابن سعيد فى مصنفاته الجغرافية اقوالا لجغرافيين لم يصل اى شىء عنهم كابن فاطمة الذى تعتبر مصادر ابن سعيد المستند الاوحد لدراسته .

٦ — يمكن استخدام كتب ابن سعيد وخاصة المغرب (القسم الاندلسى والقسم المصرى) فى تحقيق المصادر القديمة التى اخذ منها كالاستيعاب والذخيرة وتاريخ ابن حيان ، وفى الوقت ذاته يمكن الاستفادة منها فى تحقيق المصادر التى الفت من بعده كصبح الاعشى ونفح الطيب .

واذا كانت مؤلفات ابن سعيد تمثل هذه الاهمية بالنسبة للباحث الحديث ، فان المصنفين القدامى لم يجدوها اقل فائدة او اهمية . وفى طليعة هؤلاء ابو الفداء والعمرى وابن دقماق والمقريزى والقلقشندى والمقرى . فقد اعتمد كل واحد من هؤلاء فى اعماله العلمية على مصنفات ابن سعيد ، فاعتمد ابو الفداء اعتمادا كبيرا فى كتابه " تقويم البلدان " على ماخلفه ابن سعيد من معلومات عن بلاد المغرب ، واذا كان ابو الفداء قد شك فى بعض ما نقله عنه فان ذلك لايقلل من اهمية المادة التى استقاها منه .

اما القلقشندى فانه اعتمد على ابن سعيد فى مؤلفاته الثلاثة : قلائد الجمان ، ونهاية الارب ، وموسوعته : صبح الاعشى ، خاصة فيمايتعلق بانساب الشعوب

.../..

والقبائل وفيما يختص بمواقع المدن (١) . واذا قلنا ان المغرب هو المصدر الاول والاوسع للنفح فانا لانتجاوز الحقيقة فالمواضع التى ينقل فيها المقرى عن ابن سعيد ويذكره كثيرة (٢) ، اما المواضع التى يغفل ذكره فيها فهى اكثر . ويشير الدكتور شوقى ضيف الى هذه المسألة قائلا : " وبمجرد ان يخرج هذا النص (اى المغرب) للباحثين سيرون رأى العين ان " نفح الطيب " اذا استثنينا مقدمة المقرى عن رحلته الى المشرق وبعض من ترجم لهم ممن حجوا البيت لحرام وماكتبه عن اخراج المسلمين من الاندلس ليس الا نقولا عن " المغرب " ... ونحن انما نلفت النظر الى ذلك ليتضح ان هذا النص يحمل بين دفتيه الاصل الحقيقى لما فى " نفح الطيب من اشعار الشعراء واخبارهم حتى ينتفع به فى اخراج نشرة جديدة " للنفح " تخلو من الاغلاط والاخطاء " (٣)

---

١) — انظر : القلقشندى ، قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، ص : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٢٢٠ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، وكذلك نهاية الارب ص : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٠١ ، وكذلك صبح الاعشى ج ٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٣٣٠ ، ٣٤٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ج ٤ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٤٩ ، ٣٢٠ ، ج ٥ ، ١٣٠ ، ٢١٥ ، ٤٠ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ٢٢٠ ، ٢٨٢ ، ٣٢٦ ، ٤٠٦

٢) — انظر نفح الطيب : ج ١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٦ ، ٢٦٧ ، ج ٣ ، ٣٠ — ٧٥ ، ج ٤ ، ١٠٥ ، ١٧١ ، ٢٨٢ ، ج ٥ ، ترجمة ابى جعفر ابن سعيد كلها ، ج ٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧١

٣) — مقدمة المغرب ص ١٩

وقد اكتسب ابن سعيد شهرة كبيرة بسبب مصنفاته الهامة ،فاحتفل به جميع من صنفوا له من القدماء فوصفه ابن الخطيب بانه " وسطى عقد بيته ،وعلم اهله ،المصنف ز،الاديب الرحال ،الاخبارى ،العجيب الشأن فى التجول فى الاقطار ومداخله الاعيان للتمتع بالخزائن العلمية ،وتقييد الفوائد المشرقية (٢) " . وقال عنه المقرى : " اديب زمانه غير مدافع من اعترف له اهل المشرق بالسبق واهل المغرب بالابداع ... "(٣) واورد ابن فرحون فى ديباجه الخاص بعلماء المالكية ترجمته اجلالا لمكانته العلمية (٤) . ووصفه ابن فضل الله العمرى بانه " اديب مبدع ، ولبيب ممتع ... وكان اجم من البحر امدادا ... وله الكلام الصافى البرود ... " (٥) .

وشارك الباحثون المحدثون القدماء فى تقديرهم لابن سعيد فهذا الدكتور زكى محمد حسن يشير الى ان ابن سعيد يعتبر ادق مؤرخى القرون الوسطى من حيث اسناد رواياته فيقول : " ابن سعيد مثال يحتذى به فى هذه الناحية ... واذا تذكرنا ان ذكر المصادر كان نادرا بين المؤرخين الاغريق والرومان ... قدرنا هذا الفضل للمؤرخين المسلمين ، ولا سيما لمن كان منهم مثالا طيبا فى هذا الميدان كعلى بن موسى بن سعيد " (٦) .

ويعتبر المستشرق هاملتون جب ابن سعيد مثالا للمؤرخين المغاربة الذين امتازوا بحيادهم ودقتهم : "... واشد التواريخ العامة المتأخرة بالعربية اهمية لتدوين التاريخ كتبت فى الاندلس والمغرب ،واذا قارنا

---

٢) ـ النفح ٣/ ٣٩

٣) ـ المصدر السابق ٣٥

٤) ـ الديباج المذهب ٢٠٨ ـ ٢٠٩

٥) ـ مسالك الابصار ح ٨ ، ورقة ٣٨٢

٦) ـ مقدمة المغرب (قسم مصر) : م ٣٧

بما كتب فى زمنها فى المشرق نجد لـــدى كتاب المغرب مفهوما اوسع للتاريـــخ وتصـــورا اقل تحيـــزا • ولم يبق من الكتب التاريخيـــة الكثيرة التى الفها ابن سعيد المغربـــى •••• الا اجزاء متفرقـــة ،ولكنها تكفـــى لان تبين لنـا انه اعتمـــد فى كتابتها نسخـــا دقيقـــة عديدة عن كثيـــر من الكتب السابقـة " (١) •

ويتحدث المستشرق كراتشكوفسكى عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافيـــة ،ثم يقول : " وكل هذه الاعتبارات ••• تقف دليـــلا على ان جغرافيـــا ابن سعيد تستحق اهتمـــام الكثير البحاثـــة المعاصرين ••• " اذ لم يكن ابن سعيد " مؤلفـــا مغمـــورا ســـــواء عند العرب او العلماء الاوروبيين ••• " (٢) •

والواقـــع اننا اذا لاحظنا ان ابن سعيد لايتمتع بالشهـــرة التى يستحقها فى الوقت الحاضـــر فان ذلك راجع بالدرجـــة الاولى الى ان اهم مصنفاتـــه طبعت فى فتـــرة متأخـــرة مما لم يتح المجـــال الكافـــى لرواج ذكره فى اوساط دارســـى الادب ومحبيـــه •

x x x

---

١) ــ هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ،ص ١٦٧

٢) ــ كراتشكوفسكى : الادب الجغرافى العربى ،ص ٣٥٩

الفصل الرابع

ابن سعيد الرحالة الجغرافي

١ ــ مصادر دراسة جغرافية

٢ ــ جهوده الجغرافية وأنواعها

ــ الجغرافيا الادبية عند ابن سعيد

ــ أدب الرحلة عند ابن سعيد

ــ التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد

(١) مصادر دراسة جغرافيـــة

ان أى دراسة شاملة ومستفيضة لجغرافية ابن سعيد لابد وأن تستند الى المصادر الاساسية التالية :

١ . المقدمات الجغرافية التي صدّر بها "المغرب" و "المشرق"، فقد قدّم للقسم الاندلسي من "المغرب" بمقدمة جغرافية مسهبة تعد وثيقة هامة للتعرف الى أحوال الاندلس الطبيعية والعمرانية والبشرية والاجتماعية والثقافة، وهذه المقدمة احتفظ لنا المقرى باجزاء منها في الباب الاول من النفح وكان جل اعتماده عليها في تبيان فضائل الاندلس (١).

أما مقدمته "للمشرق" فقد تضمنت نبذة جغرافية في صورة الارض وأقاليمها السبعة كما مهّد للقسم الخاص بجزيرة العرب من الكتاب بوصف جغرافي لها (٢). يضاف الى ذلك النبذ الادبية ـ الجغرافية القصيرة التي كان يعرّف بها كل مدينة يبدأ التحدث عنها في المغرب وذلك تحت عنوان "المنصة" اذا كان حاضرة كبرى او بعنوان "البساط" اذا كانت مدينة عادية .

٢ . مذكرات رحلته الى الفسطاط والقاهرة (٣). وهذه المذكرات تتدرج من الناحية الشكلية تحت "منصة" مدينتي الفسطاط والقاهرة وكان من الممكن اعتبارها من ضمن تعريفاته الجغرافية ـ الادبية للمدن ولكن حجم هذه المذكرات واهميتها يجعلان منها اكثر من مجرد تعريف جغرافي ـ أدبي موجز .

٣ . كتبه الجغرافية الخالصة : وقد وردت اسماء ثلاثة منها وهي كتاب الجغرافيا في الاقاليم السبعة وكتاب وصف الكون، وكتاب بسط الارض في الطول والعرض. والكتاب الاول ـ ويبدو انه الاصلي ـ لانعرف عنه شيئا . أما الثاني ـ وهو المعروف بوصف الكون ـ فتوجد منه مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطاني . وهذا الكتاب اختصار

---

١) النفح ١/ ١٢٤ـ٢١٣

٢) المشرق، الاوراق ٩ـ٢٦، ٢٨ـ٥٦ (نسخة مصورة)

٣) المغرب (قسم مصر) ٥ـ١١، وكذلك النفح ٣/ ١٠٣ـ١١٤

عن الاول، وهو يضم خريطة دقيقة وغنية بالاسماء الجغرافية [١] وأما الثالث ــ وهو بسط الارض في الطول والعرض ــ فهو مطبوع [٢]، ويعتقد انه من مختصرات الكتاب الاول ايضا الا انه أقل جودة من " وصف الكون " [٣]. وهكذا فنحن أمام كتاب جغرافي كبير ومختصرات متفرعة عنه، ويشير المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الى ان " المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لايمكن القول بانها قد حلت تماما .. (و) .. عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا يقف حجر عثرة في سبيل دراسته دراسة صحيحة " [٤] والواقع ان هذا الكتاب ومختصراته هي المصادر الاولى لدراسة المنحى الجغرافي الخالص عند ابن سعيد، الذى استقل عن منحاه الادبي وأصبح جهدا قائما بذاته .

هذا ولم اتمكن من الاطلاع الا على الكتاب الاخير المطبوع وهو كتاب " بسط الارض في الطول والعرض " . وعليه فلهذا السبب ونظرا لان الدراسة الجغرافية العلمية خارج مقدور دراستي هذه، فان هذا الفصل عن جغرافية ابن سعيد سيهتم بالتعريف بجهود ابن سعيد الجغرافية والتنبيه على مكانته، دون ان يلتزم بنقد أو تقويم فيما يتعلق باعماله الجغرافية العلمية الخالصة .

أما ما اندرج من كتاباته الجغرافية ضمن " الوصف العام " او " أدب الرحلة " فسأعالجه بشيء من التحليل قدر المستطاع .

(٢) جهوده الجغرافية وأنواعها

لاحظنا ان المصادر لدراسة جغرافيته تنقسم الى ثلاث فئات : مايندرج تحت الوصف الادبي المطعّم باشارات جغرافية، ومايدخل ضمن أدب الرحلة، ومايعتبر تصنيفا علميا في نطاق الجغرافية الخالصة، والواقع ان انقسام تلك المصادر الى هذه الفئات الثلاث مرده

---

١) و. A.Kammerer: La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie Etc. I, p.48 et pl.XII.

٢) حققه الدكتور خ .ف. خينيس ونشر في تطوان سنة ١٩٥٨

٣) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١/٣٥٨، وكذلك مقدمة " المغرب ــ قسم مصر " ص م ٢١

٤) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١/٣٥٧ ــ ٣٥٨

الى هذا التنوع الثلاثي في جهوده الجغرافية : فهو حينا أديب يصف مظهرا جغرافيا ، وهو حينا آخر رحالة يسجل لنا انطباعاته المختلفة عما يراه في رحلاته ، وهو تارة أخرى عالم جغرافي مدقق يرسم لنا صورة الارض وأقاليمها واجزاء هذه الاقاليم بدقة علمية لا تتأثر بتعبير أدبي وصفي غائم ولا بانطباعاته الشخصية . وسنتناول فيما يلي كل فئة من هذه الفئات على حدة .

١ ـ الجغرافيا الادبية عند ابن سعيد

راينا كيف ان التصور الجغرافي كان داخلا في صلب خطة كتاب " المغرب "، الذى وصفناه بانه المدرسة الكبرى لابن سعيد ، وقد مر بنا كيف ان هذا التصور الجغرافي جاء الى المغرب عن طريق كتاب الحجارى، " المسهب "، الذى وصفه ابن سعيد بانه أول مصنف من نوعه في تاريخ الادب الاندلسي . وسنرى هنا ان ابن سعيد سيعتمد اعتمادا كبيرا على ماكتبه الحجارى عن اوصاف المدن الاندلسية مما يؤكد وجود ميل جغرافي قوى في الكتاب المذكور .

وأهم أثر لابن سعيد في نطاق الجغرافيا الادبية هو مقدمته للقسم الاندلسي من كتاب " المغرب " . فهذه المقدمة لو اعيد ترتيب اجزائها حسب قواعد البحث العلمي الحديث لما كان من المبالغة وصفها بانها " مقالة حضارية شاملة " عن الاندلس .

حقا ان ابن سعيد نقل عن غيره من المؤرخين والجغرافيين ولكن الملاحظات الشخصية التي ابداها على جانب عظيم من الاهمية ، وقد تجاوزت هذه الملاحظات نطاق الوصف الجغرافي لتعطينا صورة عن طباع الاندلسيين وأزيائهم وعاداتهم وحالتهم الثقافية وأوضاعهم الاجتماعية مما يجعلها تقارب حدود النظرات الداخلة في " علم الاجتماع " . وأرى ان أى بحث عن جغرافية ابن سعيد لا يعرض لهذه المقدمة يتسم بالنقص والتقصير .

تبدأ هذه المقدمة بتحديد موقع الاندلس ومساحتها وحدودها ومظاهر مناخها . وابن سعيد في معلوماته عن ذلك ينقل عن الادريسي الذى يسميه " الشريف " وعن أحمد بن محمد بن موسى الرازى كما يورد روايات شفوية عن " جماعة من علماء هذا الشأن " [1] . وبعد

---

١) النفح ١/١٢٦ ـ ١٢٧

ذلك يعرض للتاريخ البشرى والسياسي والحربي والعمراني للاندلس فيذكر اول من سكن الاندلس والدول التي حكمتها مارا بحروب الفتح شافعا كل ذلك باشارات الى المظاهر العمرانية في الاندلس ماتم منها قبل الفتح وما أنشأه العرب بعد ذلك . وبعد هذا التعميم يأخذ في الحديث عن المدن الاندلسية مدينة مدينة ـ ضمن هذه المقدمة، أى قبل المباشرة في فصول الكتاب الاخرى ـ بقصد اعطاء صورة موجزة عن اهمية كل واحدة منها . ثم يعود الى الحديث العام فيذكر الجوانب الاقتصادية من ثروة زراعية ومعدنية ويأتي بتفصيلات دقيقة عن الصناعات الاندلسية مشيرا الى مراكزها الصناعية وانواع تخصصها :

" والى مصنوعات الاندلس ينتهي التفضيل، ... فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق اذا رأوا منه شيئا، وتنتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالي في ثمنها بالمشرق، ويصنع في غرناطة وبسطه من ثياب اللباس المحررة الصنف الذى يعرف بالملبد المختم ذو الالوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الاسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندى مايبهر العقل، ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد أفريقية وغيرها."(١)

ويواصل ذكر انواع الصناعات الاخرى من زجاج عجيب وفخّار مزجج مذهّب وفسيفساء وآلات حرب شافعا ذلك باشارات مهمة الى العلاقات التجارية بين افريقيا والاندلس العربية والامارات الاسبانية . وغني عن البيان ان هذه المعلومات الاقتصادية والتجارية هي مادة لأى بحث تاريخي ـ اقتصادى عن هذه المنطقة من العالم في ذلك العصر .

هذا ومن الملاحظ ان المقرى لم يورد مقدمة ابن سعيد في نسق واحد كما رتبها المؤلف نفسه ، اذ يبدو انه قدم فيها وأخّر وأدخل ضمنها نقولا عن كتاب سابقين ولاحقين مما أخل بمظهرها بعض الشئ وان لم يؤثر ذلك في قيمة الآراء والمعلومات التي تضمنتها . ومن الامور التي نقلها المقرى كاملة تقريبا رد ابن سعيد على أقوال ابن حوقل عن الاندلس.

---

١) النفح ١/١٢٦ ـ ١٢٧

٢) النفح ١/١٨٧ ـ ١٨٨

فقد ابدى ابن حوقل، الذى زار الاندلس في القرن الرابع عند ما كانت في ظل الامويين، استغرابه لاحتفاظ هذه البلاد باستقلالها رغم مالاحظه في اهلها من "صغر أحلام وضعة نفوس، ونقص عقول، وبعد عن البأس والشجاعة" ...[1] وهنا يرد ابن سعيد مستندا الى تاريخ الاندلس الطويل الذى حفل بحركات مقاومة مستمرة ضد "أعدائها المجاورين". وينتقل من ذلك الى عرض متمعن لمراحل التاريخ الاندلسي ــ لتحليل أسباب النكبة ــ فيذكر عهد الامية الموحدة وعظمته وكيف جاءت "الفتنة" لتقضي عليه وتؤدى الى نشوء "الممالك المتفرقة"[2]. ثم يتحدث عن عصر الموحدين بفهم عميق فيشير الى انه كان عصر هدوء في مظهره أما في الباطن فقد كانت النفوس قلقة ثائرة:

"... فصعب ضبطهم الى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع الى ان انقادوا الى عبد المؤمن وبنيه، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوار في المعاقل تثور، وتروم الكرّة..". ويصف عهد ابن هود بشعور أندلسيٍّ "مشفق وبألم ظاهر لا تخفيه الحقائق التاريخية التي يوردها: "الى ان ثار ابن هود، وتلقب بالمتوكل، ووجد القلوب منحرفة عن بر العدوة، مهيأة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأى، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة، يمشي في الاسواق ويضحك في وجوههم ويبادر بالسؤال، وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ... فآل ذلك الى تلف القواعد العظيمة.."[3]

وواضح ان هذا العرض التاريخي يتعدى السرد السطحي للاحداث لينفذ الى تبيان الاسباب ويقدم التفسيرات، الى جانب مايكشفه من شعور مصنّف اشتهر بنزاهته أزاء دولة ابن هود. ويختم ابن سعيد ذلك باشارة بارعة الى نفسية الاندلسيين السياسية عند ما يذكر قلقهم السياسي وعدم القدرة على الانضباط وجريهم خلف كل من يظهر شجاعة وحماسة

---

١) يرى الباحثون ان ابن حوقل كان من عيون الفاطميين وان قوله هذا لايخلو من مغزى سياسي. (غير ان هذا الرأى الذى جاء به دوزى تعرض لشيء من التشكيك في نظر ليفي بروفنسال، انظر: تاريخ الادب الجغرافي العربي ١/ ٢٠٤)

٢) يقصد "بالفتنة" الفتنة البربرية التي وقعت سنة ٤٠٠ هـ، أما الممالك المتفرقة فالمراد بها دول ملوك الطوائف

٣) النفح ١/ ٢٠٠

من الجند ويقارن هذه الناحية بالوضع في المشرق حيث انظمة الحكم مستقرة ويخلص من هذه المقارنة بأن " أهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذى يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع" (١)

وبعد الحديث عن التاريخ السياسي يعرض ابن سعيد لمظاهر الحكم المختلفة في الاندلس من وزارة وكتابة واعمال خراج وقضاء وخطة شرطة وخطة احتساب وخطة طواف بالليل في ايجاز لا يخلو من اشارات تاريخية حية لها دلالتها الهامة عند الدارس الحديث. فها هو يتحدث عن خطة الاحتساب بقوله : " وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في اهل العلم والفطن، وكأن صاحبها قاض، والعادة فيه ان يمشي بنفسه راكبا على الاسواق واعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز في يد أحد الاعوان، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان : للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثمن، وفي ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبي الصغير او الجارية الرعناء فيستوبان فيما يأتيانه من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ... "(٢)

ثم يحدثنا عن ظاهرة الجريمة في الاندلس وكيف ان " شطارها " ماهرون في امور التلصص وفتح الاقفال وكيف انهم ميالون الى العنف والقتل لتيسير اعمال سرقاتهم، وكيف ان العقاب الصارم لم يجد نفعا في الحد من انتشار الجريمة حتى " آل الحال عندهم الى ان قتلوا على عنقود سرقة شخص من كرم وما اشبه ذلك، ولم ينته اللصوص"(٣)

وبعدها يأتي الحديث عن الظاهرة الدينية في الاندلس فيشير ابن سعيد الى تمسك الاندلسيين بالدين ومحافظتهم عليه وتشددهم في ذلك حتى مع ملوكهم وقضاتهم، ويغمز المشارقة من طرف خفي عندما يقول ان تدين الاندلسيين لم يدفعهم الى الدروزة المتعقدة عن الكد كما حدث في المشرق. ونلاحظ ان حس المقارنة عند ابن سعيد حي يقظ فهو يقارن بين الاختلافات في الدين والاخلاق والسياسة بنظر ثاقب.

---

١) النفح ١/ ٢٠١
٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٣
٣) المصدر السابق ١/ ٢٠٤

وفي ختام المقدمة يأتي الى الحديث عن مظاهر الثقافة الاندلسية حيث يظهر كثيرا من النظرات الصائبة التي يشاركه فيها كثير من الباحثين المحدثين . فمن الامور التي يشير اليها احترام الاندلسيين لكل صاحب علم ولو كان علمه العاما بحرفة بسيطة " فالجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه ان يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم في نهاية القبح .. " . ويتحدث عن مسألة التعليم المأجور الذى تميز به الاندلسيون عن المشارقة وعن حبهم للعلم بذاته لا توسلا به لوظيفة : " .. ليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لان يعلموا لا لان يأخذوا جاريا (اى راتبا او معاشا) .. "، وينبه الى وضع الفلسفة الحرج في المجتمع الاندلسي : " .. وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم، فان لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة، فانه كلما قيل :فلان يقرأ الفلسفة، أطلقت عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه .. " (١) ويتبع ذلك باشارة الى المكانة الرفيعة التي تمتاز بها الدراسات الدينية : " وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة .. " ويواصل اشاراته الى خصائص الثقافة الاندلسية : " والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة .. وعلم الاصول عندهم متوسط الحال ... والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب واخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ... وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات انبل علم عندهم،(٢) وبه يتقرب من .. ملوكهم .. ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو عقل مستثقل .. والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ... "(٣)

ويربط ابن سعيد بين بعض فروع الثقافة ومظاهر نفسية معينة في اشارة بارعة يندر وجودها في مصنفات الادب القديمة : " واذا كان الشخص بالاندلس نحويا او شاعرا

---

١) المصدر السابق ١ / ٢٠٥

٢) أشرت الى ان ابن سعيد اعتنى بهذا النوع من الثقافة اعتناء خاصا عند الحديث عن حدود علمه واتجاهاته . ولعل في هذه الاشارة والعبارة التي تليها مايفسر لنا احد الاسباب التي دفعته الى ذلك .

٣) النفح ١ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧

فانه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها ٠٠ "٠

واذا علمنا ان ابن سعيد يورد هذا القول في مجال تعداد محاسن الاندلس أدركنا مدى التزام هذا المصنف بالحياد والامانة٠

ويختم ابن سعيد حديثه بذكر أزياء الاندلسيين وبعض عاداتهم الاجتماعية٠ تراه يعقد مقارنة هنا في اختلاف التقاليد بين غرب الاندلس وشرقها : " وأما زى اهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الاندلس، فان اهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا اليه الا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ٠٠ "(١) وترى هذه الاشارة الهامة ضمن الحديث عن الزى : " ٠٠ وكثيرا مايتزيا سلاطينهم واجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، واقبيتهم ٠٠٠ كاقبيتهم٠ وكذلك اعلامهم وسروجهم ٠٠ "(٢)، وهو تنبه دقيق الى التاثر والتاثير في ناحية لا يلتفت اليها كثير من المؤرخين القدامى٠ ثم انظر اليه يحدد بتفصيل طريف مظاهر الاناقة واختلاف الطبقات الاجتماعية والفئات الدينية في ذلك، ثم الفرق بين الاناقة الاندلسية والاناقة المشرقية : " ولا تجد في خواص الاندلس واكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، الا انه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون، وغفائر الصوف كثيرا مايلبسونها حمرا وخضرا، والصفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل ليهودى ان يتعمم، وانما يسدلونها تحت الاذن اليسرى، وهذه الاوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها اهل الاندلس، وان رأوا في راس مشرقي داخل الى بلادهم شكلا منها اظهروا التعجب والاستظراف، ولا ياخذون انفسهم بتعليمها، لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا اوضاع غيرهم ٠٠٠ " فتأمل اولا في هذه التفاصيل الدقيقة عن الزى، ثم انظر ثانيا لباقة ابن سعيد في التعبير عن نظرة الاندلسيين الى زى المشارقة — وهذه المقدمة سيقرأها المشارقة قبل غيرهم — فهو يعبر عن شعور مواطنيه ازاء مايخالف تقاليدهم في اللبس بانه "تعجب واستظراف" مما يدل على اللياقة وسعة الافق، ولو ان مؤلفا تنقصه لباقة ابن سعيد ويتملكه الهوى الاقليمي

---

١) ~~المصدر السابق~~ النفح ١/٢٠٧

٢) ~~النفح~~ المصدر السابق ١/٢٠٧

الاقليمي غير المتزن لوجد في هذه المناسبة فرصة للتشنيع على المشارقة [1]. ولا تفوتنك أخيرا ملاحظة التعبير الواعي عن الاحساس بالشخصية الاندلسية المستقلة التي تستظرف ماعند الغير ولكنها لم تعتد ولا تستحسن الا اوضاعها الخاصة!

وأنا لست بصدد الزعم هنا ان كل هذه الآراء والاحكام من عند ابن سعيد فمما لاشك فيه انه يورد آراء لغيره ... ولكن صياغته لهذه المقدمة بالاسلوب الرصين الذى لمسناه والتركيز على القضايا المهمة في الظواهر الحضارية وعرضها بعمق ودقة يدل على أصالة في تفكيره وعلى حسن ادراكه لجوهر الامور وعدم تشتت بحثه بين ركام الامور التفصيلية والروايات الهزيلة التي تشغل عادة قدامى المصنفين. ومن نافلة القول الاشارة هنا الى ان اى بحث مسؤول عن الحضارة الاندلسية لايمكنه ان يتجاهل او يغفل هذه المقدمة على ايجازها. وأرى لو ان ابن سعيد استفاد من منهجه هذا في تأليف بحث مطول عن الاندلس ــ وأظن انه كان بمقدوره ان يفعل ذلك ــ اذن لأغنى الجهد الجغرافي ــ التاريخي في التراث الاندلسي ولحقق لنفسه مكانة أرفع من مكانته الحالية. ولا أدرى ان كان الدكتور زكي محمد حسن قد أدخل في اعتباره هذه المقدمة عندما أثار هذه التساؤلات حول قيمة المغرب وأجاب عليها كلها بالنفي: هل خلا "المغرب" من العيب الاساسي الذى نلمسه في معظم تصانيف التاريخ التي كتبها المسلمون من حيث انها سرد او اختصار لنصوص او كتب الفها اسلافهم؟ هل امتاز اصحاب المغرب عن غيرهم.. بالبعد عن تصديق كل الروايات التي تصل اليهم...؟ هل خالف اصحاب المغرب غيرهم من المؤرخين في الاقبال على نسج الهبوط من القصص بغير ترتيب تاريخي او منهج علمي؟ هل يستوى "المغرب" ومؤرخو اصحاب كالبلاذرى في البحث عن الحقائق التاريخية الدقيقة...؟ هل يضارع أصحاب المغرب مؤرخا كابن مسكويه في معرفة أساليب الادارة الاسلامية، وفي الحصول على الروايات التاريخية من المصادر العليمة، وفي ربط الاسباب والنتائج وفي العناية بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية، وفي البعد عن التعصب وفي العيل عن الهوى؟... هل بلغ أصحاب "المغرب" الى ما انفرد به البيروني من

---

١) كما فعل العبدرى مثلا في "رحلته"، انظر: الدكتور صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والاندلسيين ص ٧٠ ــ ٨٣

من اكتساب ثقافة جديدة على الثقافة العربية ؟ .. هل يمكن ان يُعدّوا نظراء لمؤرخ كابن خلدون ؟ (١)

والواقع اننا برجوعنا الى مالاحظناه من منهج ابن سعيد وتأملنا في تلك المقدمة، نرى ان الاجابة على كل هذه الاسئلة بالنفي يعوزها الانصاف.. وأظن ان الدكتور زكي محمد حسن كان يضع في ذهنه القسم التاريخي العصري من "المغرب" وهو الذي نقله ابن سعيد نصا عن مؤرخين مصريين سابقين لزمنه . أما مغرب الاندلس ومقدمته بالذات فلهما — كما رأينا — مكانة افضل .

أما المقدمة الجغرافية لكتاب المشرق فهي أقل قيمة بلاشك من مقدمة "المغرب"، وقد قسم فيها العالم المعمور الى سبعة أقاليم وتحدث عما يوجد من أقطار في كل اقليم وكان ينقل عن بطليموس من خلال كتاب الادريسي الذي يسميه كتاب "أجار" او "رجار" — وقد اوردت الاشارة عنها هنا لانها جاءت في اطار كتاب المشرق، المصنف الادبي الشعري، وهي في الحقيقة امتداد لتصوراته الجغرافية التي تندرج ضمن علم الجغرافية المحض.

ومما يمثل امتزاج الادب والجغرافية عنده أفضل تمثيل تلك النبذ التي اوردها في "منصات" او "بسط" المدائن الاندلسية . ولربما مثلت هذه النبذ النماذج الاولى من تدرج الحس الجغرافي عنده حيث كان مولودا ناميا في ظل ثقافته الادبية الشعرية . فهو في هذه القطع لايحدد في الاغلب موقع المدينة حسب خطوط الطول والعرض او حسب المسافات ولايلتفت كثيرا الى الخواص المعدنية والنباتية، بل اكثر مايهمه مايمكن تسميته بالانطباعات "السياحية" ان صح التعبير كمنظر المدينة العمراني العام ومايوجد فيها من مناز وفرج . وهو يسهب احيانا في وصف المدن التي يحب وقد يستشهد بقصيدة او موشح لشاعر من شعرائها في التغني بجمالها ، واكثر نقول ابن سعيد في هذا المجال عن مسهب الحجاري وعن كتابات أحمد بن محمد بن موسى الرازي (٢٧٤ — ٣٢٤).

فمن نماذج وصفه الجغرافي الادبي للمدن ايراده مايلي عن مدينة بسطة : "بسطة

---

١) انظر مقدمة "المغرب" — قسم مصر — ص ص ٤١ — ٤٢

مما آتاه الله في الحسن بسطة . لها خارج يأخذ بالاعين والانفس وفيها يقول شعبان الغزى واليها :

سقى الله صوب الغيث أكناف بسطة ففيها انبساط النفس والعين والقلب "(١)

الا انه يظهر دقة اكثر في بعض الاحيان، فيها هو يصف مدينة برجة من مملكة المرية وصفا أدبيا ولكنه يمر مرورا خاطفا بخاصية جغرافية : "كان والدى متولعا بالفرجة فيها ، لما خصها الله به من حسن المنظر، أخبرني ان الجنات محدقة بها ، وهي على نهر بهيج ، يعرف بوادى عذراء ، وفيها الفواكه الجليلة، ولها معدن الرصاص"(٢) وقد يصل وصفه الى تعريف جغرافي على قدر لا بأس به من الدقة ولكنه في هذه الحالات يكون ناقلا عن مسهب الحجارى، يقول في وصف طليطلة : "انها احدى المدن الاربع التي بنيت في مدة قيصر اكتبيان (اكتافيوس) وهي في الاقليم الخامس موسطة، منها الى الحاجز الذى هو درب الاندلس نحو نصف شهر، وكذلك الى البحر المحيط ... وفيها من ضروب التركيب والفلاحة ماتفضل به غيرها ، وابن بصال صاحب الفلاحة فيها ... ويصنع فيها من آلات الحرب العجائب .. "(٣). ومن المدن التي وصفها وصفا شاملا حوى الخواص الجغرافية وذكر المنازه والاستشهاد بالشعر غرناطة(٤) وبلنسية (٥) ويبدو انه يتأثر بالعادة التي بين يديه كما ان شهرة المدينة لها أثر في تقرير حجم التعريف ونوعه .

ومن اعماله الجغرافية ــ الادبية كتابه "الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة" وهو مقارنة تقوم على الاستفادة من المعلومات الجغرافية في اقامة مناظرة بين المغرب والمشرق . وقد استغل ابن سعيد في هذا الكتاب مادته الجغرافية ليقارن بين عمارة المشرق والمغرب وامتدادهما ، واهم مايلفت النظر في المقاطع التي اوردها

---

١) المغرب ٢/٧٧
٢) المصدر السابق ٢/٢٢٨
٣) المصدر السابق ٢/٨ ــ ٩
٤) المصدر السابق ٢/١٠٢ ــ ١٠٥
٥) المصدر السابق ٢/٢٩٧

العمري في " المسالك " ـ وهو يرد على ابن سعيد ـ مقارنة ابن سعيد بين اخلاق المغاربة القائمة على المصارحة والمكاشفة وعدم الخضوع للمظاهر الشكلية في الحياة الاجتماعية وبين اخلاق المشارقة الذين يميلون الى نوع من الرياء والملق في المعاملة والى اهتمام بالمظهر دون المخبر في مواكبهم ولباسهم ومساكنهم (١).

(٢) أدب الرحلة عند ابن سعيد

ان النموذج الوحيد الذى وصلنا في هذا المجال هو وصف ابن سعيد للفسطاط والقاهرة، وربما كان في " الرحلة المكية " و " عدة المستنجز " نماذج اخرى ولكن هذين الكتابين لم يصلانا .

وقد اورد ابن سعيد مذكراته تلك عن الفسطاط والقاهرة (٢) في باب " المنصة " على عادته في كتاب المغرب . الا ان ماورده عن المدينتين المصريتين تجاوز حد التعريف الجغرافي، الادبي، الوصفي الذى مررنا بنماذج منه قبل قليل ليدخل في نطاق المذكرات السياحية المسهبة التي يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر أدب الرحلة . والواقع ان ابن سعيد في هذه المذكرات كان مراقبا بصيرا اكثر منه سائحا عابرا وان كان قد جمع بين مايهتم به الاول ومايلفت انتباه الثاني . واول مايلفت انتباه القارئ في هذه المذكرات البساطة والصراحة والواقعية ووضوح التعبير عن الانطباعات الذاتية : يخبرنا ابن سعيد ـ فيما يختص بالفسطاط ـ انه كان قبل زيارتها في حيرة من أمرها فما يسمعه عنها من الرحالين والحجاج يتصف بقلة " اتفاق الاغراض وتشتت الاهواء "، وعندما اراد التوجه اليها من القاهرة رأى الناس ـ ومن بينهم الفقهاء ذوو الشارات ـ يركبون اليها الحمير . وهنا يسجل ابن سعيد ازوراره اولا عن هذه الطريقة التي لم يعهدها في المغرب، واقتناعه ثانيا باللجوء

---

١) مسالك الابصار ٩ /ورقة ١٠٤ ومابعدها، وكذلك النفح ١٩٦/١
٢) المغرب (قسم مصر) : ٥ ـ ١١، النفح ١٠٣/٣ ـ ١١٤

اليها وسقوطه ثالثا عن ظهر الحمار " الطيار " واتساخ ملابسه . وباعتباره سائحا مهذبا ، نراه ينقد المكارى ـ الذى لم يرفق به ـ أجره ويطلب منه ان "يحسن" اليه بتركه ماشيا !

ويبدو انه بينما كان يقطع مسافة الميلين بين القاهرة والفسطاط ألّف أربعة أبيات في وصف الحادثة (وسجلها لنا في مذكراته) ، ثم واصل سيره لدخول المدينة . وبذوق اشبيلي مرهف اخذ يحدق في الاسوار الكريهة السوداء والطرقات القذرة والجامع الذى اصبح ممرا للعامة وسوقا لبيع الكعك والمكسرات . فانقبضت نفسه من منظر الاسوار والطرقات وحركة الازدحام ، ولكن تدينه المغربي لم يدعه يزور عن منظر الجامع الذى نسج العنكبوت على اركانه وحيطانه وخط العامة على جدرانه كتابات قبيحة بالفحم ، فاذا به يشعر فيه بانبساط وارتياح لاشئ الا لأنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد وقفوا في صدر الاسلام بساحته .

ويواصل ابن سعيد سيره فلا يرى على النيل سورا ابيض كما هو الحال في اشبيلية ولكن ماءه ينال اعجابه اذ لم يذق مثله قط . وفي الليل ينام في " طيارة " ـ اى قارب كبير في النيل ـ ويصفو الجو فينظم ابياتا في وصفه .

بعد هذه " الانطباعات الاولية " يتدرج بنا ابن سعيد الى دائرة اعمق واذا بالسائح الذى ينقل لنا مشاعره الذاتية يحدثنا حديث المتأمل في طبائع الناس واذا به يستخرج الخاصية الرئيسية لاهل تلك البلاد الصديقة المرحة : وجملة الحال ان اهل الفسطاط في نهاية من اللطافة ولين الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة المعازجة والالفة مايطول ذكره "[1] وبعد ان يحدثنا عن كرم بعض من تعرف اليهم ورعايتهم ، ينتقل بنا مرة اخرى الى دائرة ثالثة ، فاذا به الجغرافي الذى يعتني بظواهر التجارة والاقتصاد : " واما مايرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني (اى المتوسط) والبحر الحجازى (الاحمر) فانه فوق مايوصف . . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون " ويقارن ابن سعيد

---

١) المغرب (قسم مصر) ٩

في هذا المجال ويعطي التفسيرات : " والخراب في الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر، واكثر زحمة بسبب انتقال السلطان اليها ، وسكنى الاجناد فيها "(١).

وهذا الاسلوب الذى اتبعه في الحديث عن الفسطاط، يتبعه في الحديث عن القاهرة فهو اولا يقارن بين انطباعه السابق الذى كونه سماعا وبين مايراه الآن والخلاصة ان " اسمها اعظم منها ، وكان ينبغي ان تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ماعاينته .. "(٢). وكما اتحفنا بحكايته مع الحمار قبيل دخولنا معه الفسطاط، يتحفنا هنا بحكاية العجلة التي سدت على الوزير طريقه مستشهدا بالحكاية على ضيق ازقة القاهرة : " .. ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الامراء، وهو في موكب جليل وقد لقى في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة، وكدت اهلك في جملتهم .. واكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال " .. فتأمل هذا الوزير الجليل وقد استقبل بعجلة ودخان ! وابن سعيد لاينسى حسه الادبي فتراه ينظم فيما يثير ضجره ومايثير اعجابه فهو يتأفف شعرا من الغبار والتراب ويبدى اعجابه في الوقت ذاته بجمال بركة الفيل.وبعد انطباعاته هذه ينتقل ايضا الى الحديث عن بعض نواحي الحياة في المدينة " فالقاهرة اكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط، لانها أجل مدارس، واضخم حانات، واعظم ديارا لسكن الامراء فيها .. " و " هي مستحسنة للفقير الذى لايخاف طلب زكاة ولا ترسيما ولا عذابا .. والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج في ظواهرها وداخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق او تجريد او سكر من حشيشة، او صحبة مردان وما اشبه ذلك، بخلاف غيرها من بلاد المغرب .... ولاينكر فيها اظهار اواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ...

---

١) المغرب (قسم مصر) ١١
٢) النفح ١٠٨/٣

وربما وقع قتل بسبب السكر .. "(١)

والى جانب هذا الوصف للحياة الاجتماعية يلتفت ـ بحكم ذهنيته الجغرافية ـ الى النواحي الاقتصادية والزراعية فيحدثنا عما " فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز، واما التفاح والاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ، وفيها الورد والنرجس والنسرين ... واما العنب والتين فقليل غال، ولكثرة ما يعصرون العنب في ارياف النيل لا يصل منه الا القليل، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء، وعامتها يشربون المزر الابيض المتخذ من الحنطة، حتى ان الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك "(٢). ويذكر نوع العملة المتداولة وتأثيرها في الحركة التجارية : " ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء، كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ومخاصمة بين الفريقين " . ويضيف الى المعلومات الجغرافية اشارة عن موقعها ومناخها : " وهي في الاقليم الثالث، وهواؤها ردئ ولا سيما اذا هب العريسي من جهة القبلة، وايضا فرمد العين فيها كثير "(٣) وهكذا نرى ان منهج ابن سعيد في كتابه مذكرات رحلته منهج مزدوج متعدد الالوان : فهو اولا يكشف عن انطباعاته الذاتية ويمزج ذلك بحكايات طريفة .. ثم يلتفت الى الناحية الاجتماعية فيتحدث عن طباع الناس ومظاهر جدهم ولهوهم .. واخيرا يضمن مذكراته مادة جغرافية يقدمها معللة مفسرة في الاغلب وهو يغلف كل ذلك باسلوب ادبي فيذكر مانظمه في هذا المنظر او ذاك، واسلوبه بريء من السجع والتكلف يتصف ببساطة وواقعية وايجاز معبر . وتراه في هذه المذكرات يكون انطباعاته ويجمع معلوماته عن طريق المشاهدة الحية ولا يقول لنا انه اخذ هذه الرواية او تلك من مرافق او صديق والارجح انه يستخرج كل شيء من ملاحظاته ، وربما استفسر عن شيء ولكن لا نراه يعتمد على قول معين . ومما لا شك فيه ان كتاباته هذه عن الفسطاط والقاهرة تعتبر وثيقة هامة عن تاريخ المدينتين في العهد الايوبي . ومن أسف اننا لا نعثر على غير هذه المذكرات مع انه رحل الى الشام والعراق والحجاز وفارس

---

١) النفح ٣/١١١ ـ ١١٢
٢) المصدر السابق ٣/١١٢
٣) النفح ٣/١١٣

ولو سجل في كل تلك البلدان انطباعاته ومشاهداته كما فعل في مصر وبالمنهج الممتع المفيد ذاته ، لكان لدينا اليوم كتاب باسم " رحلة ابن سعيد " قد لا يقل قيمة عن رحلة ابن جبير . ولعلنا نجد في المخطوطات التي قد تكتشف له في المستقبل ما يحقق هذا الامل .

(٣) التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد (١)

تمت الاشارة الى كتابه الكبير في هذا المجال وهو " الجغرافيا في الاقاليم السبعة " والى المختصرين المتفرعين عنه وهما " وصف الكون " و " بسط الارض في الطول والعرض " .

والكتاب الاخير مادة جغرافية مكثفة جافة تتناول وصف أقطار العالم كلها بشريا وطبيعيا واقتصاديا . ويقسم هذا الكتاب العالم الى تسعة اقاليم هي على التوالي من منطقة خط الاستواء ، " المعمور خلف خط الاستواء ، الاقاليم السبعة ، المعمور من الارض في شمالي الاقاليم السبعة " وينقسم كل اقليم بدوره الى عشرة أجزاء . ومنهج هذا الكتاب ان يقدم بكلمة عامة عن الاقليم في البداية تصف سكانه وتحدد موقعه ، مثل : " الاقليم الخامس: بياض اهله ممتزج بالحمرة وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال ولا سيما فيما يلي السادس . والعرض عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقة ووسعه ٥ درجات "(٢) . ثم يبدأ الحديث عن اجزاء الاقليم العشرة جزءا جزءا ابتداء من الغرب فتذكر المدن ومواقعها حسب خطوط الطول والعرض بالدرجات والدقائق وينوه بما فيها من خصائص معدنية ونباتية واحيانا تتم الاشارة الى بعض احداث تاريخها الهامة ولكن بايجاز شديد .

---

١) اعتمدت في هذا القسم على المقال المركز القيم الذي كتبه المستشرق السوفييتي كراتشكوفسكي عن جغرافية ابن سعيد في كتابه " تاريخ الادب الجغرافي العربي "، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٩ . وأهمية هذا المقال ـ الى جانب مقدرة كاتبه الخاصة ـ في انه يستند الى الابحاث الالمانية والفرنسية في تاريخ الجغرافيا العربية ، تلك الابحاث التي خصت ابن سعيد باهتمامها .

٢) بسط الارض ٩٩

ويختلف هذا الكتاب عن المؤلفات الكلاسيكية الجغرافية القديمة في انه يهتم بالعالم غير الاسلامي اهتمامه بالعالم الاسلامي فيتحدث عن الهند والشرق الاقصى وعن بعض مناطق روسيا وبريطانيا وبلاد الغال . ويلاحظ ان البلاد الواحدة حسب منهج هذا الكتاب تتوزع بين عدة اقاليم او اجزاء ولا توصف كلها دفعة واحدة . ويذكر ابن سعيد مصدرين او حدين في هذا الكتاب وهو مايسميه كتاب "اجار" ـ اى كتاب الادريسي "نزهة المشتاق" وكتابات ابن فاطمة الذى يبدو انه ملاح مكتشف توغل في غرب افريقيا ووسطها وسجل مادة جغرافية قيمة . ويتجنب ابن سعيد أية استطرادات أدبية كما ان انطباعاته الشخصية تكاد تنعدم خلف صرامة المنهج المتبع. ويبدو هنا ابن سعيد وقد استقل ميله الجغرافي تماما عن ثقافته الادبية وغدا مجرى مستقلا عنها بعد ان نشأ في الاساس رافدا من روافدها .

وتشير الابحاث الجغرافية الى ان الدراسة العلمية لجغرافية ابن سعيد تكشف النتائج ـ او تثير القضايا ـ التالية :

١ ـ ان نشاط ابن سعيد في محيط الجغرافيا يتصل بالاتجاه الذى يمثله الادريسي (٥٦٤)[1] وهو الاتجاه الذى يذهب الى تقسيم العالم الى سبعة اقاليم كما فعل بطليموس في "المجسطي" . ومدرسة الادريسي تعرف بطابعها المستقل نوعا عن المدرسة الكلاسيكية في المشرق، "وهي التي سماها ميلر K. Miller المدرسة العربية النورمانية"[2] بسبب نشوئها في بلاط روجر الثاني ملك صقلية واطلالها على آفاق العالمين العربي والاوروبي معا .

٢ ـ ان ابن سعيد زاد على الادريسي في انه قام بتبيان عروض واطوال جميع المواضع المأهولة بطريقة دقيقة يمكن معها الى حد كبير تخطيط صور جغرافي كامل .

٣ ـ ان مادة ابن سعيد عن الاقطار الاوربية ـ وخاصة فرنسا وهنغاريا ـ غنية وحافلة ولا تخلو من طرافة .

---

١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١/٣٥٧ وكذلك مادة "جغرافيا" في الموسوعة الاسلامية
٢) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١٤

٤ ــ ان شك المؤرخ المشرقي الايوبي عماد الدين ابي الفداء في معلومات ابن سعيد عن جغرافية المغرب امر لم يقره عليه البحث الجغرافي الحديث بصفة دائمة، فأماري AMARI وهو من خيرة الباحثين والعارفين بالمصادر في هذا الميدان قد أماط اللثام عن معرفة ابن سعيد الجيدة بجنوبي أوربا وبايطاليا بوجه خاص.

٥ ــ ينفرد ابن سعيد ــ دون المؤلفين العرب قاطبة ــ بايراد رواية هامة ــ ربما نقلا عن ابن فاطمة ــ تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر.

٦ ــ بالرغم من انه نقل عن الادريسي ونقل عنه ابو الفداء فان مصنفاته "لدى مقارنتها بالادريسي وابي الفداء تمثل قائمة بذاتها .. ولم يستطع ابو الفداء او المترجمون والناشرون ان يستغرقوا جميع مادته "... ولذا فانها مازالت في حاجة الى بحث خاص وعندئذ يمكن توضيح الجوانب الغامضة توضيحا كافيا ...(١)

وهكذا نرى ان جغرافية ابن سعيد لم يسلط عليها الضوء الكافي بعد. والرجاء في ان تحظى جغرافيته باهتمام خاص من قبل الباحثين الجغرافيين العرب لما لها من اهمية ظاهرة.

* * *

---

١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١/٣٥٩

الفصل الخامس

= / = / = / = / =

آراؤه النقدية

١ ـ الجو النقدى العام

٢ ـ مصادر دراسة نقده

٣ ـ آراؤه النقدية :

- موقفه العام
- درجات الشعر
- مقياس الجودة الشعرية
- مقياس الجودة النثرية

١ ـ الجو النقـــدى العـــام :

اثبتت الدراسة التى قام بها الدكتور احسان عباس لتطور المذهب الادبى العـام فـى الاندلس ان المنافسة اشتدت " بين ما سماه الاندلسيون طريقـة المحدثيـن وما سموه طريقـة " العرب " (١) خصوصا بعد ان كثر تلامذة القالـى واتسـع نطـاق تأثيـر مدرسته التى اهتمت بتدريس كتب تعتمـد على شروح هـى من صميـم طريقـة العرب فى الشعـر .

وما ان جـاء عصر الطوائف والمرابطين حتى ادى ذلك التنافس ـ متأثـرا بمدرسـة القالـى ـ الى انتصـار ظاهر لطريقة العـرب ضـد طريقـة المحدثين من حيـث المبنـى والموضوع ، وبدا ذلـك واضحـا فى شعر ابن هانـىء وابن عبدون وابن وهبـون وابن حصـن وابن بقـى من خـلال اسلوب جزل متدفـق واجواء بدويـة ومعان عربيـة تقليديـة قديمـة ، وعن طريـق التأثر باكبر شاعريـن عادا للطريقـة البدويـة وهما المتنبـى وابى العـلاء .

وهذا لايعنى ان طريقة المحدثين المعتمدة على الاستعارة البعيدة وانواع البديـع والرقـة والتأنق فى الاسلوب قد تلاشت.. فابن خفاجة ـ احد الشعراء البارزين فى ذلك العصر ـ تمكن من المزج بين التدفق الجزل والصورة البعيـدة الا ان الطابـع العام للشعـر فى تلك الفترة ظل مصطبغا بلون مذهب القدمـاء القائـم على الجزالـة وشدة التدفق من حيث مبناه وموسيقـاه العامـة (٢) .

---

١) ـ تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) ١٠٨

٢) ـ المصدر السابق ١٠٨ ـ ١١٧

اما فى عصر الموحدين - عصر ابن سعيد - فأرى ان طريقة العرب عادت الى التقهقر والانزواء وان طريقة المحدثين عادت الى احتلال مكانتها بوصفها النمط الفنى السائد فى الشعر والنثر .

والواقع ان طريقة العرب كانت شيئا طارئا على البيئة الاندلسية الميالة الى الرقة البعيدة عن جو الصحراء وخشونته المغرقة فى الحضارة والترف ... وانها مالبثت ان ضعفت بزوال العوامل التى سببت قوتها :

أ - فأثر المتنبى والمعرى تضاءل بمرور الزمن وباتجاه المشرق ذاته نحو مذهب ابى تمام بعد ان جرد من تعقيده الفكرى وبولغ فى ميله للاستعارات والبديعيات والاسلوب الرقيق وشدد فيه على مسألة كد القريحة و " الغوص " مقابل عمل البديهة .

ب - ان ردة بعض الشعراء فى الاندلس ضد الاغراق فى الحضارة كانت مظهرا نفسيا عابرا فالترف الاندلسى كان حقيقة واقعة لابد من الاستسلام لها فى النهاية (١) .

وبامكان ~~ولكن~~ المرء ان يلمس بوضوح آثار انتصار طريقة المحدثين فى هذا العصر فى الاعمال النقدية وفى كثير من مظاهر النتاج الشعرى على حد سواء ، وان كان ذلك بالمقابل لاينفى وجود حالات فردية وظواهر متفرقة تعكس ميلا اوحنينا لطريقة القدماء او للاجواء البدوية .

فعلى صعيد النقد لدينا عملان نقديان بارزان فى هذا القرن (القرن السابع) ، احدهما من المشرق والثانى من المغرب ، يؤكدان ويبلوران كثيرا من المواقف التى تعتبر فى صميم طريقة المحدثين ، واعنى بهما كتاب " المثل السائر " لابن الاثير وكتاب " الوافى فى نظم القوافى " لابى البقاء الرندى .

.../..

---

١) - تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ١٠٩

فابن الاثير يرفض الرأى القائل باقتصار الابداع على القدماء ويرى ان باب الابداع مفتوح الى آخر الدهر ويعتنى عناية خاصة بناحية الصور البيانية من تشابيه واستعارات ويعطى اهتماما كبيرا لرقة الاسلوب ويقدم ابا تمام على غيره من الشعراء حتى انه يفضله على المتنبى(١) ويجعل دراسة شعره طريق التفوق فى البلاغة والفصاحة لانه " رب معان ، وصيقل الباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ... وقد مارست من الشعر كل اول واخير ... فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام .. "(٢)

ويسير ابو البقاء الرندى ، الذى يمثل كتابه " الوافى " احد معالم النقد الرئيسية فى عصر الموحدين ، فى خط التيار الذى يمثله ابن الاثير ومناصرو مذهب المحدثين عامة ، فيهتم بالتأكيد منذ البدء على حق المتأخرين فى التجديد والاختراع محاولا الرد على الرأى المضاد المنحاز للقديم : " هذا وان كان من سلف قد سبق فى هذا المضمار ... فأنت ترى كيف اتى السابق بما ادرك ثم جاء اللاحق فنقض واستدرك ، ففى كل شجر نار .. وربما بلغ المتأخر بشرف الاطلاع مالم يبلغ المتقدم بفضل الاختراع . ولا شك ان للقول بابا لايسد وللاختيار شأوا لايجد ولولا ذلك لسد الباب واكتفى فى كل علم بكتاب " .(٣)

والرندى الى جانب دفاعه عن المتأخرين ونصيبهم من الابداع ، يؤكد على كد القريحة واعمال الذهن مقابل البديهة والعفوية وينصح الشاعر بانه " ينبغى الايقبل كل ماييعثه هاجسه وينغث به وساوسه ، بل ينقح ويختار ولايذهب الى الاستكثار واذا فرغ من شعره تثبت فى امره ، فيتأمله مرتين ويرجع البصر فيه كرتين وغنى عن البيان ان هذا المبدأ اساس مذهب المحدثين . "(٤)

... / ..

---

١) ـ ابن الاثير ، المثل السائر ٢ / ٣٩٤
٢) ـ المصدر السابق ٣٦٩
٣) ـ الوافى فى نظم القوافى (نسخة مصورة) : ١٤
٤) ـ المصدر السابق : ١٥

وقد اهتم الرندى فى كتابه هذا بالبلاغة - وخاصة البديع - فافرد لها فى كتابه جزءا كبيرا باسم " محاسن الشعر وبديعه " تحدث فيه عن اربعين بابا بلاغيا بين بيان وبديع .

وفى مجال الشعر سار ابو البقاء الرندى طبقا لميوله النقدية ، فجاء شعره على حد قول ابن الخطيب " سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة " كما انه عكس ميلا واضحا نحو الصنعة والبديع .

وعلى وجه العموم فان هذه الخصائص المميزة لطريقة المحدثين يمكن تبينها فى القسم الاعظم من النتاج الشعرى لهذه الحقبة ، وعند الغالبية العظمى من الشعراء . وليس من الصعب وضع شعراء من مثل ابى بكر بن زهر وابن حيون وابن الهيثم وابن الصابونى وابن سهل - فضلا عن الرندى - فى اطار تلك الطريقة هذا اذا اردنا الاقتصار على الاندلس . وسوف نرى فى هذا الفصل والفصل التالى الى اى مدى تفاعل ابن سعيد مع هذا التيار نقدا وشعرا .

* مصادر دراسة نقده :

لم يخلف ابن سعيد مؤلفا مستقلا فى النقد ، ولكنه صنف كتابى " عنوان المرقصات " و " رايات المبرزين " وهما عبارة عن مختارات من الشعر انتخبها ابن سعيد طبقا لمقاييس الجودة الفنية عنده . وقد قدم للكتاب الاول بمقدمة موجزة مهمة تكشف الكثير من آرائه النقدية . وبالاضافة الى ذلك فان ابن سعيد نثر بعض احكامه النقدية عند ترجمته لشعراء عصره فى "القدح" و " الغصون "

* آراؤه النقدية :

يبدو ابن سعيد للدارس فى كتابى " عنوان المرقصات " و " الرايات " وكأنه احد هؤلاء المشرفين على سلسلة كتب المختارات الشعرية التى تصدر اليوم فى المغرب بقصد تعميم الثقافة الشعرية بين الناس عن طريق نماذج من الشعر الرائع لشعراء ممتازين .

.../..

ومهمة اختيار قطع من الشعر الممتاز (وامتيازها نسبى من حيث صلاحيتها لعصرها ولذوق من يختارها) ليست مهمة سهلة . فامام القائم بالعمل آلاف النصوص الادبية لمئات الشعراء وعليه ان يختار من بينها القليل القليل الذى يكاد يفى بالغرض ،ومن هنا تنشأ الاهمية القصوى لوجود مقياس نقدى يقوم على اساسه الاختيار .

وهذا ما احس به ابن سعيد عندما اقدم على تصنيف كتاب " عنوان المرقصات والمطربات " الذى قرر ان يضمنه الف بيت فقط (١) تمثل قمة الابداع فى شعر العرب كله من العصر الجاهلى حتى منتصف القرن السابع للهجرة ،بالاضافة الى مجموعة من النصوص النثرية القليلة التى تمثل بدورها ابدع ما كتبه العرب فى مجال النثر الفنى

ومما لاريب فيه ان المقياس النقدى الذى اعتمده المؤلف فى هذا الكتاب واشار اليه صراحة قد اعتمده ضمنا فى اختياره لاشعار " المغرب " و " المشرق " و " الرايات " وفيما اختاره من شعر المترجم لهم فى " القدح " و " الغصون " فما هو هذا المقياس النقدى وما هى تلك الآراء المتفرعة عنه ؟

١ ـ موقف عام :

نرى ابن سعيد فى مقدمة كتابه " المرقص " وفى مقدمة " الرايات " يشدد على الرأى القائل انه لافرق بين القديم والجديد وان فرص الاجادة مفتوحة امام المحدثين كما كانت متاحة للقدماء وانه لامجال لتفضيل عصر على عصر ولا مصر على مصر . " فالله جل وعلا ... حباها (البلاغة) فى كل عصر بالكرم ولى واعز ناصره ولم يقصر الفضل على من تقدم ،وابان لنا مطارح القصور بمن جعل جنته :

هل غادرَ الشعراءُ من مُتردمِ

---

١) ـ المرقصات ٤

واجـرى الحقيقـــة على لسان القائل :

فلو كان يغنى الشعرُ افنتهُ ماقرَتْ حياضُك منه فى العصور الذواهـب
ولكنه صوبُ العقولِ اذا انجلـتْ سحائبُ منـــه أُعقبت بسحائـــب (١)

ثم ان لكل عصر مهمته المعينة التى قام بها فـ "الله در القائل ان المتقدميـــن بنوا فأوثقوا وان المتأخرين زينوا ونمقوا" (٢) . وهكذا ظن المتقدمين وضعوا اساس البلاغـــة قويا وثيقا تاركين للمتأخرين فضل زركشـــة البناء وزخرفته . وليـــس من الجائـــز ان نفرض على كل العصور نمطا معينا من الذوق الفنى اذ انـــه "لكـل زمـان مايليـــق به من البيان ... والناس بازمانهم اشبه منهم بآبائهم" (٣) فظروف الزمن الحاضـــر تفصل الانسان عن تقاليد ومنازع كانت لابائـه وتضطـــره للتلاؤم معها بشيء جديد من عنده .. وخلاصـــة الامر ان البلاغة لم تزل "فـــى كل عصـــر بالمشارق والمغارب تطلع مايزيـــن سماءها من شمس وبدور وكواكـــب . والمنصف من اطال عنان الاختبار دون اقتصار ولم يخص بالفضيلة عصرا من الاعصـــار ولا مصرا من الامصار" (٤)

ويشعر المرء وهويلاحظ الطريقة التى يصوغ ابن سعيد بها مقدمته انه يرد علـــى آراء معينة وانه يسعى لنقض مذهب مضاد :

١ ـ فباب الابداع مفتوح ،وان الامر ليس كما قال عنترة ـ وجاراه انصار الطريقة القديمة ـ
٢ ـ كما لايفضّل عصر على عصر كذلك لايفضل قطر على قطر .
٣ ـ للاوائل فضل البناء وللاواخر فضل التزيين . وكأنه يريد ان يقول ان الاوائـــل وضعوا قواعد اللغة وركبوا الاساليب وانشأوا العروض واصطلحوا المفردات وان دور المحدثين فى ادخال التشابيه البديعة والمحسنات اللفظية والرقة والسهولـــة على ذلك البناء الوثيق .

.../..

---

١) ـ المرقصات ٣
٢) ـ المصدر السابق ٣
٣) ـ المصدر السابق ٣
٤) ـ المصدر السابق ٣

ومن الواضح ان ابن سعيد يتخذ هذه المواقف النقدية انسجاما مع مذهبه النقدى العام - الا وهو مذهب المحدثين - وانسجاما مع نزعته المغربية الاندلسية ، فايقاف الفضل على المتقدمين معناه التقليل من كل ما قاله وسيقوله المحدثون . وتفضيل قطرعلى قطر - من ناحية اخرى - لن يكون فى صالح المغرب والاندلس فعند المقارنة الجدية سيكون من الصعب تخطى العراق والشام والجزيرة .

والواقع ان المرء عندما يتابع ابن سعيد فى اختياراته واشارته وتقييماته يشعر ان الرجل يفضل طريقة المحدثين على طريقة القدماء وانه يميل الى تفضيل بلده اوعلى الاقل الى التذكير بان لبلده مزايا ليست لغيرها فى مجال الشعر بالذات .

فهذه بعض آرائه مثلا فى نتاج القدماء : (٢)

١) - وجميع نثر القدماء داخل فى طبقة المقبول وماتحتها " ودرجة المقبول هى الدرجة الثالثة بعد درجة المرقص ودرجة المطرب .. ومعنى ذلك ان نثر المحدثين متفوق بوضوح على نثر القدماء ... فمنه المرقص ومنه المطرب .

٢) - ويبدو ان نثر القدماء لايعجب ابن سعيد حتى زمن ابن العميد . فرسالة هذا الكاتب الشهيرة التى كتبها باسم ركن الدولة الى الثائر بلكا " وان اطنبوا فيها وجعلها الثعالبى واسطة لعقد ترسل ابن العميد فانها من طبقة المقبول .... وفيها ايضا من اهمال التقيد بالسجع ماهو خارج عن شرط هذا الكتاب "(٣)

اما الذين سيتستحوذ نثرهم على اعجابه فهم الهمذانى الذى عده " من سابقى هذه الحلبة (٤) ومن جاز فى مراتبهم اعلى رتبة " والقاضى الفاضل الذى لايعلم (ابن سعيد) " بالمشرق والمغرب مثله " (٥) وضياء الدين بن الاثير " امام كتاب المائة السابعة فمن هذا الكتاب " (٦)

---

١) - المرقصات ٥
٢) - المصدر السابق ٧
٣) - المصدر السابق ٢
٤) - المصدر السابق ١٠
٥) - المصدر السابق ١٥

٣ ـ يخالف المتقدمين فى تأخيرهم عنترة ويعتبره متقدما " بالنظر الى معانى الغوص "(١) ويستدل بابياته :

جلاَتْ عليها كل عينٍ قرةٍ ... فتركن كل حديقةٍ كالدرهمِ
وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ ... غرداً كفعلِ الشاربِ المترنمِ
هزِجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِه ... قدْحَ المكبِّ على الزنادِ الأجْذَمِ

وبيته :

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لانها ... لمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسمِ

والذى جعله يقدم عنترة من خلال هذه الابيات هو هذه التشابيه التى يسميها " معانى الغوص " .. وهى نزعة اساسية فى طريقة المحدثين وخاصة خلال القرن السابع .

٤ ـ يصف اوصاف الاعشى الخمرية بانها " اعرابية جافية يخرجها جفاء نمطها عن المرقص "(٢) .

٥ ـ عندما صنف كتابه " رايات المبرزين " للامير المشرق ابن يغمور تعمد ان يقصره على افضل ما قاله شعراء المغرب خلال الثلاثمئة سنة الاخيرة . وقدم له بمقدمة دلت على اعتزازه الشديد بهذا الشعر (والكتاب سيطلع عليه شعراء المشرق وخاصة الذين قابلهم فى مصر من البهاء زهير الى ابن مطروح الى سيف الدين سابق الى ابن العديم) . قال ابن سعيد فى تلك المقدمة : " فهذا مجموع اوردت فيه من غرائب شعر المغرب ماكان معناه ارق من النسيم ولفظه احسن من الوجه الوسيم ... اذ هو كما قال احد شعرائهم :(٣)

شعرٌ على الشعرى علا قدرُه ... عنه ثناءُ الصدقِ لا يثنى
ينقلب القلب له جودةً ... ويدخل القلبَ بلا اذنِ

---

١) ـ المرقصات ١٥

٢) ـ المصدر السابق : ١٧

٣) ـ لم يدخل ابن سعيد مصر فى هذا الكتاب ضمن المغرب كما فعل فى "المغرب" و "عنوان المرقصات" فالامير الذى يؤلف له فى مصر ويريد الاطلاع على شعر الاندلس ومراكش والمغرب الاوسط .

٤) ـ المصدر السابق : ١٨

" وحق له ذلك "إذ قمص الفاظه مفصلة على قدود معانيه وزخرف اتقانه من حسن مبانيه ،واشترطت مع هذا ان لا اورد منه الا مالم يسبقوا الى قضاء معناه او استحقوه بزيادة اوحسن عبارة ابرزته بعد تجديده فى حلاه "(١)

فاذن يحق لشعر المغرب (الذى هو الاندلسى فى غالبيته العظمى كماورد فى الكتب) ان يعلو على النجوم ... ثم ان هذا الشعر المختار كله معان مخترعة او مزاده لم يصل اليها شعراء المشرق.

٦ ـ فى ترجمته للشاعر الدمشقى ابن الساعاتى فى كتاب " الغصون " " يصف شعره بانه يجمع بين الفاظ المشارقة الرقيقة ومعانى المغاربة الدقيقة فلا يخلو من صقل الكلام وغوص الفكر "(٢) فاذا كان للمشارقة الفاظهم الرقاق فللمغاربة معانيهم الدقاق وان امتاز اولئك بصقل كلام فان هؤلاء يمتازون بغوص فكر . و"الغوص الفكر " هذا هو مايكرره ابن سعيد فى كل مكان اشارة على قدره الاتيان بتشابيه بعيدة الغور دقيقة التفاصيل .. تفاجئ ... وتدهش ... وهذه القدرة على مايبدو ينسبها هنا للمغاربة.

هذا فيما يختص بموقف ابن سعيد النقدى بصورة عامة. ولعله من الخير فى ختام هذا الكلام ان نذكر ان ابن الاثير والرندى فى كتابيهما النقديين اتخذا الموقف العام ذاته تقريبا بالنسبة للمسائل التى تناولها ابن سعيد .

وقبل الانتقال الى النقد "الفنى" عند ابن سعيد ،لابد من وقفة عند تقسيماته " المكانية " و " الزمانية " للنتاج الادبى . ففى كتابى المغرب والمشرق نلحظ " حسا جغرافيا " واضحا يسايره " حسن تاريخى زمانى " فهويقسم القطر الى اقسامه الرئيسة ثم يقسم كل قسم الى مدنه الهامة . ويبدأ بالحديث عن المدينة حديثا جغرافيا محددا يتناول جوها وطبيعتها واحيانا مزاج اهلها وشهرتهم ثم ياخذ فى الترجمة للشخصيات حسب التتابع الزمنى وقد تمت الاشارة الى منهجه هذا تفصيلا عند الحديث عن مصنفاته.

---

١) ـ الرايات ٥

٢) ـ الغصون ١٢

السؤال الذى اود ان اطرحه هنا يتعلق بامكانية وجود صلة بين نظراته النقدية وبين هذا المنهج فى التقسيم والتبويب : الى اى مدى استطاع ابن سعيد ـ ان كان الاحتمال واردا ـ التنبه الى العلاقة بين النتاج الادبى وبين البيئة المكانية والظروف الزمانية ؟ وهل يمكن تفسير منهجه فى التقسيم على انه شعور بتلك العلاقة ؟

الواقع ان ابن سعيد لم يشر صراحة الى هذه الناحية. وليس من سبيل الى تحميله مالم يقله او يشر اليه من قريب او بعيد . الا ان التساؤل يظل قائما وليس الجواب عنه بالايجاب امراً مستحيلا ، وان لم يكن قوى الاحتمال . فابن سعيد فى بعض الاحيان يورد شعرا لشعراء مدينة معينة تنعكس فيه خاصية واضحة من الخصائص التى وصف بها اهل تلك المدينة اوجوها (وان كان ذلك الشعر يحمل خصائص اخرى ايضا) ، كما انه اشار فى مقدمة المغرب الى علاقة الادب بفروع المعرفة الاخرى ـ وكان يقصد التاريخ والجغرافيا على وجه الخصوص ـ ملمحا الى ان الناقد يحتاج الى ثقافة تتعدى مجال الادب الخالص : " اذ هذا الفن الادبى متطفل على سواه متوشح بغيره من الفنون توشح البلابل بالدوح من اسفله الى اعلاه ، ولذلك احتجنا مع الاستضلاع من صميم فنه الى مطالعة غيره من الفنون التى مزجناه بها مزج الصهباء بالماء .. "(١) فهل يمكن تفسير هذا القول على ضوء ذلك الاهتمام ؟ وربط كل ذلك باشارته السابقة من ان الناس اقرب الى عصورهم منهم الى ابائهم ؟

قد يكون الاحتمال واردا ، ولكن ابن سعيد فى نقده التطبيقى يبدو ابعد ما يكون عن تصورات كهذه .

---

١) ـ مسالك الابصار (نسخة مصورة) ، الجزء ٨ ، ورقة ٣٨٢

٢ ـ درجات الشعر :

في مقدمة كتاب " المرقصات " قسم ابن سعيد الشعر الى خمس درجات :

أ ـ مرقص : وهو " ماكان مخترعا او مولدا يكاد يحلق بطبقة الاختراع "(١) مثل :

سموتُ اليها بعدما نامَ اهلُها ... سُموَّ حبابِ الماء حالاً على حالِ

و ..... فأتِ اذا ما هجعَ السامرُ

واسقط علينا كسقوطِ الندى .....

و : والشمسُ لاتشربُ خمرَ الندى ... في الروضِ الاّ بكؤوسِ الشقيقْ

ويتضح من تعريف ابن سعيد للمرقص ومن هذه الامثلة وكافة الامثلة الواردة في الكتاب انه يقصد بالشعر المرقص ـ شعر الدرجة الاولى ـ ذلك الشعر الذى يتضمن تشابيه بعيدة ودقيقة ... من ذلك النوع الذى يسمى في البلاغة بتشبيه التمثيل " او تشبيه حالةَ بحالهَ " ... وهو التشبيه بين حالتين في اطارهما العام ثم التوفيق بين دقائقهما التفصيلية ....

ففي البيت الاخير مثلا :

والشمسُ لاتشربُ خمرَ الندى ... في الروضِ الاّ بكؤوسِ الشقيقْ

لدينا تشبيه حالة تبخير حرارة الشمس لقطرات الندى من على ازهار الشقيق بحالة شارب الخمرة الذى يحتسى شرابه من الكأس .

ثم لدينا مقابلة الدقائق بالدقائق :

الشمس تشبه الشارب ، والندى هو الخمر ، وربما كانت هناك ثمة اشارة بان الروض هو الحانة ، واما ازهار الشقيق فهي الكؤوس .

ويكاد هذا القياس ينطبق على كل ما اورده ابن سعيد في باب المرقص . وهذه بعض نماذج وشواهد على ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

..../..

---

١) ـ المرقصات ٤

(١) للمجنون :

بعادٌ وهجرٌ واشتياقٌ ولوعةٌ ولا انتَ تُدنيني ولا انا اقــربُ
كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يضمُّهـا تذوقُ حياضَ الموت والطفلُ يلعبُ
فلا الطفلُ ذو عقلٍ يرقّ لما بها ولا الطيرُ ذو ريشٍ يطيرُ فيذهـبُ (١)

فحالة الشاعر هنا بوقوعه في اسر الحب تشبه حالة العصفور الواقع في يد طفل يعذبـه ... ثم تأتي التفاصيل لتحدد :

الشاعر المحب كالطائر الفاقد جناحيه ،والمحبة الغريرة كذلك الطفل الغرير اللاهي . وحالة التعذيب القاتل غير المتعمد مشتركة بين الحالتين .

(٢) ابونواس :

فتمشتْ في مفاصلِهـــم كتمشـي البرءِ في السقـــمِ
وقوله : كأن يواقتياً بصحنِ انائهـا وزرقَ سنانيرٍ تُديرُ عيونَهـــا (٢)

(٣) ابو تمام :

واذا اراد اللهُ نشرَ فضيلـةٍ طويتْ اتاحَ لها لسانُ حسـودِ
لولا اشتعال النارِ فيما جاورتْ ماكان يُعـرف فضلُ طيبِ العـودِ

وليس من الضروري ان تأتي الصورة البيانية على هيئة تشبيه صريح ... فالمهم هي "فكرة الغوص" والمعنى الدقيق البعيد ... جاء تشبيها ام استعارة . فمن المرقصات مثلا هذه الاستعارات (والاستعارة كما هو معروف في البلاغة تشبيـه حذف احد طرفيه) الواردة في بيت "مرقص" لابي تمام :

فتىً كلما فاضت عيونٌ قبيلـةٍ دماً ،ضحكت عنه الاحاديثُ والذكرُ (٣)

(٤) ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد :

أين العيونُ من الخدودِ نفاسةً ورئاسةً لولا القياسُ الفاسـدُ ؟

---

١) ـ المرقصات ٢٤
٢) ـ المصدر السابق ٣١
٣) ـ المصدر السابق ٣٣

(٥) ابن المعتز فى وصفه للهلال :

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحُنـــا مثل القلامة قد قُدت من الظفـرِ

وقوله : وانظر اليه كزورقٍ من فضـــةٍ قد اثقلتْـهُ جمولةٌ من عنبـــرِ (١)

(٦) ابن خفاجـة :

وقد خلعتْ ليلا علينا يدُ الهوى رداءَ عنـاق مزقتـه يدُ الفجـرِ

(٧) وقول ابن سعيد فى غلام احاط الشعر النابت بخال على خده :

كان خالاً لاح من خـــدِّه للعين فى سلسلـــة من عـــذار

أسيْودٌ يخدم فى جنـــة قيـده مولاهُ خوفَ الفـــرار

فالمقياس باستمرار هو وجود الصورة البيانية البعيدة ، الدقيقة ، التى يتـــم التلاؤم بين تفصيلاتها

ب ــ مطرب : وهو " ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع الا ان فيه مسحة مـــن الابتداع (٢) وهو على مايبدو من خلال الامثلة التى اختارها صورة بيانية تقل عن درجـــة المرقص غرابة وبعدا واغراقا فى التفاصيل . كقول زهير :

تراه اذا ماجئته متهلـــلا كأنكَ تُعطيه الذى انت سائلُـــه

ج ــ مقبول : وهو " ماكان عليه طلاوة مما لايكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل " (٣) .. وهذا هو الشعر السهل ، العذب فى لفظه ، العادى فى معناه ، الخالـى من التشابيه والاستعارات والبديع . كقول طرفـة :

ستُبدى لك الايامُ ماكنت جاهلا ويأتيك بالاخبـارِ من لم تُـزوِّد

د ــ مسموع : وهو : " ماعليه اكثر الشعراء مما به اكثر القافية والوزن دون ان يمجه الطبع ويستثقله السمع (٤) ويبدو ان ابن سعيد يقصد به الكلام المنظوم [illegible]

---

١) ــ المرقصات ٣٩
٢) ــ المصدر السابق ٤
٣) ــ المصدر السابق ٥
٤) ــ المصدر السابق ٥

الاسلوب العادى والمعنى العادى الخالى من كلمة نابية اومعنى ملتـــــو كقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى علىّ مطيّهم يقولون لاتهلك أسىً وتجمّـــل

والظاهر ان الاسلوب الجاهلى القوى الجزل لا يرفع من منزلة الشعر عند ابن سعيد فهذاالبيت من معلقة امرئ القيس يعد من درجة المسموع.

ويبدو من المثل الثانى الذى يورده هنا من شعر ابن المعتز :

سقى الجزيرةَ ذات الظلِّ والشجرِ
ودِيرَ عبدون هطّـــال من المطـــر

يبدو من هذا المثل والمثل الذى سبقه ان المسموع عند ابن سعيد هو المعنى المكرر الذى يردده كل الشعراء كمعنى الوقوف على الاطلال وطلب الغيث .

هـ المتروك : " ماكان كلا على السمع والطبع كقول المتنبى :

فقلقلتُ بالهمّ الذى قلقلَ الحشا قلاقـل عيسٍ كلّهن قلاقـلُ (١)

وظاهر ان المتروك ما استكدر لفظه والقوى معناه اواستغلق . ومن الملاحظ ان ابن سعيد لم يورد فى الطبقات الاربع السابقة اى بيت للمتنبى . واستخدم فى ادنى درجة بيتا من شعره للاشارة الى الشعر المتروك. وهو امر قد يكون وليد المصادفة الاانه يمكن ان يتخذ دليلا على مدى تقدير النقد فى القرن السابع لشعر ابى الطيب وللمدرسة التى يمثلها .

٣ ـ مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد :

أ ـ رأينا ان مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد هو ان يكون الشعر من درجة المرقص الحافل بالصور البيانية من استعارات وتشابيه بعيدة ، دقيقة ، حافلة بالتفاصيل ، مفاجئة ومدهشة تشغل العقل وتملأ النظر . ويبدو انه كان يقيّم الشعراء على هذا الاساس ولا يعد الشاعر فى نظره شاعرا اذا لم يكثر من

---

١) ـ المرقصات ٥

التشابيه و " معانى الغوص " على حد تعبيره • فقد رأيناه كيف قدم عنترة بسبب مجموعة من التشابيه الواردة فى معلقته • وسنعمل الان على النظر فى تعليقاته على مختارات بعض الشعراء الذين قدمهم فى كتاب " المرقصات " : فها هوذا يقدم ابا نواس بقوله : " هو من ائمة اصحاب الغوص ولا سيما فى اوصاف الخمر (١) ثم يورد تسع نماذج من شعره حافلة كلها بالصور البيانية •

ويظهر اعجاب ابن سعيد بشعر ابى تمام من خلال كثرة النماذج التى يورد هاله • فقد اورد له خمسة عشر نموذجا حافلة بالبديع والاستعارات والتشابيه (٢) من مثل :

كواكبٌ زارت فى ليالٍ قصيرة ٍ يخيّلن لى من حسنِهن كواكبا
وجوه •• لو ان الارضَ فيها كواكبٌ توقد للسارى •• لكانتْ كواكبا

ومن مثل :

تردّى ثيابَ الموت حُمرا فما اتى لها الليلُ الا وهى من سندسٍ خضرِ

ومن مثل :

يُخفى الزجاجةَ لونُها فكأنها فى الكف قائمةٌ بغير انـاءِ

وابو تمام يعتبر رأس طريقة المحدثين وامامها فهو الذى جعلها اتجاها شعريا واضحا بعد ان كانت ظواهر متناثرة فى شعر القدماء • وقد تعصب الكثيرون لابى تمام ضد المتنبى والبحترى انتصارا منهم لهذه الطريقة • ولقد امكن القول ان حركة النقد فى القرن الرابع ومابعده كانت تعبيرا عن الصراع بين المذهبين •

ومن شعراء توليد المعانى والتنقيب عنها الذين اعجب بهم ابن سعيد الشاعر ابن الرومى الذى قال عنه : " يقولون انه احق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليد (٣) وكذلك

---

١) ـ المرقصات ٣١
٢) ـ المصدر السابق ٣٣ ـ ٣٤
٣) ـ المصدر السابق ٣٧

سمّى شاعر البديع عبد الله بن المعتز " امام المشبهين فى الدولة العباسية "(١) .

ومما يجدر ذكره ان ابن سعيد فى مختاراته لم يلتفت الى اى نتاج شعرى ، مهما علا قدره وعظمت مكانته - لم يخضع لمفهومه الذى ذكرنا . فهو بلا شك قد اطلع على شعر البحترى والمتنبى مثلا . يدل على ذلك ايراده لنماذج من شعرهما . ولكن ماورده من شعر لهما يشير بوضوح الى انه لم يقدر النتاج الذى كان اساس نجاحهما وشهرتهما بل قدر ماخضع لمفهومه وذوق عصره .

فشاعر كالبحترى مثلا عرف بشعره المطبوع ، المتأثر بالاسلوب والجو البدويين ، البرئ من زخارف البيان والبديع ... ولكن كيف قدر ابن سعيد هذا الشعر ؟ .....

لقد اختار من ديوان البحترى كله بيتا واحدا فقط اعتبره فى مستوى المرقص .

هذا البيت هو : شرف تتابع كابرا عن كابر كالرمح انبوبا على انبوب (٢)

وهو بيت كان يمكن للبحترى الا يقوله مطلقا .. دون ان يغير ذلك من مكانته شيئا فهو لا يمثل طابعه ولا طريقته ... ولكن - مع ذلك - " أرقص " ابن سعيد - والنقد معه - فى القرن السابع .

وفيما يختص بشعر المتنبى فان الناس ظلوا يعجبون على العموم فى شعره :

أ - بهذا النفس الملحمى ذى الاسلوب الجزل المتدفق

ب - وبتلك النظرات التأملية الحية ، النابعة من تجربة صادقة ، المسكوبة فى اسلوب قوى متين .

ولكن ابن سعيد - وفاء منه لذوقه ولمقاييسه ومقاييس عصره النقدية - لا يعجب باى من ذلك .. ولا تلفت نظره فى نتاج المتنبى الغزير الا " المرقصات " السنية التالية : (٣)

١ - فان يكُ سيارُبن مكرم انقضى فانكَ ماءُ الوردِ إن ذهبَ الوردُ

٢ - فاصبح شعرى منهما فى مكانه وفى عنق الحسناء يستحسن العقدُ

٣ - والهجرُ اقتل لى مما أراقبه انا الغريقُ فما خوفى من البللِ

٤ - وما ثناك كلامُ الناس عن كرمٍ ومن يسدُّ طريقَ العارضِ الهطلِ

٥ - فان تفق الانامَ وانت منهمُ فان المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

٦ - وعدتَ الى حلبٍ ظافراً كعود الحلى الى العاطلِ

---

١) - المرقصات ٣٩

٢) - المصدر السابق ٣٦

٣) - المصدر السابق ٤٠

ويبدو ان ابن سعيد يضع شعر الحكمة والتأمل ـ الخالى من صور البيان من تشبيه واستعارة ـ فى درجة المقبول مهما كان رائعا فى مبناه ومعناه . فهو يقدم بيت طرفه " ستبدى لك الايام " وبيت ابن شرف (١)

لاتسأل الناسَ والايامَ عن خبرى هما يبثانك الاخبارَ تطفيلا

يقدمهما كنموذجين على شعر طبقة المقبول . ثم هو يصف زهيرا بانه شاعر "اكثر ما اشتهر به الحكم والامثال مما يدخل فى طبقة المقبول" (٢)

ب ـ ويجمل بنا ونحن نتحدث عن مقياس ابن سعيد النقدى ان نتساءل عن كيفية تصوره لمقياسه؟ قلنا ان المقياس هو الاتيان بالتشبيه البعيد الدقيق .. فما هى مزايا هذا التشبيه هل هو الصورة الحية المتحركة ؟ ام هو النقش الملون الجامد ، هل هو تشبيه الاشياء بما هو اجمل منها او اقوى فى ناحية معينة او اشهر ؟

يبدو انه فى اغلب مايختاره من شعر " مرقص " لايهتم بحيوية التشبيه وجماله بقدر مايهتم ببعده وطرافته وجدته . فها هوذا يورد التشابيه الآتية فى " مرقصاته " :

لابن المعتز : ولاح ضوءُ هلال كاد يفضحنا مثل الكلامة قد قُدت من الظفرِ

وقولـه : وانظر اليه كزرقٍ من فضةٍ قد اثقلتْه حمولةٌ من عنبرِ (٣)

ولذى الرمة الذى وصفه بانه " فارس ذلك العصر فى معانى الغوص لتولعه بالتشبيه والتمثيل وحسن التخيل وهو رئيس المشبهين الاسلاميين" (٤) قولـه :

كأن انوفَ الطيرِ فى عرصاتها خراطيمُ اقلامٍ تخط وتعجمُ

وللعباس بن الاحنف قوله فى وصف سوداء :

والنجمُ فى كبدِ السماءِ كأنه أعمى تحيرَ مالديهِ قائدُ (٥)

---

١) ـ المرقصات ٥
٢) ـ المصدر السابق ١٦
٣) ـ المصدر السابق ٣٩
٤) ـ المصدر السابق ٢٢
٥) ـ المصدر السابق ٢٩

ومن البين ان كل هذه التشبيهات التي رآها ابن سعيد " مرقصة " اما ان تكون غريبة او ملونة مزخرفة اودقيقة ٠٠ او لمجرد ان احدا لم يتنبه لها من قبل ولكنها ـ على اى حال ـ لاتمثل حيوية وحركة ولاتعكس جمالا ولا تفى بالغرض التي اوردت من اجله ايفاء تاما بل ان بعضها اورد لمجرد التشبيه لالتوضيح اى معنى كبيت ابن المعتز الثانى مثلا ٠

ج ـ فى شعر الغزل بالذات يلاحظ ان ابن سعيد لا يشتدد فى استخدام قياسه المعتاد ٠٠ ويقبل القصيدة الغزلية المشبوبة العاطفة المعبرة عن تشوق المحب الشديد على انها من الشعر الجيد ٠٠٠ الاانها لاترقى فى نظره الى درجة المرقص٠٠٠ بل يضعها فى الدرجة الثانية من الجودة الا وهى طبقة المطرب ٠ من ذلك شعر المجنون ،، من مثل :

أعدُّ الياليَ ليلةً بعد ليلةٍ ... وقد عشتُ دهراً لاعد اللياليا

وقوله : الا ايها الركبُ اليمانيُّ عرجوا ... علينا فقد امسى هوانا يمانيا

وقوله : فلاحبَ حتى يلصقَ الجلدُ بالحشى ... وتصمتَ حتى لاتجيب المُناديا (١)

وقول الهذلي :

هجرتُكِ حتى قيلَ لايعرفُ الهوى ... وزرتُكِ حتى قيلَ ليس له صبرُ (٢)

وهذه الاشعار الغزلية الرقيقة تشبع ذوقه الاندلسى من حيث موضوعها الغزلى ومن حيث اسلوبها الرقيق السهل ٠

د ـ يرى ابن سعيد ان " السرقة الادبية " جائزة اذا " لم يقع الحافر على الحافر " واذا استطاع الشاعر ان يأخذ المعنى السابق ويطوره او " يلفق " بين معنيين متقاربين فيخرج منهما بمعنى شبه جديد ٠

فقد ذكر فى " المرقصات "(٣) انه اخذ معنى علقمه المرقص فى قوله :

اوردتُها وصدورُ العيسِ مسنفةٌ ... والصبحُ بالكوكبِ الدرىِّ منحورُ

---

١) ـ المرقصات ٢٤
٢) ـ المصدر السابق ٢٨
٣) ـ المصدر السابق ١٧

فأعاد صياغته وزاده ايضاحا :

كم زرتهُ ورواقُ الليلِ منسدلٌ ... مسهّدٌ راق اعجابا بانجمهِ
وأبت والصبحُ منحورٌ بكوكبهِ ... وسائلُ الشفقِ المحمرّ من دمهِ

واورد فى " الغصون " البيتين لشميم الحلى فى ترجمته :

الاهاتها حيث الجداول اصبحت ... تصولُ على ارجائها بصلالِ
لدى نرجسٍ يُسبى العيونَ بمثلها ... كأقراط قبرٍ كُللت بلآلِ

ثم عقب عليهما قائلا : " فهو وان لم يأت بما يظهر عليه غوص الفكر فانه ما قصر فى سبك اللفظ وتقريب المعنى وزيادة التلفيق • واشهر ماتقدمه فى تشبيه النرجس بالاقراط قول ابن عبد ربه القرطبى صاحب العقد :

على ياسمينٍ كاللجين ونرجسٍ ... كأقراطِ تبرٍ فى قضيبِ زبرجدِ

نظر اليه والى قول ابى الطيب السلامىّ :

انظر الى غصنٍ لوته الصبا ... وقد غدا من زهره فى حلى
كأنه جيدٌ على قامةٍ ... من عقده بالدرّ قد كُللا

ولفق منهما ما استحق به اسم شاعر " (١)

هـ ـ ويعتبر ابن سعيد ان وضوح اللفظ ورقته وتلاؤمه مع المعنى الشعرى من مزايا الشعر الجيد • فهو يقدم لبيت طرفه :

يشقُّ حبابَ الماءِ حيزومُها بها ... كما قسّمَ الترب المغاليلُ باليدِ

قائلا بانه شعر : " مرقص كدره استغلاق لغته " (٢)

ويورد هذه الابيات الغزلية لاستاذه الشلوبينى :

ومما شجى قلبى وفضّ مدامعى ... هوىً قد قلبى اذ كلفت بقاسم
تعشّقته جهدى فكان لشقوتى ... وطول عنائى قاسياً غير راحم
وكنت اظن الميم اصلا فلم تكن ... وكنت كميم الحقت فى الزراقم

ثم يقول : " والزراقم : الحيات• والمراد انه قاس• فانظر الى هذا التكلف فى الغزل والتعسف الذى يكدر كل قول وعمل " (٣)

---

١) ـ الغصون ٦ ـ ٧
٢) ـ المرقصات ١٦
٣) ـ القدح ١٥٣

٤ ـ مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد :

من خلال الملاحظات التاليـــة ربما كان بامكاننا الخروج بصورة شبه متكاملة عن مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد .

أ ـ قال ابن سعيد في مقدمة " المرقصات " : " وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وما تحتها " (١)

ب ـ انتقد رسالة ابن العميد بسبب اهماله " التقيد بالسجع " ووصفها بانها من طبقة المقبول (٢)

ج ـ اكثر من ايراد نماذج لاصحاب مذهب السجع والبديع من امثال الهمذاني والحريري والقاضي الفاضل وابن الاثير . وكل ما اورده لهم من نماذج حافل بمحسنات البديـع وصور البيان ، متقيد بالسجع الى ابعد الحدود . (٣)

د ـ لم يورد اية نماذج في " المرقصات " من نثر ابن المقفع والجاحظ . والمعروف انهمـــا يمثلان مذهبين في النثر يختلفان عن مذهب القاضي الفاضل ومن نحا منحاه ، والذي اورده لعبد الحميد الكاتب عبارة نثرية قصيرة مسجعة لاتمثل اسلوبه الاصيل . (٤)

من هذه الملاحظات يتبين لنا ما يلي :

١ ـ ان مقياس الاجادة في النثر الفني هي في ذلك الاسلوب المتقيد بالسجع ، الحافـــل بالمحسنات البديعية ، الملئ بصور البيان من تشابيه واستعارات .

٢ ـ ان القدماء لم يبدعوا في نثرهم كالمحدثين لانهم اهملوا التقيد بشروط النثـــــر الجيد .

× × ×

هذه مجموعة من الاراء النقدية التي امكن استخراجها من مقدمة "عنوان المرقصات والمطربات " ومن النظر في النصوص الشعرية التي اختارها للكتاب ولكتاب "الرايـــات " ولكتاب " المقتطف من ازاهر الطرف " ومن احكامه المنتشرة هنا وهناك في " القدح "و"الغصون " .

---

١) ـ المرقصات ***** ٥
٢) ـ المصدر السابق ٧
٣) ـ المصدر السابق ٩ ـ ١٠
٤) ـ المصدر السابق ٦

واذا جاز لنا ان نجمل ماتقدم امكن تركيز آراء بن سعيد الفقدية فيمايلي :

١ ـ انه لافضل لقديم على جديد ولا قطر على قطر . وان مجال الاجادة مفتوح امام كل صاحب موهبة .

٢ ـ ان لكل عصر ذوقه واساليب بيانه التى تختلف عن العصور السابقة .

٣ ـ مقياس الجودة الشعرية هو الاتيان بصور بيانية تكون بعيدة ، مستجدة ، دقيقة فى تفصيلياتها ، مفاجئة ومدهشة ... تدل على " غوص الفكر " ، وان يكون ذلك فى اسلوب سهل رقيق يجليها ويوضحها .

٤ ـ يمكن للشعر ان يحقق مقدارا من الجودة وان خلا من صور البيان ـ شريطة ان يكون رقيق الاسلوب ، غزلى الموضوع ، مشبوب العاطفة .

٥ ـ النثر المسجوع هو ماتقيد بالسجع وحفل بالبديع وصور البيان .

٦ ـ يجوز للاديب ان يقتبس معانى سابقية شريطة ان يطورها ويجليها اويلفق فيما بينها ببراعة ليأتي بنتاج شبه جديد .

× × ×

من كل ذلك يتبين لنا ان ابن سعيد لايخرج فى آرائه النقدية عن الجو النقدى السائد فى ذلك العصر . وانه يتبنى آراء عرفت بانتشارها فى كتب البلاغة والنقد التى كانت تظهر فى ذلك الحين .

وكتاب " ابن الاثير " المثل السائر " ، وكتاب الرندى " الوافى " ، اللذان تمت الاشارة اليهما شاهدان على ذلك ، واذا كانت آراء ابن سعيد فى النقد لاتمثل اصالة ولا طرافة فى ذاتها فان خطورتها فى انها تحكمت فى اختياره للنصوص وهو المصنف الذى قضى عمره فى البحث عن هذه النصوص وتبويبها وتهذيبها ... وهذا يعنى انه وامثاله من المصنفين الذين خضعوا لنفس المقياس فى الاختيار قد اثروا بصورة قوية فى ذوق هذا القرن والقرون التى تلت عبر مختاراتهم ومصنفاتهم التى اعتبرت خزائن للبيان ونماذج للبلاغة والادب الرائع .

الفصـــل الســـادس

شعر ابـــن سعيد

(١) تمهيـد

- مصـادر شعـــره
- آراء سـابقة متفرقـة في شعـــره

(٢) نقـد شعـــره

- العظاهر الرئيسية
- الناحية الفنية
- تاثيرات متعـــددة في شعـــره

(١) تمهيـــــد

مصادر شعـره

لابن سعيد ديوان شعر رتبه على حروف المعجم ، الا ان هذا الديوان لم يصل الينا . ولكن المقرى ، الذى اخبر عنه [١] ، حفظ لنا قدرا لا بأس به منه . وسيكون التعويل في دراسة شعر ابن سعيد على ما اورده المقرى في " النفح " ، بالاضافة الى ما أورده ابن سعيد من مختارات قليلة لنفسه في " المغرب " و " القدح " و " الرايات " و " الغصون " و " المقتطف " ، وما ذكره له العمرى من نماذج متفرقة في " مسالك الابصار " [٢].

آراء سابقة متفرقة في شعره

نلتقي بابن سعيد ، اول ما نلتقي ، في مجال الشعر وهو شاب في حوالي العشرين من عمره يصحب والده في تجواله بين مدن الاندلس ويجاريه في النظم . فمن ذلك الابيات التي نظمها عند مرورهما في برّية بين وادى المنصور ولورقة عند ما طلب منه والده ان يجيز ويتمم هذا البيت :

ومَجهلةٍ معروفةٍ بتوحشٍ ... يصيرُ بها قلبُ الشجاعِ جبانا

فقال :

ترى الآلَ فيها خافقاً متعطشا ... يعدُّ الى لفحِ الهجيرِ لسانا
لبستُ بها شمسَ الظهيرةِ حُلّةً ... مذهبةً حيث الهجيرُ كسانا الخ

فقال له ابوه : " هذا طراز يعجز عنه ابوك ! " [٣]

واذا تجاوزنا هذا التشجيع الابوى الذى لا يمكن حمله على محمل النقد الجدى ، وجدنا

---

١) النفح ٣/ ٦٩
٢) مسالك الابصار ٨/ ورقة ٣٨٢ ــ ٣٨٨ (نسخة مصورة)
٣) القدح ٤

ابن الخطيب يشير الى تعاطيه المبكر للنظم قائلا : " وتعاطى الشعر في حدث من الشبيبة يعجب فيه من مثله . فيذكر انه خرج مع ابيه الى اشبيلية وفي صحبته سهل بن مالك (١). فجعل سهل بن مالك يباحثه عن نظمه الى ان انشده في صفة نهر :

كانما النهر صفحةٌ كُتبتْ ... اسطرُها ، والنسيمُ ينشئُها

لما ابانت عن حسنِ منظرِها ... مالت عليها الغصونُ تقرؤُها

فطرب واثنى عليه " (٢)

ولا يعلم لماذا طرب سهل وما كان ثناؤه . ولربما اعجبته هذه الصورة البعيدة التي اعتنى باصطيادها هذا الفتى الناشئ .

ويكاد يكون في حكم المتعذر العثور على احكام نقدية واضحة لاحد معاصريه او لمن جاء بعده في القديم . فجميع الاخبار المروية بهذا الشأن تشير الى اعجاب القوم بشعره نظرا لتناسبه مع مقتضى الحال والمقام لا لسبب فني داخلي . فادباء القاهرة — ومن بينهم ابو الحسين الجزار وابن ابى الاصبع — يتهافتون ببيته هذا ويرومون اجازته : (وقد قاله لان الجزار كان يدوس النرجس برجله)

يا واطئَ النرجسَ ما تستحي ... أن تطأَ الاعينَ بالارجُلِ ؟ !

حتى اذا عجزوا أبوا الا ان يجيزه بنفسه ، فيقول :

قابل جفونا بجفونٍ ولا ... تبتذل الارفعَ بالاسفلِ (٣)

وفي مجلس آخر على النيل محفوف بالورد والنرجس ارتجل هذين البيتين :

من فضّل النرجسَ فهو الذى ... يرضى بحكم الوردِ اذ يرأسُ

أما ترى الوردَ غدا قاعدا ... وقام في خدمتهِ النرجسُ ؟

---

١) عالم ، اديب ، رئيس . نفي في ثورة ابن هود من بلده غرناطة الى مرسيه ثم عاد اليها . توفي سنة ٦٤٠ (انظر القدح ص ٦٠ — ٦٥)

٢) النفح ٣/٣٨

٣) النفح ٣/٣٩

" ووافق ذلك مماليك الترك وقوفا في الخدمة على عادة المشارقة ـ فطرب الحاضرون (١) وعند ما دخل على الملك الناصر في حلب أنشده قصيدة مطلعها :

جُد لي بما القى الخيالَ من الكرى لا بد للضيفِ الملمِّ من القِرى

" فقال كمال الدين (ابن العديم) : هذا رجل عارف وريّ بمقصوده من أول كلمة " (٢)

الا ان هذه الاخبار التي تصور الاستحسان الذى كان يقابل به شعره لا يمكن ـ كما ذكرت ـ اعتبارها احكاما نقدية معتمده . واقصى ما يمكن العثور عليه في هذا المجال بعض اشارات الى ابتكاره في الصورة ، كما ورد عن لسان كمال الدين ابن العديم عند ما وجه ابن سعيد الابيات التالية الى الملك الناصر صاحب حلب :

يا ايها الملكُ الذى نفع الزمانُ به وضرّ
اهديت لي التشريفَ لـــــــــكن دونه زاد السفر
فكانما اهديت لي فصلَ الربيعِ بلا مطر

فحلف كمال الدين على ابتداع هذا المعنى " (٣)

والملاحظ ان المصنفين القدامى كانوا يفتتحون ذكره باوصاف كـ " الاخبارى " او " الرحالة " او " المصنف " دون ان يلقبوه بالشاعر . والارجح انه لم يكن معدودا بين الشعراء المتميزين بشهرتهم الشعرية بالرغم من كثرة منظوماته ، (٤) وبالرغم من شيوعها في مصنفاته وفي ديوانه الذى كان متداولا حتى ايام المقرى (القرن الحادى عشر الهجرى) على الاقل ، فقد طغت شهرته مصنفا ورحالة على صفته اديبا يتعاطى نظم الشعر . الا ان الظروف التي ابعدته عن وطنه في حياته وغطت صفته الشعرية ، قيضت لذكره ان يعود الى اسبانيا في القرن التاسع عشر بصفته شاعرا يحن الى وطنه ولا يرضى عنه بديلا ، وذلك عند ما قام خوان فاليرا بترجمة احدى قصائد

---

١) المصدر السابق ٣/٣٩
٢) النفح ٣/٣٩
٣) القدح ٨
٤) فقد جمع المختار من مدحه في الناصر وحده فبلغ خمسة آلاف بيت (القدح ٧)

غربته في "شعر اسباني جميل"، فـ "طار اسم ابن سعيد" بسبب تلك الترجمة [1] اما القصيدة فمطلعها :

هذه مصرُ، فاين المغربُ ؟ مذ نأى عني دموعي تسكبُ

وهي طويلة، وسترد الاشارة اليها فيما بعد .

وتتفاوت آراء الباحثين المحدثين في شعر ابن سعيد : فالمستشرق الاسباني بالنثيا يصفه بأنه "آخر من ظهر من اعلام الشعر في عصر الموحدين) ولكن مايورده بالنثيا بعد هذه العبارة لايستدل منه انه يقصد بالشعر هنا النتاج الشعرى الذاتي، بقدر ما يعني الاهتمام بالشعر رواية ونقدا وتصنيفا، اذ يعقب على عبارته تلك بقوله : "وتتناول الان جانبه كعلم من كبار مصنفي مجموعات النظم والنثر" ثم لايورد في حديثه عنه اى حكم نقدى. [2]

ولعل اوضح حكم اجمالي على شعر ابن سعيد هو ماذكره الدكتور شوقي ضيف في مقدمته لكتاب "المغرب"، اذ قال : "وهو شعر متوسط، قلما يرتفع الى افق فني عال فاجنحته لم تكن من القوة بحيث تجعله يحلّق في آفاق الفن والشعر العليا" [3] ومن الخير ان ناخذ حذرنا من هذا الحكم الذى يورده الباحث على هيئة انطباع ذاتي دون ان يقدم له بأى نوع من انواع البحث المدعوم بالشواهد والادلة . وشبيه بهذا الحكم ما اورده المرحوم الدكتور زكي حسن في مقدمته للقسم الخاص بمصر من كتاب "المغرب" معقبا على حكم الدكتور شوقي ضيف : "والحق ان له بعض الصور الشعرية الجميلة، ولكن معظم شعره عادى" . [4]

* *

يتضح مما سبق ان شعر ابن سعيد لم يحظ بدراسة مستفيضة متأنية، فقد انشغل الباحثون

---

١) تاريخ الفكر الاندلسي ١٣٦
٢) تاريخ الفكر الاندلسي ١٣٥ ـ ١٣٦ .
٣) المغرب ١/ ٩
٤) المغرب (قسم مصر) م ٢٣

بتحقيق كتبه وبالمصنف وبالرحالة فيه دون ان يعتنوا بـه شاعرا .
ولذا فمن حق ابن سعيد علينا في هذا البحث ان نولي شعره عناية تتعدى النظرة العجلى .

(٢) نقـد شعـره

المظاهر الرئيسية

من دراستنا لنقد ابن سعيد ، اتضح لنا كيف انه ـ انسجاما مع الذوق النقدي السائد في عصره ـ كان ينظر الى مقدرة الاتيان بصورة بعيدة مبتكرة دقيقة مدهشة باعتبارها مقياسا للبراعة الشعرية وللمثل الشعري الأعلى، وكيف ان ذوقه بصورة عامة كان يساير مدرسة المحدثين التي تفضل كد القريحة ورقة الأسلوب على عمل البديهة والتدفق والجزالة، وعلى الأخص ذلك الاتجاه داخل نطاق مدرسة المحدثين الذي جوّد مذهب ابي تمام من عمقه الفكري وتعقيده اللفظي وبالغ في ميله الى الافكار والصور البعيدة ، الدقيقة، المنحوته ، المزخرفة والى الأسلوب الرقيق المصقول (١)
ولنا ان نتوقع تأثر ابن سعيد بذلك كله في شعره ، ومحاولته الاحتذاء حذو الشعر "المرقص" الذي كان يجسد تلك المزايا التي فتنت النقاد والناس في ذلك العصر .

* *

وبصورة عامة، يتجاذب شعر ابن سعيد في مجمله طرفان متكاملان مترابطان : الشكوى من الغربة والحنين الى الوطن او الى الماضي . ويتجسد هذا التجاذب ـ على المستوى الفني ـ بين ميل ملحوظ الى تصيّد الفكرة الغريبة والصورة الناتجة عن الكد الذهني وبين احتفال بالصياغة اللفظية وعناية بصقل الأسلوب .
والملاحظ ان الاحساس بالغربة عند ابن سعيد احساس مبكر جدا ، يمكن تلمسه في شعره

---

١) انظر ص٢١٤ من هذا البحث

وهو لما يغادر الأندلس نهائيا ، بعد . فمن ذلك قصيدة قالها بقرمونة، وهي مدينة تقع الى الشرق قليلا من اشبيلية، يتشوق فيها الى غرناطة[1] . والقصيدة وان كانت غزلية وصفية في مجملها ، الا انها تختتم بالتحسر على ماض ناعم اطاح به التغرب

فياليت ماولى معادٌ نعيمُه وأى نعيم عند من يتغربُ ؟!

وفي غرناطة[2] ذاتها نصادفه يبكي زمانا مضى بعد ان يصف ماكان فيه من أنس ونعيم :

أى عيشٍ سمح الدهر بـه كل نعمى ذهبت لما ذهبْ

وكلما ابتعد ابن سعيد عن ملاعب صباه في منطقة اشبيلية باتجاه الشرق او الجنوب ــ وهو في طريقه الى افريقية (تونس) ــ اتضح في شعره الحنين الى موطنه وماضيه ، وازداد عنده حسن الاغتراب . ففي مدينة مالقة (على ساحل الاندلس الجنوبي) ، وهي من آخر المدن التي مر بها قبل رحيله ، نراه يتشوق الى الجزيرة الخضراء الأشبيلية قائلا :[2]

يانسيما من نحو تلك النواحي كيف بالله نورُ تلك البطاحِ

~~آه مما لقيت بعدك من هم وشوق وغربة ولنزاح~~

اين قوم الفتهم فيك لما قرّب الدهر آذنوا بالرواحِ

تركوني أسيرَ وجدٍ وشوقٍ مالقلبي من الجوى من سَراحِ

وفي مرسية (بأقصى الشرق الأندلسي)، وهي ايضا من المدن الاخيرة التي مر بها قبل وصوله الى تونس ببضعة اشهر، نلتقي به في هذه الابيات [3] الحزينة الجميلة ينوح ويتمنى راحة الموت ويستبشر بالرياح ليسألها عن حمص (اشبيلية) .. ويطلب من الحمام جناحا ليطير اليها :

اقلقه وجدٌه فباحا وزاد تبريحُه فناحا

ورام يثني الدموع لما جرت، فزادت له جِماحا

---

١) النفح ٣/ ٥١
٢) النفح ٣/ ٥٧
٣) المصدر السابق : ٣/ ٧٣ــ٧٤
٤) النفح ٣/ ٧٢

يا من جفا فارفقن عليه ... مُستَعبَدا لا يرى السّراحا
يكابدُ الموتَ كلَّ حين ... لو أنه مات لاستراحا
ينزو اذا ما الرياحُ هبّت ... كأنه يعشقُ الرياحا
يسألُها عن ربوعِ حِمصٍ ... لمّا نما عرفُها وفاحا
كم قد بكى للحمامِ كيما ... يعيرَه نحوها جناحا

وهكذا نرى ان هذا الشعور بالاغتراب غدا واضحا في شعره قبيل رحيله الاخير عن الاندلس. ويلاحظ ان هذا الشعور يغدو تارة محورا شعريا رئيسيا كما في الابيات الاخيرة، ويظهر تارة اخرى كصدى ختامي لوصف جلسات الانس ومايتعلق بها من ذكريات كما في الامثلة السابقة، واحيانا يستخدم ابن سعيد موضوعه كحيلة فنية ـ كما هي العادة عند كثير من الشعراء ـ ينفذ بها الى وصف مايريد من رياض وانهار. (١)

وايا كان الامر فان ورود مثل هذه الاشارات ـ على اختلاف حظوظها من القوة والوضوح ـ في اشعاره المبكرة وقبل بدء تغربه الحقيقي، يدل على ان فكرة التغرب كانت ماثلة في ذهنه، ممازجة لشعوره.

وربما امكن تفسير هذه الظاهرة بالالتفات الى الحقائق والاعتبارات التالية:

ا ـ الشعور العام عند الاندلسيين باقتراب شبح "التغرب" مع زحف الاسبان. ويلاحظ ان هزيمة الموحدين في معركة العقاب (٦٠٩ هـ) ـ وهي الهزيمة التي تعتبر بداية النهاية في حياة الاندلس العربية ـ قد جاءت قبل مولد ابن سعيد (٦١٠ هـ) بسنة واحدة، وعليه فان ابن سعيد قد رضع هذا الجو منذ مولده وتشبعت نفسيته به.

ب ـ كون اسرته قد "تغربت" من موطنها غرناطة الى اشبيلية بحكم صلة والده بالذات بامراء الموحدين ـ والمتأمل لتاريخ الاندلسيين يلاحظ ان هذا الانتقال عندهم من مدينة الى اخرى كان يعد نوعا من التغرب الذي تتأثر به النفس وتتألم له.

ح ـ بداية تجواله مع ابيه في بر الاندلس، وبين بر الاندلس وبر العدوة (المغرب) منذ سن مبكرة. فقد صاحب اباه في رحلته الى مراكش وهو مازال في الرابعة عشرة من عمره، وظل ينتقل معه منذ ذلك الوقت بين المدن الاندلسية، حتى غادر الاندلس نهائيا سنة ٦٣٦ هـ (٢)

---

١) النفح ~~المصدر السابق~~: ٣/ ٥١ ـ ٥٤
٢) انظر ص ٧٤ من هذا البحث

وهذا يفسر لنا ـ بالاضافة الى احساسه المبكر بالغربة ـ مدى تعلقه بسنوات "الاستقرار" القليلة في اشبيلية حيث كان يتلقى العلم ويعيش حياة المدينة المزدهرة الضاحكة. فمنذ البدء كان ترحاله هو القاعدة واستقراره هو الاستثناء.

ومع اقامته في تونس بين سنة ٦٣٦ وسنة ٦٣٩، تبدأ ايام غربته الحقيقية ويأخذ شعوره المرير بالاغتراب في الاشتداد والوضوح. وبالرغم من ان ابن سعيد ووالده استطاعا التقرب من السلطان الحفصي ابي زكريا ورجاله، وحصلا على وظائف حسنة لديهم، فان الجو العام لم يكن يوحي بالاطمئنان بسبب تقلب الاحوال وكثرة الوشايات وشدة التنافس.

وفي هذه الفترة، نجد ان الشعور بالاغتراب تتسع دوائره وتتعدد اشكاله وانعكاساته، ويصبح العنوان الرئيسي الذي يشمل جميع مصاعب ابن سعيد الشخصية والمعاشية والاجتماعية. فهو ان فقد بعض وظائفه رد ذلك الى التغرب، وهو ان ساءت علاقته برؤسائه واصحابه لام على ذلك التغرب، وهو ان احس عموما بجور الزمان وسوء الحظ فسر ذلك بانه غريب وحيد. وبعبارة اخرى فان التغرب اصبح بالنسبة له في هذه الفترة مشكلة كيانية. فهذه ابيات من قصيدة يعاتب فيها الوزير التونسي ابن جامع لانه لامه على قلة ثقته فيه: (١)

هل الهجرُ الا ان يطولَ التجنب؟ ويبعُد من قد كان منه التقرّب

. . . . . .

ولو انني ادرى لنفسيَ زلـــةً جعلتُ لكم عُذرا ولم أكُ اعتِبُ

ولكنكم لما مللتم هجرتمُ وذنبكم في الحب من ليس يذنبُ

الى ان يستهلك مالديه من عتاب ولوم، فيرجو الالتفات والعناية بحرمة الغربة التي يساويها بالموت، وكانه يقول ارحم ميتا في شخص هذا الغريب:

فهلا رعيتم انه في ذراكمُ غريبٌ ... وليس الموتُ الا التغرّبُ !

ويصف حزنه وكربه بعد ابيات قليلة، ثم يعود الى استدرار العطف بأسى الغربة: (٢)

سلوا الكأسَ عني اذ تُدار، فانني لأتركُها همّاً ودمعيَ أشربُ

---

١) النفح ٣/ ٤٥ـ٤٦
٢) السابق ٣/ ٤٦

ولا اسمعُ الألحانَ حين تهزني ولو كان نوحاً كنت أُصغي وأطرب
فديتكم كم ذا أهونُ بأرضكم أهذا جزاءٌ للذي يتغربُ ؟

وفي قصيدة أخرى (١) يشير الى ذلك النموذج الشائع من الأصحاب المنافقين ، مؤكدا ان الاغتراب من جديد افضل من مصاحبتهم :

صحابٌ هُم الداءُ الدفينُ، فليتني ولم ادنُ منهم ـ للذئاب صَحُوبُ
كلامهمُ شُهْدٌ ، ولكنّ فعلهم كسُمٍّ له بين الضلوعِ دبيبُ
سأرحلُ عنهم والتجاربُ لم تدع بقلبي لهم شيئاً عليه أُثيبُ
اذا اغترب الانسانُ عمن يسوءه فما هو في الأبعاد عنه غريب

وذنبه الوحيد ازاء هؤلاء الاصحاب الوشاة هو انه نجيب متأدب بين قوم جهلة : (٢)

ولا تستمع قولَ الوشاة ، فانما عدوهم بين الانام نجيبُ
فياليت اني لم اكن متأدباً ولم يكُ لي اصل هناك رسوبُ
وكنت كبعض الجاهلين محببا فها انا للعلم حبيبُ

وقد جعل منه علمه وادبه جملا أجوب يحاذره الجميع فاذا به غريب حتى بين اصحابه : (٣)

فغدوت ما بين الصحابة أجوباً كلٌ يحاذرُ مني الاعداءَ

غير انه يجد في اعتزازه الشديد بنفسه عوضا عن كل ذلك :

ولقد ارى ان النجومَ تقل لي حُجُباً ، وأصغرُ ان أحلَّ سماءَ
فليهجروا هجرَ الفطيم لدرّه ويساعدوا الزمنَ الخئونَ جفاءَ
فلقد شكوت لهم احالةَ ودهم ان لم أكن أرضى بهم خدماءَ

ولكن الاعتزاز بالنفس في غربة قاسية لا يجدي وحده ... وليس بامكانه ان يعين على استمرار المقاومة، فكان لابد من طغيان الشعور الصارخ بانحسار كل الظلال الرفيقة :

---

١) السابق : ٣/٤٣ـ٤٤
٢) المصدر السابق ٣/٤٤
٣) السابق : ٣/٣١

تقلّص عني كلُ ظلٍ .. ولم أجدْ ـ كما كنتُ ألفي ـ من أودّ وأصحبُ
أذو طمعٍ في العيش يبقى وحوله مدى الدهر أفعى لا تزال وعقربُ ؟! (١)

.. ثم رحل ابن سعيد الى مصر . وهنا يصل حسن الاغتراب العربي عنده الى ذروته ويبلغ حد التأزم والألم الذي لايطاق . ففي هذه الفترة يتمازج المخزون من هذا الشعور مع جو التحفظ، القريب من الجفاء، الذي يقابل به المغاربة عامة في القطر المصري، مع مظاهر الاختلاف في العادات والثقافة بين بلاد المغرب ومصر، مع الأثر الذي خلفته وفاة أبيه بعد عام من وصولهما اليها، مع تعذر تأديته لفريضة الحج التي كان يأمل ان يؤديها مذ كان بالاندلس.. أقول تمازجت كل هذه العوامل لتوصل شعور الاغتراب عند ابن سعيد الى ذروة تأزمه .

وينقل ابن سعيد الينا صورته وهو يسير لاول مرة في طرقات مصر (٢)، فاذا بكل شئ غريب حوله حتى وجوه الناس التي أخذ يتمعن فيها فلا يجدها مألوفة بالنسبة له ، واذا بغرابة الاشياء والناس ترتد اليه وتغلّفه حتى يتملكه الشعور انه واحد من الذين ضاعوا في التيه .. ثم عادوا فلم يجدوا لهم اشباها .. وان الغربة لترتسم حتى في الالحاظ فتلفها بوحشة :

أصبحتُ أعترضُ الوجوهَ ، ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريه
عودي على بدئي ضلالاً بينهم حتى كأني من بقايا التيه
ويحَ الغريبِ ! توحّشتْ الحاظه في عالمٍ ليسوا لـه بشبيه

وكان اقسى مايمكن ان يحدث له ، وهو سليل الارستقراطية الاندلسية وحفيد الامراء ، ان ينظر اليه الناس باعتباره أحد أولئك الحجاج والرحالة المغاربة المغمورين ، وان يتعجبوا من خطة المغربي الغريب .. متجاهلين نباهته وطيب محتده : (٣)

ها أنا فيها فريدٌ مهملٌ وكلامي ولساني معربُ

---

١) النفح ٣/٤٧
٢) المصدر السابق ٣/٢٩
٣) المصدر السابق ٣/٥٠

وأرى الالحاظَ تنبو عندما ... أكتبُ الطرسَ أفيه عقربُ ؟
واذا أحسبُ في الديوانِ لم ... يدرِ كتابُهم ما أحسبُ
وأُنادى مغربيا ، ليتني ... لم أكن للغرب يوما أُنسبُ
نسبٌ يشرك فيه خامـــلٌ ... ونبيهٌ ، أين منه المهربُ ؟!
أتراني ليس لي جـدٌ لـه ... شهرةٌ ؟ أو ليس يُدرى لي أبُ ؟

وهنا يدرك قيمة موطنه الذى تركه :

فارقتْه النفسُ جهلا ، انما ... يُعرفُ الشئُ اذا مايذهبُ
أين حمصٌ ؟ أين أيامي بها ... بعدَها لم ألقَ شيئاً يعجبُ

ويكرر المعنى ذاته ثانية :

ان عاد لـي وطني اعترفتُ بحقّه ... ان التغربَ ضاع عمـرى فيـه

•• وتراوده فكرة العودة من مصر الى المغرب بعد ان ادرك ان ماتبعه لم يكن سوى برق خادع :

سوف أثني راجعاً ، لاغرني ... بعد ما جرّبتُ برقَ خلّبُ

ومع تعذر حجه [1] في تلك الفترة يتبين مدى ضياع آماله ومقاصده في خضم هذا التغرب الشاق :

قربُ المزارِ ، ولا زمانٌ يسعدُ ... كم ذا أقرّب ما أراه يبعدُ
وارحمةٌ لمتيمٍ ذى غربـــةٍ ... ومع التغرّبِ فاتـه ما يقصدُ
يا سائرين ليثرب ــ بلغتمو ــ ... قد عاقني عنها الزمانُ الأنكدُ
أعلمتو أن طرتُ دون محلّها ... سَبْقا ؟ وها أنا اذ تدانى مُقعدُ !

وتتأطر صورة الغربة الأليمة هذه برسم كاريكاتورى ساخر يحرص ابن سعيد على نقله الينا حتى تكتمل الصورة بالاطار • فقد اضطر الى ركوب الحمار في طريقه بين القاهرة والفسطاط جريا

---

١) النفح ٣/٧٨

على عادة علية القوم هناك[1] .. فكانت النتيجة أن ..

لقيتُ بمصرَ أشدَ البوارْ ركوبَ الحمارِ وكُحلَ الغُبارْ
وخلفي مكارٍ يفوقُ الرياحَ لايعرفُ الرفقَ مهما استطارْ
أناديه مهلاً فلا يرعوى الى أن سجدتُ سجودَ العثار !

.. ولكن ابن سعيد يستعيد ثقته بنفسه ، ويظهر عزما على استرجاع مكانته ويحاول تعليل ما أصابه من اهمال وضعه قائلا ان عزة الضرغام في عرينه ، وانه لايلام السيف اذا وقع في يد الجبان (كما لايلام الغريب لانخفاض مكانته في البلد البعيد):

فان كنت في أرض التغرب غاربا فسوف تراني طالعاً فوق غاربِ
فصصام عمرو حين فارق كفّه رموه ـ ولا ذنبٌ ـ لعجز المضاربِ
وما عزةُ الضرغامِ الا عرينُه ومن مكةٍ سادت لؤيُّ بن غالبِ[2]

وهكذا يعود اليه ـ بعد الشكوى المريرة ـ اعتداده بنفسه ويتحدث عن طلوع جديد بعد ضعة الغربة وقسوتها .

ولربما قصد ابن سعيد بالابيات الأخيرة العودة الى عرينه (المغرب)، الا ان الذى حدث فعلا هو ان هذا الطلوع الجديد الذى تمناه تمثل في سفره الى حلب واتصاله بسلطانها الناصر الأيوبي .

وبرحيله الى الديار الشامية ، يمكن القول ان شعره ايضا انتقل الى مرحلة جديدة . ففي هذه الفترة لا نرى بين ما روى له من شعر أثرا للشكوى من الغربة وواقع الحال . بل على العكس من ذلك نراه يتفاعل ايجابيا مع بيئته الجديدة ، وينتقل هذا التفاعل الى شعره الذى بدأ يعكس اعجابا وحبا لتلك البيئة .

ويمكن تفسير هذه النقلة الجديدة تاريخيا بالقبول الحسن الذى حظي به ابن سعيد من جهة الامراء والادباء على حد سواء . ثم ان البيئة الشامية عموما قريبة الشبه بالبيئة الاندلسية من عدة أوجه ، واعجاب الاندلسيين بـ " الوطن الام " ظاهرة معروفة بارزة .

---

١) المصدر السابق ٣/ ١٠٣
٢) المصدر السابق ٣/ ٣٤

وقد بلغ من احتفاء الحلبيين به الى حد ان " رئيس الاصحاب " ابن العديم حرص على تهيئة جو " شاعرى " له عند وصوله معه الى حلب . اذ انزله في دار بهستان وماء جار وقال له : " انت اندلسي وقد عرفت ان ديارهم لا تخلو من هذا ". (١)

فكان من الطبيعي ان يشعر ابن سعيد انه في وطنه ، وان ينعكس ذلك الشعور في حالته النفسية وبالتالي في شعره مخفيا بذلك ظلال الغربة الحزينة التي امتدت خلال اقامته في تونس ومصر .

حقا ان ابن سعيد قال شعرا في مظاهر الطبيعة المصرية . واعجب بجمال النيل ورياضه، الا ان ما لدينا من شعره المصرى في هذا الموضوع كله من النوع الوصفي الذى يقصد به الاتيان بالصورة الشعرية العجيبة لذاتها ، ولا يوجد فيه اثر من تفاعل داخلي كالشوق والاسى للمفارقة او التذكر المصحوب بشعور الحنين والحب — بعكس ما نشاهده في شعره الشامي على الخصوص .

فهو مثلا يصف احاطة النيل بالفسطاط وما ينتج عن ذلك من منظر جميل : (٢)

نزلنا من الفسطاطِ ارفعَ منزلٍ ... بحيث امتدادُ النيلِ قد دار كالعقدِ
وقد جمعت فيه المراكبُ سحرةً ... كسرب قطا اضحى يرفُّ على وِردِ
وقد كان مثلَ الزهرِ من قبل مدِّه ... فاصبح لما زادَه المدُّ كالوردِ

ونتابع بقية الابيات فلا نرى اثرا للشعور ، فالغرض فني بلاغي مراده تسجيل تلك الصور والمحسنات البديعية .

وبالرغم من ان ابن سعيد لم يذق احلى من ماء النيل على حد قوله ، (٣) فان ذلك لم ينسه نهر اشبيلية :

يا نيلَ مصرَ، اين حمص ونهرها ... حيثُ المناظرُ انجمٌ تلتاحُ ؟
في كلِّ شطٍّ للنواظرِ مسرحٌ ... تدعو اليه منازحٌ وبطاحُ

---

١) المقتطف ورقة : ٧١
٢) المغرب (قسم مصر) ٨
٣) المصدر السابق ٨

واذا سبحتُ فلستُ اسبحُ خائفا ما فيه تيارٌ ولا تمساحُ (١)

اما عندما واجه نهر العاصي في حماة ــ على اختلاف ما بين العاصي والنيل من حيث الامتداد والجلال وتعدد المناظر ــ فانه يقف موقفا آخر : فاذا به ينسى نهر اشبيلية ، واذا به ينسجم ويتناغم مع النهر الحموي فيفوق نواعيره رقصا و "عصيانه" عصيانا ، ويصبح جزءا لا يتجزأ من المشهد " العاصي " ، الشادي ، الراقص :

حمى اللهُ من شطيّ حماةَ مناظرا وقفتُ عليها السمعَ والفكرَ والطرفا
يلومونَ ان اعصي التصونَ والنُّهى بها واطيعُ الكأسَ واللهوَ والقصفا
اذا كان فيها النهرُ عاصٍ فكيف لا احاكيه عصيانا ، واشربُها صِرفا
واشدو لدى تلك النواعيرِ شدوَها واغلبُها رقصا ، واشبهُها عزفا (٢)

واذا كان الشعور الشديد بالاغتراب قد حجب عنه ــ في شعره على الاقل ــ جمال ارض الكنانة وخصبها وروح مجتمعها الودود ، حتى قال :

كم ذا تقيمُ بمصرٍ معذّبا بذويها
وكيف ترجو نداهم والسحبُ تبخلُ فيها ؟ !

فان شعوره بالالفة والقبول في الديار الشامية ، هو الذي جعله يعتبر حلب " مقام "غرامه و "قبلة " اشواقه ، ويحن اليها هذا الحنين القوي :

حادي العيسِ ! كم تُتيحُ العطايا ! سِقْ ، فروحي من بعدِهم في سياقِ
حلبٌ انها مقرُ غرامي . . ومرامي ، وقبلةُ الاشواقِ . . . .
كم بها مرتعٌ لطرفٍ وقلبٍ فيه يُسقى المنى بكأسٍ دِهاقِ (٣)

والشعور ذاته هو الذي ولد هذه الابيات الجميلة في دمشق الشام ، تلك الجنة التي يمكن ان يجد فيها "الغريب" وطنه :

---

١) النفح ٣/٧٢
٢) المصدر السابق ٣/٩٢ــ٩٣
٣) المصدر السابق ٣/٩٢

اما دمشقُ فجنةٌ ... يبنى بها الوطنَ الغريبْ
انظر بعينك هل ترى ... الا محباً او حبيبْ
ارضٌ خلت ممن ينغّص ... او يراقب او يعيبْ (١)

او هذه الابيات الرقيقة الموحية :

اما دمشقُ فما في الارض مشبهُها ... جناتُ عدْنٍ بها ما يشتهي البشرُ
بها النعيمُ غدا للناس مكتملاً ... مطولاً وهو في الافاق مختصرُ
وقد تجلت من اللذات اوجهُها ... لكنها بظلالِ الدوْحِ تستترُ
وكل وادٍ به موسى يفجره ... وكل روضٍ على حافاته الخضرُ

* *

ولا تسعفنا المصادر بعد هذا بالمزيد من المادة الشعرية حول هذا الموضوع . وفي شعره العراقي الذى وصل الينا وصف وغزل وخمريات دون اية اشارات لناحية الاغتراب . ومما لا شك فيه ان ديوان ابن سعيد الكامل هو الذى يروى "القصة" كلها بتفصيل ودقة . والارجح ان ابا الحسن بعد تجارب الاغتراب الطويلة ، المتعددة الالوان ، اعتاد هذا النوع من الحياة ووطن النفس على قبوله ، فلم تعد الاجواء الجديدة الغريبة تفاجئه كما حدث له لاول مرة عندما سار في طرقات مصر . والانسان ينفعل مع التجربة الاولى ، فمتى تعددت التجارب غدت مظهرا عاديا ، وليس من شأن التكرار الاعتيادى اثارة مشاعر او توليد فكر .

ولعله من الخير الاشارة هنا ، الى ان احساس ابن سعيد بالاغتراب لم يتبلور في "موقف" معين او "نظرة فكرية" محددة تلون بطابعها نتاجه الشعرى او تعكس نفسها وتمتد بظلالها الى الوان شعره الاخرى . بل ظل ذلك الاحساس نوعا من الشكوى الصاخبة المباشرة التي تحاول استدرار العطف والتي تتاثر بالظروف الآنية سلبا او ايجابا . كما انها رغم صخبها

---

١) الغصون ١٤٣ــ١٤٤

والحاحها لم تعكس عاطفة قوية وشعورا حارا يتناسب – على المستوى الفني الشعوري – مع قسوة الغربة التي ساواها ابن سعيد بالموت.

وبناء على ذلك، واستنادا الى ما وصلنا من شعره، يمكن القول ان حس الاغتراب عند ابن سعيد، رغم وضوحه واستمراره مدة من الزمن، لم يتحول الى مستوى التيار السيكولوجي المستمر في مجرى الذات. وربما كان ذلك عائدا الى عدة عوامل في طليعتها تكوين ابن سعيد النفسي الذي تمت الاشارة اليه في الفصل الخاص بشخصيته، والذي يتصف بالبعد عن الحدة الانفعالية الداخلية، الضرورية لكل عمل شعري يتميز بالزخم الشعوري. كما ان ذهنية ابن سعيد ليست من النوع التأملي المستغرق الذي يستطيع اتخاذ موقف فكري محدد من قضايا الحياة. بل ان ذهنيته تلك، التي يمكن وصفها بأنها " تصنيفية "، زخرفية، تفصيلية، هادئة، قد افسدت عليه – فيما أرى – كثيرا من المحاولات الشعرية التي كان يمكن ان تنال حظا وافرا من النجاح في ظل الظروف الفريدة التي مر بها ابن سعيد من فقدان لوطن، وابتعاد عن أهل، واغتراب طويل الامد، ومواجهة لظروف صعبة، ومعاناة لتجارب جديدة متنوعة، واحتكاك بأوساط ثقافية مختلفة ...

* *

الى جانب محور الغربة، نلحظ في شعر ابن سعيد محورا آخر يرتبط به في بعض الاحيان شكلا وموضوعا، ويستقل عنه في أحيان أخرى استقلالا تاما. هذا المحور هو موضوع " وصف " مظاهر الطبيعة الاندلسية كما تتمثل في المشاهد والمنتزهات التي قضى فيها ابن سعيد جانبا من أيام شبابه، بالاضافة الى مناظر الانهار والرياض على وجه العموم.

والواقع ان هذا الوصف ليس مجرد رسم لمشاهد الطبيعة بشكل او بآخر بقدر ما هو حديث عما يدور في " مجالس اللهو "... ففي هذا النوع من الشعر نرى ابن سعيد يصف لنا المشهد الطبيعي العام ثم يتحدث عما دار فيه من " مغازلة " لمحبوب، ومن " شراب "، ومن سماع " طرب ".

وقد يغلب أحيانا على القصيدة الطابع الغزلي او الطابع الخمرى المجوني، او الطابع الوصفي، الا انها تظل بصورة عامة جامعة لكل هذه الجوانب.

وبناء على ذلك، وتسهيلا لخطة البحث، ربما جاز لي ان أدرج شعره في هذا الموضوع تحت عنوان الحديث عن " مجالس اللهو "، على ان يفهم من ذلك تلك الجوانب الشعرية مجتمعة.

* *

ربط ابن سعيد في كثير من قصائده بين حديثه عن الغربة وبين وصفه لمجالس لهوه في الاندلس، بحيث يأتي ذلك الوصف تجسيدا لتألق حياة السعادة الماضية التي يقارنها الشاعر بحياة الغربة القاتمة، وكأنه أراد ان يقارن بين لوني الماضي المتألق، والحاضر القاتم، ليوضح — عن طريق المقارنة بين الاضداد — مدى قتامة حاضره وتألق ماضيه في الوقت ذاته.

وفي مثل هذه القصائد يفتتح ابن سعيد حديثه بالتشكي من الغربة وينهيه بالموضوع ذاته. تاركا لذكريات الاندلس مجال الظهور في الوسط وكأنها حلم يقظه معلق بين حدّى الواقع المرير، وواقع الغربة. ومن افضل الامثلة على ذلك قصيدته الشهيرة التي قالها في مصر والتي تبدأ بالاشارة الى الغربة ثم تنتقل الى التحدث عن مدن الاندلس واحدة بعد الاخرى (المدن التي عاش فيها ابن سعيد) في اطار وصفي يغلب فيه طابع التألق واظهار البراعة على صدى التذكر المشوب بالالم الذى يظهر خافتا بين مشهد ومشهد :

أين حمص ؟ أين أيامي بها ؟ بعدَها لم ألقَ شيئا يُعجبُ
كم بعيش لي بها من لـذة حيثُ للنهر خريـرٌ مُطرب
وحمام الايك تشدو حولنا والمثاني في ذراها تصخبُ

ثم ينتقل في وصفه من مكان الى آخر

ولكم "بالعَرْجِ" لي من لذةٍ بعدها ما العيشُ عندي يَعذُب

...

ولكم في "شنتبوس" من منى قد قضيناه ولا من يعتب

...

بل على "الخضراء" لا أنفكُ من زفرةٍ في كل حين تلهب
حيث للبحرِ زئيرٌ حولَها تبصِرُ الاغصانَ منه ترهب

...

والى "مالقةٍ" يهفو هوىً قلبُ حبٍّ بالنوى لا يُقلب
أين ابراجٌ بها قد طالما حث كاسي في ذراها كوكب
حفت الاشجارُ عشقا حولنا تارة تنأى، وطورا تقرب الخ

وتنتهي هذه المشاهد والذكريات البعيدة بعودة الى الواقع المر:

هذه حالي، وأما حالتي في ذرى مصرَ فَفِكرٌ متعب (١)

* *

وفي قصائد أخرى استخدم ابن سعيد شعره الوصفي هذا استخداما فنيا بان جعله افتتاحيات للأمداح على عادة الاندلسيين. فمنذ عصر سابق لعصر ابن سعيد "اصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة او "العامل الكيميائي المساعد" في القصيدة الاندلسية، فهو فاتحة القصيدة او اساس يبنى عليه موضوع الخمر، او موضوع الحب "(٢). من ذلك قصيدة يمدح فيها أمير تونس أبا زكريا الحفصي:

---

١) النفح ٣/ ٥٠

٢) تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٠٣

الأفق طلق والنسيم رخاء ... والروض وشّت برده الأنداء
والنهر قد مالت عليه غصونه ... فكأنما هو مقلة وطفاء
وبدا نثار الجلنار بصفحة ... فكأنما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازا فوقه ... فكأنما هي حلّة زرقاء
فأدر كؤوسك كي يتم لك المنى ... واسمع الى ماقالت الورقاء
تدعوك : حي على الصبوح فلاتنم ... فعلى المنام لدى الصباح عفاء (١)

ويلاحظ انه يجمع في افتتاحياته هذه بين الوصف الطبيعي والجو الخمري كما في الابيات السابقة، وقد يغلب عليها احيانا الجانب الغزلي مع الاحتفاظ " بخلفية " طبيعية، كما في هذه الابيات التي افتتح بها قصيدة مدح في ابن عمه ابي عبد الله بن الحسين بن سعيد :

آه مما تكنّ فيك الجوانح ! ... ود موعي على نواك سوافح
~~بأبي الاعلام حسنا أما تحسن حتى يتم اطراء مادح~~
يازمان الوصال، عودا، فاني ... طوّحت بي لما غدرت الطوائح
أين عيش " العروس " اذ يبطح السكر حبيبي ما بين تلك الاباطح
والاماني تترى، ولا أحد ينصح اذ لا يُصغى الى قول ناصح
وزمان السرور سمح مطيع ... ورسول الحبيب غادٍ ورائح
~~ولكم ليلة أتاني بلا طيب ولكن يزرى بأذكى الروائح~~
هو ظبيٌ، فليس يحتاج طيبا ... قد كفاه عرف من المسك فائح
مثل عليا مجدٍ، لم تكن كسبا، ومالا يكون في الطبع فاضح

اما القسم الاعظم من شعره في هذا الموضوع فهو المقطعات القصيرة او المتوسطة الطول التي تدور حول جلسة لهو او وصف مشهد طبيعي معين او صورة خاصة ~~لطبق~~ فرس او تفاحة او قارب الخ . وهذه المقطعات تأتي مستقلة غير مرتبطة بموضوعها وهي على الاغلب قائمة على ابراز صورة بيانية او براعة بديعية، اذ في هذه المقطعات يظهر بوضوح ميل ابن سعيد الى

---

١) النفح ٣/ ٣٠

الاتيان بالفكرة الغريبة والصورة المزخرفة البعيدة في اسلوب مثقل بالبديع، بل ان هذه المقطعات لتدل على ان البيان والبديع كانا الهدف والغاية وان موضوعاتها ماهي الا وسيلة اختيرت نظرا لتناسبها وقابليتها الشديدة للغرض البياني البديعي . أما اذا تجاوزت بعض هذه المقطعات التمسك الشديد بهذا الغرض، فانها تأتي خلقا " لموقف غزلي " او احياء " لجو خمرى نواسي " .

فمن قطعة الوصفية " الزخرفية " قوله في وصف حصان اصفر أغر أكحل :

وأجردَ تبريٍّ أثرتُ به الثرى ... وللفجرِ في خصرِ الظلام وشاحُ
له لون ذى عِشق وحسنُ معشّق ... لذلك فيه ذُلة ومِراحُ
عجبتُ به وهو الاصيلُ، بعُرفه ... ظلامٌ، وبين الناظرين صباحُ (١)

فهذه ابيات ثلاثة أقل ماتوصف بانها " معرض ألوان " : فهذا الفرس " أصفر " بلون الذهب ينطلق بين " بياض " الفجر و " سواد " الليل، وهو بين " صفرة " و " بياض" يجمع بين اصفرار العاشق وحسن المعشوق، وهو بالوانه المتعددة من صفرة وبياض وسواد يجمع الليل والفجر والاصيل . والابيات ـ في وصفها للفرس ـ تمر سراعا بصورة للفجر كوشاح يلف خصر الظلام . وهي على قلتها تزدحم بحشد بديعي يتمثل في : جناس غير تام بين "أثرت" و " ثرى "، وطباق بين " ذى عشق " و "معشق" وبين " ظلام " و "صباح "، وتورية في لفظة " الاصيل " بين معنى " أصالة " الحصان وبين لونه الاصفر الذى يشبه الاصيل .

ومن الابيات التي اعجب بها ابن سعيد نفسه وذكرها باعتبارها نموذجا لشعره الجيد ، قوله (٢) :

كأنما النهرُ صفحةٌ كُتبت ... أسطرُها ، والنسيمُ منشئُها
لما أبانت عن حسنِ منظرِها ... مالت عليها الغصونُ تقرؤُها

وهذه صورة تفصيلية دقيقة لا يمكن للبديهة ، ولا حتى للتأمل المنفعل بجمال المنظر ان يتنبه لها .. واجهاد الفكر وحده يمكن ان " يصطاد " تلك العلاقة بين ذلك التشبيه ومنظر

---

١) المغرب ٢/ ١٧٣
٢) المغرب ٢/ ١٧٣، الرايات ٦٦

النهر ويولد فيها دقائقها : فصورة الاغصان المائلة على صفحة النهر الرجراجة التي يحركها النسيم تشبه صورة القارئ المنكب على صفحة يقرؤها !

ليس ذلك فقط بل ان كل جزء في الصورة المشبهة يطابق مثيله في الصورة المشبه بها . النهر هو الصفحة .. والتموج هو السطور .. والنسيم هو الكاتب والاغصان ـ المعجبة بحسن المنظر ـ هي القارئ أو القراء !

والمتأمل لصور ابن سعيد يرى ان ميزتها الكبرى الغرابة والدقة وكثرة التفاصيل ، اما عيبها الاكبر فهو انها تحوّل حيوية الحركة الى جمود مزخرف ساكن . فعند وصفه للفرس نراه يبرز الالوان دون ان ينتبه ـ حتى من وجهة نظره المهتمة بناحية اللون في الصورة ـ الى ان تلك الالوان يمكن ان تتداخل وتتمازج في تراقص لوني مدهش عند ما ينطلق الفرس في عدوه السريع . بل اننا لا نرى من مظاهر الحركة في ذلك الوصف الا صورة الغبار الذى أثاره انطلاقه : "أثرت به الثرى" أما ماعدا ذلك فالوان متلاحقة ساكنة . وفي المثال الاخير نرى كيف تحولت حيوية منظر الاغصان المتمايلة الى جمود انسان يقرأ كتابا وكيف تجمد النهر المتدفق المتموج الى صفحة خطت عليها سطور جامدة !

وهو يعطي احيانا صورا اكثر اتساعا للمنظر الطبيعي عن طريق اضافة صورة جزئية الى اخرى بقصد رسم المشهد كله ولكن هذه الرسوم قلما تعكس وحدة متكاملة وأقصى ماتصل اليه اعطاء صورة لنقش مزخرف قد يكون من الممكن تلمس بعض انسجام بين الوانه واشكاله . من هذا القبيل قوله [1] :

الروضُ يرد بالندى مطروزُ ... والنهرُ سيفٌ بالصَّبا مهزوزُ
كُتبت به خوف النواظرِ اسطرٌ ... فعليه من خطِ النسيم حُروزُ
ورمت عليه الشمسُ فضلَ ردائِها ... فعلا مذابَ لجينها ابريزُ
والغصنُ ان ركد النسيمُ كأنه ... أَلِفٌ بهمزة طيره مهموز
وكأنما الازهارُ فيه قلائدٌ ... وكأنما الاوراقُ فيه خزوز

---

[1] المغرب ٢/١٧٦

وكأننا امام زخرف على جدار قصر عربي تختلط فيه النقوش بالخطوط الكتابية بين برد مطروز وحروز كتبت ضد العين الحاسدة وألف مهموز تحيط به قلائد وخزوز . الا ان هذا التفنن لا يخفي الجمود والسكون المسيطرين على المشهد ، وان المرء ليندهش كيف يحول الكد الذهني والتكلف الغصن وطيره الى ألف وهمزة !

وفي بعض الصور الجزئية [1] يتمكن ابن سعيد من بث مسحة حياة في المشهد ومن خلق شيء من التفاعل بين جوانبه ، كقوله واصفا الجزيرة الخضراء :

حيثُ للبحرِ زئيرٌ حولَها ... تبصرُ الاغصانَ منه ترهبُ

وكقوله في القصيدة ذاتها وقد رفع درجة التفاعل الى مشاركة بين الطبيعة والناس :

حفّت الاشجارَ عشقا حولنا ... تارةً تنأى ، وطورا تقربُ

جاءت الريحُ بها ، ثم انثنت ... أتراها حذرت من يرقبُ ؟

وفي أحيان نادرة يرتفع وصفه للمنظر الى درجة " التشخيص" والمشاركة الوجدانية كقوله في دولاب يسقي حديقة وكان ذلك اثناء فترة اغترابه الاول في تونس [2] :

وذات حنينٍ ، لا تزالُ مطيفةً ... تئنّ وتبكي بالدموعِ السواكبِ

كأن أليفا بان عنها ، فأصبحت ... بمربعِه كالصّبِ بعد الحبائبِ

شربتُ على تحنانها ذهبيةً ... ذخيرة كسرى في العصورِ الذواهبِ

فهاجت لي الكأسُ ادكارَ مغاضبٍ ... فحاكيتُها وجداً بذاك المغاضبِ

ويقرب من جو المشاركة هذا ابياته في وصف العاصي بحماة ، وقد تمت الاشارة اليها [3] :

يلومون ان اعصى التصونَ والنُّهى ... بها ، واطيعُ الكأسَ واللهوَ والقصفا

اذا كان فيها النهرُ عاصٍ فكيف لا ... أحاكيه عصياناً وأشربُها صرفا

وأشدو لدى تلك النواعيرِ شدوها ... وأغلبُها رقصا ، واشبهُها عزفا

---

١) النفح ٣/٥٠٤

٢) المصدر السابق ٣/٥٦٤

٣) انظر ص ٢٧٩

ومن اللمح الشعرية عند ابن سعيد استغلاله لايحاء الجو القصصي الديني في اضفاء مسحة موحية على المنظر الطبيعي، الا ان هذه الاشارات نادرة عنده ولا تشكل ظاهرة في شعره . ومن أجمل اشاراته في هذا المجال تصويره لينابيع دمشق وكأنها تتفجر من ضربات موسى، ولرياضها وكأنها تخضّر من لمسات الخضر :

أما دمشقُ فما في الارض مشبهُها ... جناتُ عدْنٍ بها مايشتهي البشرُ

.....

وكل وادٍ به موسى يفجّره ... وكل روضٍ على حافاتِه الخضرُ

ونرى لذكر الازهار، الظاهرة البارزة في شعر الطبيعة الاندلسي (١)، بعض آثار في شعره أيضا . فمن ذلك وصفه للزهر باعتباره " تذكارا " للماضي الجميل (٢) :

ياحبذا نسمةً هبت لناشقِها ... غِبّ الكرى سحرا من روضة الحبَقِ

حسبتُها عندما هبت وقد نعشت، ... ببلّة من نداها، روحُ مُنبثقِ

قرنفلَ الهند قد وافى التجارُ به ... محافظين على تشتّت له عبقِ

فعند مافضّه الداوىّ ذكرني ... بطيبه طيب عيش مر لي أنِقِ

بتونس أنسَ الرحمنُ ساكنَها ... وسقّيت أبداً بالعارضِ الغدِقِ

وقوله في " تفضيل " الورد على النرجس (٣) :

من فضل النرجسَ فهو الذى ... يرضى بحكم الوردِ اذ يرأسُ

أما ترى الوردَ غدا قاعدا ... وقام في خدمتِه النرجسُ ؟!

أما في أبياته الغزلية التي ترد عادة ضمن وصفه لمجالس اللهو، فانه يصطنع مواقف متناقضة ولا يلتزم بموقف واحد له طابع في الغزل محدد معين . فهو تارة عذري وتارة متماجن صريح الى أبعد الحدود، وهو تارة يتمنى طيف الحبيب في الكرى ولا يراه وتارة أخرى يأتيه الحبيب ليبيت عنده الليل بأكمله . والملاحظ انعدام وجود شخصية غزلية

---

١) تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ١٩٤

٢) رحلة التجاني، ٢٥٢

٣) النفح ٣/٣٩

معينة في غزله وهو لا يذكر أسماء أحبته ، ولا تشير المصادر — من ناحية أخرى — الى تعلقه بمحبوب ، ولابن سعيد غزل غلماني الا انه لاينزع الى درجة الفحش.

فمن غزله الذى يشير الى حرمانه وهجر محبوبه له قوله (١):

طلبُ الوصلِ منك عينُ المُحال ... فالى كم أُغر بالآمال

ما أبالي اذا وعدتَ بوعد ... وخدعتَ المُنى بطول المطال

يابخيلا بوصله كيف بالغت ... فما جدتَ لي بوصل الخيال

لم تجدْ بالكرى وجدتُ بروحي ... ان هذا الغاية في الضلال

ويبالغ في هذا الاتجاه حتى يتلمس العذر لهاجره (٢):

وبلّغه عما أوجب الهجرَ بيننا ... وان لم يجد عذراً ، فعندى له عذرُ

ولكن هاجره ياتي على حين غفلة بعد هجر وصد دون ان يبدى سببا لوصله او لصده (٣):

ياحبذا زورةً تأتت ... منها على غفلةِ اللواحْ

فلم أصدق بها سرورا ... وظلتُ نشوانَ دون راحْ

أما منعتُ السلامَ دهرا ... ولا رسولٌ سوى الرياحْ

قالت: ألا فانس ماتقضي ... فمن يدع ماضى استراحْ

.....

كأنما بتّ بين روضٍ ... والغصنِ والوردِ والاقاحْ

وبعد ان كان بخيلا بوصل الخيال ، لايبخل عليه هنا بشئ (٤):

ولا فيه من بخلٍ ، ولا بي قناعةٌ ... كلانا بلذات التواصلِ مُعجَبُ

بل هو مطواع رهن اشارته (٥):

بالله مل معتنقاً لاثما ... فمال كالغصنِ ثنته الصبا

وقال: ماترغبُ ؟ قلت اشتد ... أدركت اذ كلمتني المَرغَبا

---

١) مسالك الابصار ٣/ ١٨٥

٢) المصدر السابق ١٨٥

٣) النفح ٣/ ٧٧

٤) المصدر السابق ٣/ ٥٢

٥) النفح المصدر السابق ٣/ ٥٣ــ٥٤

فكانَ ماكان، فواللهِ ما ذكرتُه دهريَ او أُغلبا

ويبدو محبوبه احيانا وفيا مخلصا يستسهل الصعب في سبيله (١)

فقالوا :الا قد خانَ عهدَك، قلتُ لم يخنِ من اذا قربتّه يتغرّب

وكم دونه من صارمٍ ومثقفٍ فيا من رأى بدرا بهذين يُحجَبُ

على انه يستسهلُ الصعبَ عندما يزور، فلا يُجدي حِمْى وترقّبُ

ويبدو أحيانا أخرى هاجرا متجنبا غادرا (٢):

هل الهجرُ الا ان يطولَ التجنبُ ؟ ويبعدُ من قد كانَ منه التقربُ ؟

وتُقطعُ رُسْلٌ بيننا ورسائل ويمنعُ لقيانا نوى وتحجبُ

الى الله أشكو عُدْركم وملالكم وقلبا له ذاك التعذّبُ يعذُبُ

ويلاحظ ان أغلب مقطعات غزله التي تعبر عن هجر وصد ، كالابيات الاخيرة، تعود الى فترة اشتداد احساسه بالغربة في تونس او في مصر .

* *

أما الجانب الخمري في جلسات لهوه فلا يعدو ان يكون ترديدا لاجواء أبي نواس وأوصافه وتشابيهه ، الا انه ترديد وصدى خافت لا تسرى فيه حيوية الصوت الاصلي :

فهذه بعض الاوصاف والتأثيرات المعهودة عند ابي نواس:

شربنا عليها قهوةً ذهبيةً غدتْ تشربُ الالبابَ أيّانَ تُشربُ

اذا ماشربناها لنيلِ مسرّةٍ تبسّمَ عن درٍ لها فتقطّبُ

أتت دونها الأحقابُ حتى تخالَها سرابا بآفاق الزجاجة يلعبُ

كواكبُ أمست بين شَرْبٍ ولم تخل بان النجومَ الزُهر تدنو وتقربُ

---

١) المصدر السابق ٣/ ٥١

٢) المصدر السابق ٣/ ٤٥

ظللنا عليها عاكفين وليلنا نهارٌ الى ان صاح بالأيكِ مُطربُ
صُرعنا ، فامسى يحسب السكرُ قد قضى علينا ، وذاك السكرُ أشهى واعجبُ (١)

وعصبته في الشرب هي العصبة النواسية التي ترى الفساد صلاحا وتكره التستر وتستثقل من يكره المزاح (٢) :

لا يعرفون تسترا السكرُ عندهمُ مباحٌ
متهتكون لدى المنى وفسادُهم فيها صلاحٌ
لا ينكرون سوى ثقيلٍ لا يميلُ به مِـــزاحٌ
أفنى الذى قد جمّعو ه الكأسُ والحدقُ المِلاحُ

وقد حاول ابن سعيد ، أثناء اقامته في العراق، أن يستعيد الاجواء الخمرية النواسية في مواضعها الحقيقية . فعندما كان في بغداد اجتمع بالنجم بن شجير البغدادى ورآه " مكثرا من ذكر قطربل مع مافي النفس عنها من ذكر ابي نواس لها . فاقتضى الحال المسير اليها ، وهي كروم وبساتين على الغربي من دجلة، ثم اقتضى الاجتماع " ان قام بنظم هذه الابيات (٣) التي تسير على نمط الحكاية الخمرية النواسية :

قم نديمي لحانة الخمّارِ ننفِ ماقد أصابنا من خُمارِ
قم لقطربّلٍ فان بسمعي لفظُها غير مُحوجٍ للقمارِ
وهدانا شذىً من الدير دارتْ كأسُهُ قبل حثّ كأس العُقارِ
ثم جينا الى عجائز قسٍ لابس سبحةَ مع الزنّـارِ
نسج العنكبوتُ سِترا عليها كم به هُتكت من الاستارِ
قلت ماهذه ؟ فقال :شموسٌ ستروها بظلمةٍ من قارِ
ثم وافى بساطعٍ مستطيلٍ يترك الليلَ في رداءِ النهارِ
لم نطق أن نزيد شيئاً على الذوقِ، وبتنا صرعى على الازهـــارِ

---

١) النفح ٣/٥٢
٢) المصدر السابق ٣/٧١
٣) المقتطف ورقة ٥٤

ويمكن في هذا المجال متابعة ابن سعيد في ترديده ﻟﻸصداء ابي نواس حتى في مبالغاته الشهيرة التي أخذها بدوره ممن سبقه من شعراء الخمرة او التي زاد عليها حتى اوصلها الى درجة التطرف الشديد . فها هو ابن سعيد يتحدث عن سكر يجعل الناس عبيدا في نظره ويربط بين وجوده وبين الخمرة :

يجرى الزمانُ طوعي ... بكلّ ما أريدُ
الخمرُ ملّكتني ... فالخلقُ لي عبيدُ
فها انا اذا ما ... فقدتُها فقيدُ
يا من يلوم بغياً ... العذلُ لا يُفيدُ
اذا عَدِمْتُ كاسي ... فليس لي وجودُ (١)

وقد تناول شعر ابن سعيد ، بالاضافة الى ماذكر ، موضوعات متعددة منها مايدخل ضمن المدح او الرثاء او العتاب ومنها مايمكن ان ينسب الى شعر الرسائل الاخوانية، وله قصيدة طويلة في مدح الحضرة النبوية قالها بعد ان تعذر حجه عند وصوله الى الاسكندرية وأهميتها فيما تكشفه من شعور بالغربة تمت الاشارة اليه ، اما فيما عدا ذلك فانها لا تتجاوز مسحة المدح والتفخيم بما تورده من ذكر للفضائل والمعجزات .

الناحية الفنية

من الحديث عن المظاهر الرئيسية في شعر ابن سعيد ومن الملاحظات الجانبية، التي صحبت ذلك الحديث عن فنه ربما برزت بعض خصائصه الفنية الظاهرة . وسينصب الاهتمام هنا على هذه الناحية .

---

١) النفح ٨٢/٣

تكثر المصادر – ومن بينها مصنفات ابن سعيد نفسه – من ذكر المواقف الشعرية "الارتجالية" له عند مدحه للامراء او عند اشتراكه مع اصحابه في وصف جلسات اللهو والمناظر الطبيعية. ولو حملنا تلك الاخبار على محمل الجد دونما تمعن طويل في تلك الاشعار "المرتجلة"، لاعتقدنا ان البديهة والارتجال والانفعال العفوي يغلب على شعر ابن سعيد. ولكن التأمل حتى في تلك الاشعار التي قيلت "ارتجالا" يثبت عدم صحة ذلك الاعتقاد، بل ويثبت العكس تماما.

وقد تكون تلك الاخبار صحيحة، وليس من داع للشك في صحتها، ولكن يجمل بنا ان ننتبه الى ان لابن سعيد، بحكم مهنته التصنيفية، وبحكم اهتمامه بحفظ الشعر ونظمه منذ الصغر، "تمرسا" طويلا بالاساليب والصور الشعرية، بل انه يمكن القول ان ذاكرته قد خزنت انماطا معينة من التعابير والتشابيه والافكار لتستخدمها "عند الحاجة".. وان مهمة ابن سعيد في تلك المواقف الشعرية الارتجالية التي تتطلب عمل البديهة تنحصر في ملاءمته بين ذلك المخزون الشعري وبين الموقف المعين. فمن شعره المرتجل قوله مخاطبا أحد اصحابه، وقد تمت الاشارة الى ذلك من قبل (١):

يا واطئ النرجسَ ما تستحي ... أن تطأ الاعينَ بالارجلِ ؟
قابل جفونا بجفون ولا ... تبتذل الارفعَ بالاسفلِ

ان تشبيه النرجس بالعيون تشبيه قديم معروف، ثم ان المقابلة الذهنية بين أرفع وأرفع، وأسفل وأسفل لا تحتاج الى "بديهة" من ابن سعيد المصنف الذي تخضع تآليفه لنظام دقيق، وحتى عبارة "جفونا بجفون" توازي لفظا الحكم الفقهي: "العين بالعين والسن بالسن"!

ويذكر ابن سعيد ان مقطوعته القطربلية، التي ورد ذكرها، قد قيلت ارتجالا، ولكن اتضح لنا كيف ان تلك الابيات مجرد تكرار لمعان شائعة في شعر ابي نواس، كانت مخزونة في ذاكرته منذ زمن بعيد، أي منذ بداية عهده بالتقييد والنقل.

---

١) انظر ص ٢١٧ من هذا البحث

ويلاحظ في شعر ابن سعيد تكرار متواتر للمعاني الشائعة في الشعر العربي بحكم كثرة محفوظه ، وهذا التكرار ان دل على شيء فانما يدل على ان الذاكرة، لا البديهة، هي التي تسعف ابن سعيد في شعره الارتجالي . وقد تنبه الى هذا التكرار المحقق الذى حقق شعره في النفح (في طبعته المصرية الاخيرة) حين قال : " وأرى ان ابن سعيد يأخذ المعاني المسبوق بها فلا يحسن التعبير عنها حسنا يرضي بلغاء الادب ونقاد الشعر، واكثر معانيه في قصائده كذلك "(١)

وعلى العموم فان كد القريحة عند ابن سعيد لا يتجاوز محصوله الصورة او الفكرة الغريبة، المبالغ فيها ، الكثيرة التفاصيل ، المستحيلة أحيانا . وصوره — كما ذكر من قبل — تتصف بالجمود والسكون في معظمها .

ولقد اغرم ابن سعيد بما يسمى في البلاغة بحسن التعليل ، وله في ذلك أفكار كثيرة تبلغ حد المبالغة البعيدة والاحالة . من ذلك قوله يعلل وجود الريش في السهام (٢) :

قد كستْها الطيورُ لما رأتهَا كافلاتٍ لها برزقٍ عميم

وقوله يعلل أيضا هجوم ثور على صاحبه (٣) :

ثار ثورُ السماء في الارض لمّا أن رأى منك نَيِّرًا قمريا

وقوله مفسرا لم لا يهب معد وحوه الكواكب والصباح ، في مدح مزدوج (٤) :

لولم يخافوا تيهَ سارٍ نحوهم وهبوا الكواكبَ والصباحَ المُسفرا

وربما عادت هذه القدرة على حسن التعليل في الشعر الى اللباقة الاجتماعية التي عرفت عن ابن سعيد ، فان من مقومات اللباقة امتلاك البراعة والقدرة على ابداء الاعذار والاسباب .

---

١) انظر طبعة النفح التي راجعتها وزارة المعارف بمصر وصدرت باسم " دار مطبوعات المأمون " ، ج ٨، ص ٥٦ في هامش الصفحة . وهذه الطبعة هي غير الطبعة المعتمدة في هذا البحث — أنظر قائمة المصادر والمراجع ، ص ٥٦ ح

٢) المصدر السابق ٣٧/٣ النفح

٣) القدح ٢

٤) المغرب ١٧٥/٢

ويبدو ان ابن سعيد يلجأ الى كد القريحة والعمل الذهني المركز عندما ينظم في حالة هدوء وبعد عن أي نوع من انواع الانفعال ـ وقد نظم أغلب اشعاره وهو في هذه الحالة ـ اما عندما يكون تحت تأثير انفعال معين فانه يلجأ الى الاسلوب التقريري المباشر وتختفي الصور بشكل ملحوظ، وحتى اسلوبه يفقد صقله ويقرب من الخشونة او بعض الركاكة . وهذا يدل على ان الصورة الشعرية عنده ليست مرتبطة بالتجربة الشعورية بقدر ارتباطها بالبراعة الذهنية وكد القريحة . ويتضح هذا التمييز بجلاء عندما نقارن بين اشعاره في الاغتراب وبين اشعاره في المديح وفي الوصف. ففي الاولى نلمس أثرا للعاطفة ونفتقد الصور الدقيقة والاسلوب الصقيل وفي الثانية نرى العكس تماما : عاطفة تكاد تكون (أو هي منعدمة) منعدمة بالفعل، وعمل شعري حافل بالصور، مغلّف باسلوب صقيل .

واسلوب ابن سعيد يفتقر الى التدفق والجزالة، وهو ان حاول اصطناعهما وقع في تكلف واضح لا يلبث ان يكون معجوجا بعد بيتين او ثلاثة . ولتعويض ذلك يلجأ الى التأنق والصقل وهي طريقة تتناسب مع مذهبه في ايراد الصورة والفكرة . وعلى هذا الاساس جاء اسلوبه على الاغلب مثقلا بالبديع والمحسنات اللفظية بشكل واضح ، وقد اتضح لنا ذلك من امثلة سابقة . وهو مايكاد يهمل التأنق والصقل الشديد حتى يقع في شيء من الركاكة تجعل من نظمه عبارات تصنيفية تربط بينها " انما " و " حيث " و"لكن " الخ من الادوات السائدة في النثر والتي يؤثر تكرارها على سلامة الاسلوب الشعري . فمن ذلك قوله في هذا البيت:

ولقد شكوتُ لهم إحالةَ وُدّهم ... ان لم أكن أرضى بهم خُدماءَ

وقوله : والا ماني تَتْرى، ولا أحدٌ ينصح، ... اذ لا يُصغى الى قولِ ناصح

وقوله : ولكن أبى ألّا يحنّ لغيرِكم ... وألّا يرى عنكم مدى الدهرِ مذهبُ الخ الخ

تأثيرات متعددة في شعره

بعد ان تعرفنا الى شعر ابن سعيد عن كثب ، يجمل بنا ان ننظر في التأثيرات التي سحبت ظلالها على شعره ، ولربما كان من الافضل التحدث عن هذه التأثيرات منذ البدء

الا ان عدم وجود خيط فكرى شعورى يربط المادة الشعرية التي بين ايدينا جعل من الصعب تقديم الحديث عن تلك التأثيرات وتحديد مواقعها بدقة من نتاج ابن سعيد الشعرى. ولربما جاز لنا ان نوجز اهم التأثيرات فيما يلي :

١. بيئة اشبيلية والاندلس: امتازت اشبيلية بنظافة شوارعها ، وأناقة مبانيها ، وترف اهلها وظرفهم وكان طبيعيا ان يتأثر ابن سعيد بمظاهر الاناقة والرقة والترف وهو الذى امضى سني شبابه في الحاضرة الاشبيلية، كما ان الطبيعة الاندلسية الجميلة كان لها أثرها في تعميق اهتمامه بالمنظر الطبيعي من حيث اتخاذه محورا شعريا او من حيث استخدامه في الصور البيانية.

٢. تأثير ثقافته العامة : عكس شعره كثيرا من مظاهر ثقافته الادبية والتاريخية والجغرافية الفلكية. وقد برزت بعض تلك المظاهر بصورة مباشرة في نتاجه الشعرى. من ذلك قوله في رثاء المعظم بن الصالح الايوبي وقد مات قتلا على يد الترك بالسيف والنار والتراب[1] :

ليت المعظَم لم يسرْ من حصنه ... يومـا ولا وافى الى أملاكِه
ان الطبائعَ اذ رأتهُ مكمّـلا ... حسدتـهُ فاجتمعت على اهلاكِه

وقوله في المعنى ذاته واصفا الخمرة[2] :

قد جمعت فيها العناصرُ اذ غدت ... ماءً ونارا في اناءِ هواءِ

وقوله ، وقد ورد البيتان من قبل :

ثار ثورُ السماءِ في الارض لما ... ان رأى منك نيرًا قمريا
جعل النطحَ بين روْقيه بأساً ... فتلقيته بخَمس الثُريـا

وقوله في مدح ابن عمه [3]:

" سعوُل " هذا العصرِ "حاتمُ" جودِه ... "مهلّبُه" ان مارسْته حروبُ

---

١) القدح ٨
٢) المقتطف الورقة ٥٤
٣) النفح ٣/ ٤١ـ٤٢

اذا رَقَمَ القرطاسَ قلت "ابنُ مقلةٍ" وان نظمَ الاشعارَ قلت "حبيبُ"
فتى سيّرَ الامداحَ شرقا ومغربـــا "ابو دُلفٍ" من دونهِ و "خصيبُ"
وما أحرز "الصوليُّ" آدابَهُ التي اذا ما تلاها لم يجبـــه أديبُ

وربما كانت هذه الظواهر، على تعددها، ظواهر سطحية، ولكن الذى لا شك فيه، وكما ذكر من قبل، ان ثقافة ابن سعيد قد تغلغلت في فنه الشعرى فتأثرت بها أفكاره وصوره في طريقة تركيبها ونحتها كما ان لغته الشعرية عكست مرارا مسحة النثر المستخدم في التأليف والتصنيف.

٣. تأثيرات شعرية سابقة ومعاصرة

تمت الاشارة الى تكرار ابن سعيد للكثير من معاني الشعر العربي المشهورة، ورأينا كيف احتفظ بالاثر الخمرى و بالصدى النواسي خافتا في اشعاره الخمرية .

بجانب ذلك يمكن تلمس بعض أثر لابي تمام، الشاعر الذى أورد له ابن سعيد في "عنوان المرقصات والمطربات" شعرا يزيد على ما اورده لاى شاعر آخر . وليس مستغربا ان يتأثر ابن سعيد بابي تمام . وهو الذى ـ على الصعيد النقدى ـ ينتمي الى التيار الذى يعتبر أبا تمام اماما في الشعر .

ويتجلى هذا التأثر اكثر مايتجلى في الافتتاحيات وفي اكثاره من استخدام العبارة الانشائية المعهودة عند ابي تمام من مثل : قد كاد اثب، كذا فليجل الخطب ! .. الخ . شبيه بذلك قوله في افتتاح قصيدة مدح :

بالعدل قمتَ وبالسماحِ فَدُنْ، وجُدْ لا فارقتْك كِفايـــةٌ وعَطاءُ

وافتتاح ـ في المدح ـ آخر، وقد سار فيه على الاسلوب ذاته وطرزه بجناس لفظي بين الكرى والقرى :

جُد لي بما ألقى الخيالَ من الكرى لابد للضّيف المُلمِ من القِرى

وهذه المحاولة في جمع فضائل المشاهير في شخص الممدوح :

سموءل هذا العصر، حاتم جوده مهلبه ان مارسته حروب

على غرار بيت ابي تمام في المعتصم :

اقدام عمرو، في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء اياس

والواقع ان هذه الاساليب والمعاني اصطنعها او كررها شعراء عديدون بين ابي تمام وابن سعيد ، وقد لايكون التأثير مباشرا من ابي تمام نفسه ، كما انه ليس من اليسير اثبات وجود تقليد مباشر عند شاعر لاحق بشاعر سابق عبر بضعة ابيات ، الا ان الراجح — كما تبين — ان ابن سعيد ، على العموم، يتحرك ضمن تيار المحدثين نقدا وشعرا .

وثمة أثر مغاير لاثر ابي تمام يمكن تلمسه في شعره : هذا الاثر يتمثل في نوع من الصدى الخافت (أيضا) للمتنبي . وقد يكون من المستغرب اجتماع الاثرين — على مابينهما من تباين — في نتاج شعري واحد . الا انه اذا ثبت وجودهما معا فان ذلك دليل آخر على انعدام " الخاصية الموحدة " في شعر ابن سعيد :

هذه قصيدة عتاب تمت الاشارة الى بعض ابياتها قبل قليل، يوجهها ابن سعيد الى ابن عمه وزير الحفصيين في تونس، وفيها تظهر اقتباسات مباشرة لمعان مشهورة في شعر المتنبي .. ويتعدى الامر مجرد الاقتباس الى محاولة اصطناع العجب الشديد بالنفس، وتكلف الجو المعهود بين المتنبي وسيف الدولة :

ولقد كسبت بكم علا ، لكنها صارت بأقوال الوشاة هباء
ولقد أرى ان النجوم تقل لي حجبا وأصغر ان أحل سماء
فليهجروا هجر الفطيم لدره ويساعدوا الزمن الخئون جفاء
فلقد شكوت لهم إحالة ودهم ان لم أكن أرضى بهم خدماء
ايه فذكرهم أقل ، وانما أومي اليك فتفهم الايماء
لولم يكن قيد لما فتكت ظبا انت الذي صيرتهم أعداء
ان لم يكن عطف فمنوا بالنوى ان الكريم اذا اهين تنائى

ونلاحظ في البيت الثاني والرابع مبالغة في العجب بالنفس غير معهودة عند ابن سعيد . كما ان الشطر : " أنت الذى صيرتهم أعداء " معنى من معاني المتنبي المشهورة ، وعبارة " أومي اليك فتفهم الايماء " من مخاطباته المعتادة لسيف الدولة .

ومحاولة أخرى على غرار السابقة يحاول فيها ان يصطنع اسلوبا جزلا يقرب من افتتاحيات المتنبي في جوها المتدفق، المعاتب ، ذى الطابع البدوى :

أما واجبٌ الا يحولَ وجيبُ ... وقد بعدت دارٌ وبانَ حبيبُ ؟
وليس اليفٌ غيرَ ذكرِ وحسرةٍ ... ودمعٍ على من لا يرقّ صبيبُ
وخفق فؤادٍ ان هفا البرقُ خافقا ... وشوق كما شاء الهوى ونحيبُ
وفائي اذا ماغبتُ عنكم مجدد ... وغيرى ذو غدرٍ أو ان يغيبُ
ولولم يكن مني الوفاءُ سجية ... لكنت لغير ابن الحسين أنيب

وهكذا يحسن التخلص ليأتي الى ذكر ممدوحه ، ثم ليعاتبه على وتر المتنبي المشهور " فيك الخصام، وانت الخصم والحكم .

أشكوكَ، أم أشكو اليك ؟ فما عَدَتْ ... عداتيَ حتى حان منك وثوبُ

ومن الطريف ان نلاحظ ان ابن سعيد في هذه القصيدة سرعان مايفقد هذا النفس المصطنع ، فتتلاشى آثار الجزالة ويخفت العجب بالنفس والاحساس بالصداقة الحميمة ، لينتهي بهذين البيتين حيث النظم قريب من الركاكة والحديث ضعيف متهالك :

ساشكر ماولّى ، وأصبرُ للذى ... توالى ، على ان العزاءَ سليبُ
قدم في سرورٍ مابقيت ، فانني ... — وحقّك — مذ دبّ الوشاةُ كئيبُ !

مما يدل على ان مطلع القصيدة فيه الكثير من الجهد والتكلف ومحاولة اللحاق بنموذج شاهق . وشبيه بذلك هذه المبالغة في الرثاء [1] :

بكت لك حتى الهاطلاتُ السواكبُ ... وشقّت جيوبا فيك حتى السحائبُ
فكيف بمن دافعتَ عنه ، ومن به ... أحاطتْ ، وقد بوعدت عنه ، المصائبُ

---

١) النفح ٣/٤٧ـ٤٨

وهي محاولة كسابقتها تنتهي بنوع من النظم المتهالك :

ولكن قضاءُ الله ، من ذا يردُّه ... فصبرا ! فقد يرضى الزمانُ المغاضبُ
واني لأدري ان في الصبرِ راحةً ... اذا لم تكن فيه عليَّ مثالبُ

ويسير ابن سعيد — خلف من سار وراء المتنبي — في تساؤل العارف المشهور :

أريقكِ ام ماءُ الغمامةِ أم خمرُ ؟ ... فيفصّل ابن سعيد ويفرع[1] :

أوجهُ صبحٍ أم الصباحُ ؟ ... ولحظُها أم ظبا الصفاحُ ؟
وثغرُها أم نظيم درٍ ؟ ... وريقُها أم سُلافُ راحُ ؟
وقدُّها أم قوامُ غُصنِ ؟ ... وعرفُها أم شذا البِطاحُ ؟

الى جانب هذا التأثر بالشعراء السابقين ، يمكننا ان نتوقع وان نتلمس تأثرا ببعض الجوانب من شعر ابن سهل . فابن سهل — كما رأينا — صديق مقرب لابن سعيد ، وربما كان أكبر شاعر صحبه وعاشره وعاصره ، ولهما مقطعات مشتركة في وصف بعض جلسات اللهو والسمر في منتزهات اشبيلية ولقد شارك ابن سعيد صاحبه — على صعيد الشعر — أمورا عدة . شاركه الميل الواضح الى شعر الطبيعة والى الغزل الغلماني ، وشاركه الاحتفال بالصورة البيانية وشاركه الميل الى الاسلوب الرقيق في موضوعي الطبيعة والغزل خاصة ، الا انه لم يشاركه بالطبع مزاياه التي جعلت منه شاعرا مجيدا وأخصها حدة الانفعال والاسلوب وحتى في الصور التي شاركه فيها لم يكن بالمجيد اجادته . فلقد كان ابن سهل يأتي بالصورة البيانية اكمالا لرسم جو القصيدة بينما ياتي بها ابن سعيد مطولة مفصلة ولذاتها لا لغرض آخر . وكان ابن سهل فذا في اسلوبه السهل الرقيق بينما وجدنا ابن سعيد يقع في براثن النثرية الا نادرا .

فعلى صعيد الصور البيانية نرى ابن سهل يمر سراعا بصورة كهذه في وصف نهر[2] :

وجرت بصفحتهِ الصَّبا فحسبتها ... كفاً تُنمق في الصحيفة أسطرا

---

١) المصدر السابق ٣/٧٧
٢) القدح ٧٥

فاذا بها عند ابن سعيد مفصلة ، تزداد عليها

كأنما النهرُ صفحةٌ كُتبتْ أسطرُها ، والنسيمُ منشئُها

لما أبانت عن حسنِ منظرِها مالت عليها الغصونُ تقروُها

ويأتي ابن سهل بصورة مسرعة للطيور على الاغصان :

والطيرُ قد قامت عليه خطيبةٌ لم تتخذ الا الاراكةَ منبرا

فاذا بالصورة عند ابن سعيد منظر متعدد الجوانب ، مفصل [1] :

أوما نظرتَ الى الحمامةِ تنشدُ والغصنُ من طرب بها يتأوّدُ

ونثارُه تلقاه جائزةً لها لما يزل بيد النسيم يُبدّدُ

ألقى عليها الطلُّ بردا سابغا فثناوه طولَ الزمانِ يُردّدُ

* * *

وبعد فما كان ابن سعيد في تركيبه النفسي رجل " تطرف" ولا " تأزم " بل كان رجل " اعتدال وتوسط " واذا استطاع بسعة اطلاعه الشعرى ان يصوغ شعرا ، فانه لم يكن يمتلك من اسباب الزخم الشعورى المتدفق ولا من مزايا العقل المفكر النافذ مايمكّنه من انتاج شعر يحمل صفات الشعر الجيد . وهكذا نرى كيف تبدأ قصائده بنفس خافت لشاعر يتتبع خطاه لتنتهي بجهد مرهق في صياغة نظم تنعكس فيه آثار الثقافة وميل واضح نحو التفنن في البيان والبديع ، وتبدو عليه بعض رقة في الاسلوب لا تلبث ان تضيع في تراكيب نثرية .

---

١) النفح ٣/٨٢

خـــــــاتمـة

شملت هذه الدراسة، التي حاولت ان تلمّ بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد وآثاره ، مقدمة عن عصره وبيئته ، وفصولا ستة تناولت على التوالي : تاريخ حياته ، شخصيته وثقافته العامة، علمه ومصنفاته ، جهوده الجغرافية، آراءه النقدية، نتاجه الشعرى .

في المقدمة، كان الالتفات بشيء من الاسهاب الى حياة المجتمع والثقافة في الاندلس خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى، وذلك بسبب التفاعل القوى والصلة الوثيقة بين الظاهرات الاجتماعية والثقافية وبين جوانب شخصية ابن سعيد الخصبة التي يمكن للدارس ان يلمس حضورها بشكل او بآخر فيما يتعلق بالنشاط العلمي التصنيفي، او النتاج الشعرى، او الحياة الاجتماعية الجادة واللاهية، او ظاهرة الاسفار والرحلات على حد سواء . وثمة سبب آخر دعا الى الاهتمام بتلك المقدمة وهو عدم توفر ابحاث اجتماعية او ثقافية عن تلك الحقبة في الاندلس ــ بالذات ــ يمكن الاحالة اليها ، فكان لابد لهذه الدراسة ان تعتني بهذا الشأن ــ قدر الامكان ــ حتى لا تبقى دراسة ابن سعيد معلقة دون اطارها الحضارى العام . وقد جاءت الاحكام والتقويمات في ذلك البحث التمهيدى حصيلة استقراء لمصادر الحقبة الاولية، بالدرجة الاولى، دون توكؤ على استنتاجات جاهزة لدى معاصرين محدثين لا لشيء الا لندرة وجود ابحاث علمية موثوقة، كما تقدم .

بعد تلك المقدمة التي تناولت بيئات ابن سعيد المختلفة وتدرجت معها من الاعم الى الاخص، جاء الفصل الاول ليرسم الخطوط الرئيسية في تاريخ حياة ابن سعيد الحافلة بالحركة والاحداث، بصورة تراعي التفاصيل من حيث تأكيدها للخط العام، وتحاول قدر الامكان ــ من ناحية اخرى ــ الا تطغي الجزئيات على التناسب بين المراحل العامة .

ثم جاء الحديث عن شخصية ابن سعيد التي حاولتُ اعادة رسمها من ركام الاخبار والحكايات والنصوص، ولقد تمكنت ـ وارجو ان يكون ذلك بنجاح ـ من استخراج الخاصة المميزة لشخصيته او الخيط الذي يربط بين جوانب تلك الحياة المتنوعة، فوجدت انه التوسط او الاعتدال القائم على اساس من هدوء العاطفة وغلبة التعقل والميل الى كثير من اللطف والتسامح . وقد عولجت في هذا الفصل علاقة التأثر والتأثير بين شخصية ابن سعيد وبين ثقافته العامة، وتم الالتفات الى نواحي هذه الثقافة من حيث علاقتها بميول ابن سعيد النفسية وحياته الشخصية .

وبعد ان تعرفنا الى ابن سعيد في بيئاته المتعددة ومعالم حياته الحافلة وكشفنا عن مكونات شخصيته وميزاتها وما يرتبط بذلك من نزعات وميول، كان لابد من الالتفات الى انواع نتاجه في مختلف الميادين . وهكذا جاء الفصل الثالث ليهتم ـ تفصيلا ـ بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد العلمية : فبحث حدود علمه واتجاهاته، وأرّخ لشيوخه، ثم عرض لمصنفاته مصنفا مصنفا في اطار من التقسيم النوعي، وبعد ذلك المح لموقفه ـ مصنفا ـ من تيار المذاهب التصنيفية في الاندلس وعُدّدت مزايا منهجه التصنيفي، ثم حددت اهمية جهوده مع اشارة الى مكانته وشهرته كما تتمثلان في نظرة القدماء والمعاصرين اليه .

وفي هذه المرحلة من البحث تهيأ المجال لتناول فروع انتاجه كلا على حده . وهذا مافعلته الفصول الثلاثة الاخيرة المهتمة بجغرافيته ونقده وشعره على التوالي .

والواقع ان الفصل الخاص بجغرافية ابن سعيد جاء عرضا عاما لجهده في حقل التأليف الجغرافي والرحلات بقصد اكمال الصورة والتنبيه الى مكانة ابن سعيد في هذا الحقل، فلم تجر محاولة لتقييم مؤلفاته او نقدها، اولا لعدم الاطلاع على اهم مؤلف جغرافي له، وثانيا ـ وهذا هو الاهم ـ لان ذلك من شأن علماء الجغرافية، فهم وحدهم الذين يمكنهم ان ينقدوا مؤلفاته ويربطوها بالتيارات والمدارس الجغرافية السابقة واللاحقة . ومن نافلة القول ان اشير الى ان عملا كهذا خارج عن مقدور هذه الدراسة ونطاقها ومسؤوليتها .

وبالمقابل، اعطيت عناية خاصة لآراء ابن سعيد النقدية ونتاجه الشعرى . وثمة سبب هام للاعتناء بنقد ابن سعيد : ان هذا النقد قد لايمثل جدة وطرافه في حد ذاته ولكن اهميته تكمن في انه تحكم في اختيار ابن سعيد للنصوص المختارة من الشعر والنثر، تلك النصوص التي تعتبر اليوم وثائق هامة في دراسة الشعر الاندلسي والشعر المصرى . ونحن اذ نعتمد عليها اليوم، فمن حسن التنبه ان نكون مدركين للمقاييس التي تحكمت في اختيارها من بين النتاج الادبي كله في تلك العصور .

وقد أدت طبيعة البحث والمادة الى ان يجئ فصل الشعر في النهاية، لان شعر ابن سعيد كان متأثرا أبعد التأثر بمفاهيمه النقدية من ناحية، وبثقافته التاريخية والادبية والجغرافية من ناحية اخرى، فكان لابد من التحدث عنه بعد جلاء تلك الجوانب كلها . الا ان الاهتمام بهذا التأثر لايعني ان شعره قد درس من الخارج، فقد حاولت ـ جهد الطاقة ـ ان اتتبع الظواهر النفسية والفنية فيه، وكنت أحرص دائما على تبين " الجانب الاقوى " في قصائده، بمعنى انني حاولت استخراج اقصى مايسمح لي به الرصد المسؤول منها . واذا لم تكن نتيجة هذه الدراسة عن شعره في صالح مكانته الشعرية، فانها ـ على الاقل ـ كانت اول دراسة مستقصية حول ماوصلنا من هذا الشعر، وانها ـ بدراستها لشعر ابن سعيد ـ قد اسهمت بنصيب متواضع في محاولة درس الشعر الاندلسي خلال عصوره الاخيرة، فابن سعيد ـ كما رأينا ـ يعتبر احد شعراء تلك الفترة وشعره نموذج هام من نماذج شعرها .

واني لارجو ان تكون هذه الدراسة قد قاربت حدود النجاح في التعريف بعلي بن موسى بن سعيد الغرناطي الاندلسي صاحب التواليف المشهورة والجهود المشكورة : هذا الرجل الذى ظهر في عصر غلب فيه التصنيف والنقل والرواية على الابتداع والتأليف والخلق، فبذل جهدا مشكورا في سبيل تسجيل نتاج المبدعين وحفظه لاجيال مقبلة ماكان بامكانها ان تقدر ذلك النتاج ـ خاصة ذلك القسم الاندلسي المتأخر منه ـ لولا جهوده واخلاصه . ولقد كان الرجل رجل اعتدال وتوسط فجاءت حياته وجاء نتاجه

في حدود التوسط والاعتدال . والذى يشوق في حياته الحافلة هو ارتباط هذه الحياة باحداث العالم الاسلامي في القرن السابع ، وبدوله ورجالاته ارتباطا وثيقا بحيث يتمكن المرء من خلال دراسته لابن سعيد ان يدرك الميزات العامة التي يتصف بها العصر .

واذا جاز لي ان اسجل ميزة بسيطة لهذه الدراسة فهي انها حاولت ان تعيد خلق ابن سعيد الانسان والمصنف الناقد والشاعر من المصادر والنصوص الاصلية دون اعتماد على ابحاث جاهزة . اذ لم تسبق بتحقيق شامل عن حياته ولا بدراسات عن شخصيته او منهجه العلمي او آرائه النقدية او نتاجه الشعرى .

ويحضرني في ختام الخاتمة ما قاله ابو الحسن ـ عليه الرحمة ـ في مقدمة " مشرقه " :

" ... وقطعت مدة طويلة في ترتيبه انسج والحم واقدم واحجم ، الى ان اصبت الهدف [1] ، واتبعت ـ والحمد لله ـ ما سلف بما خلف ، والطل ينزل امام الوبل ، والفضل للوبل لا للطل . على اني معترف بالاتباع ، غير مدع للابتداع ، منشد قول فاتح باب التادب :

لئن نحبت قبلي فهاج لي البكا بكاها لقلت الفضل للمتقدم " .

محمد الانصارى

بيروت : أيار ١٩٦٦

---

١) أرجو ذلك ...

ثبت بالمصادر والمراجع

١ ـ ابن الابار ، محمد بن عبد الله — التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق الفرد بل وابن ابى شنب ، المطبعة الشرقية ، الجزائر ، ١٩١٩ .

٢ ـ ابن الابار ، محمد بن عبد الله — المقتضب من كتاب تحفة القادم ، اختيار وتقييد ابى اسحاق ابراهيم البلفيقى ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣ ـ ابن ابى زرع الفاسى — الانيس المطرب روض القرطاس ، اوسالة ١٨٤٣ .

٤ ـ ابن الاثير ، ضياء الدين — المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر ، الجزء الثانى ، المطبعة البهية ، مصر .

٥ ـ ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن — المنهل الصافى ، الجزء الثانى ، مخطوطة دار الكتب تحت رقم ـ ١١١٣ تاريخ .

٦ ـ ابن الخطيب ، لسان الدين — الاحاطة فى اخبار غرناطة ، نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال .

٧ ـ ابن خلدون عبد الرحمن — كتاب العبر ، الجزء السادس ، طبع بولاق .

٨ ـ ابن رافع ، السلامى — تاريخ علماء بغداد ، المسمى منتخب المختار ، طبع بغداد ، ١٩٣٨ .

٩ ـ ابن الزبير — صلة الصلة ، تحقيق أ . بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٧

١٠ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — بسط الارض فى الطول والعرض ،تحقيق خوان خينيس ، معهد مولاى الحسن ،تطوان ،١٩٥٨ .

١١ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق غرسيه غومس ، مدريد ،١٩٤٢ .

١٢ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — عنوان المرقصات والمطربات ،بولاق ،١٢٨٦ هـ ، وكذلك القسم المغربى من الكتاب ،تحقيق محداد عبد القادر ،الجزائر ،١٩٤٩ .

١٣ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — الغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة ،تحقيق ابراهيم الابيارى ،دار المعارف بمصر ،١٩٤٥ .

١٤ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — القدح المعلى فى التاريخ المحلى ،اختصره ابوعبد الله محمد بن خليل ،تحقيق ابراهيم الابيارى ،القاهرة ، ١٩٥٩ ـ .

١٥ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — المشرق فى حلى المشرق ،نسخة مصورة عن مخطوطة بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٥٣٢ ـ تاريخ .

١٦ ـ ابن سعيد ،على بن موسى — المغرب فى حلى المغرب ،الجزء الخاص بالاندلس وعنوانه الاصلى " وشي الطرس فى حلى جزيرة الاندلس" يقع فى جزئين ،تحقيق الدكتور شوقى ضيف ،دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ .

١٧ ـ ابن سعيد، على بن موسى — المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الاول من القسم الخاص بمصر وعنوانه الاصلى " الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط " ، تحقيق الدكاترة : زكى حسن ، شوقى ضيف ، سيدة كاشف ، القاهرة ١٩٥٣ .

١٨ ـ ابن سعيد ، على بن موسى — المقتطف من ازاهر الطرف ، نسخة مصورة عن مخطوطه مكتبة سوهاج تحت رقم ٣٠٣ ادب .

١٩ ـ ابن سعيد ، على بن موسى — نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقم ١١٦٦ تاريخ .

٢٠ ـ ابن شاكر الكتبى — فوات الوفيات ، الجزء الثانى ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ

٢١ ـ ابن عذارى المراكشى — البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسى ميراندة ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٦٣ .

٢٢ ـ ابن فرحون برهان الدين — الديباج المذهب فى اعيان المذهب ، مطبعة المعاهد ، مصر ١٣٥١ هـ .

٢٣ ـ ابن فضل الله العمرى — مسالك الابصار ، نسخة مصورة عن مخطوطه طوبقيوسراى (رقم ـ ٢٧٩٧) ، الجزء الثالث والجزء الثامن .

٢٤ ـ ابو البقاء الرندى — الوافى فى نظم القوافى ، نسخة مصورة عن مخطوطة " ك "

٢٥ ـ أشباخ ، يوسف

تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، الجزء الثاني ، منشورات " بيت المغرب " بالقاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م .

٢٦ ـ بالنثيا ، آنجل جنثالث

تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، من مختارات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٧ ـ التجاني ، عبد الله

رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسين عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، نشريات كتابة الدولة للمعارف ، تونس ١٩٥٨ .

٢٨ ـ جب ، هاملتون

دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة الدكاترة : احسان عباس ، محمد نجم ، محمود زايد ، دار العلم للملايين بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين ، بيروت ١٩٦٤

٢٩ ـ جبور ، جبرائيل

ابن عبد ربه وعقده ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣ .

٣٠ ـ حتى ، فيليب

تاريخ العرب (مطول) بالاشتراك مع الدكتور جبرائيل جبور والدكتور ادورد جرجي ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٣١ ـ حسن ، زكى محمد — الرحالة المسلمون في القرون الوسطى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٥ .

٣٢ ـ حسن ، زكى محمد — فنون الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٣٣ ـ زيدان ، جرجى — تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الثالث ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩٣١ .

٣٤ ـ السيوطى ، جلال الدين — بغية الوعاة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

٣٥ ـ السيوطى ، جلال الدين — حسن المحاضرة ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ

٣٦ ـ عباس ، احسان — تاريخ الادب الاندلسى (عصر سيادة قرطبة) ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ .

٣٧ ـ عباس ، احسان — تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) الطبعة الاولى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٢ .

٣٨ ـ الغبرينى ، احمد — عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجايه ، تحقيق محمد بن ابى شنب ، المطبعة الثعالبية الجزائر ، ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠

٣٩ ـ القلقشندى ، احمد — صبح الاعشى ، الجزء الثالث والجزء الرابع والجزء الخامس دار الكتب الخديوية ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩١٤

٤٠ ـ القلقشندى احمد — قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الاولى ، نشر دار الكتب ، القاهرة .

٤١ ـ القلقشندى احمد — نهاية الادب فى معرفة انساب العرب تحقيق على الخاقانى ، منشورات دار البيان ، بغداد ، ١٩٥٨ .

٤٢ ـ كراتشكوفسكى ، أ. ي. — تاريخ الادب الجغرافى العربى ، القسم الاول ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، من مختارات الادارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١

٤٣ ـ مجهـــول — الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق ى . س . علوش ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية رباط الفتح ١٩٣٦ .

٤٤ ـ المقرى ، احمد — ازهار الرياض ، الجزء الثالث ، طبعة مصر .

٤٥ ـ المقرى ، احمد — نفح الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، الاجزاء : الاول والثالث والرابع والخامس ، الطبعة الاولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٤٩ .

٤٦ ـ المنونى ، محمد — العلوم والاداب والفنون فى عهد الموحدين ، منشورات معهد مولاى الحسن ، المطبعة المهدية ، تطوان (المغرب ١٩٥٠ .

٤٧ ـ الناصرى ، احمد — الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الجزء الثانى ، دار الكتاب الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

٤٨ ـ ياقوت الحموى — معجم الادباء ، الجزء السادس عشر ، مطبوعات دار المأمون بمراجعة وزارة المعارف ، مصر .

٤٩ ـ ياقوت الحموى — معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥

مراجـــع عامـــــــة

٥٠ ـ الموسوعة الاسلامية — مادة : " ابن سعيد المغربـــى "
مادة : " جغرافيـــــا "

مراجع اجنبية عامـــــــة

٥١ ـ Brockelmann, C., Greschichte der Arabishen Litteratur, supplementband III , Leidenm , 1942.

٥٢ ـ Kammerer , A. , La Mer Rouge , L'Abyssinie , et l'Arabie depuis l'Antiquité, vol. I , Le Caire ; 1935.

فهرس المحتويـــــات

الموضـــوع	الصفحـــة
تمهيد : هذا البحث	١
مقدمة : عصر ابن سعيد وبيئته	٨
الفصل الاول : تاريخ حياة ابن سعيد	٦١
الفصل الثانى : شخصيته وثقافته العامة	٨٥
الفصل الثالث : علمه ومصنفاته ومنهجه	١٢٠
الفصل الرابع : ابن سعيد الرحالة الجغرافى	١٧٦
الفصل الخامس: آراؤه النقديـــة	١٩٢
الفصل السادس: شعر ابن سعيـــد	٢١٥
خاتمـــــة	٢٥٢
ثبت بالمصادر والمراجع	٢٥٦
فهرس المحتويـــــات	٢٦٢

خلاصة

لأطروحة : "ابن سعيد ،حياته وآثاره"

هذا بحث تعريفي شامل لمصنف ورحالة واديب وشاعر من العصر الموحدي في الأندلس، هو عليّ بن موسى بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٥ م . والهدف من هذا البحث ، الذي ألمّ بمختلف الجوانب الشخصية والعلمية عند ابن سعيد ، تقديم دراسة شاملة ومستقصية عن علَم من أعلام النهضة الثقافية الاخيرة في الاندلس ومصنّف من كبار المصنفين العرب في القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) ، هذا المصنّف الذي تُعتبر كتبُه ،وفي طليعتها " المُغرب في حلى المَغرب" ، وثائقَ هامة في دراسة الادب الاندلسي عامة والادب المصري والشامي في العهد الايوبي .

يقع هذا البحث في مقدمة وستة فصول .

تهتم المقدمة بعصر ابن سعيد وبيئاته : الاقليمية والمحلية والعائلية ، فتوجزُ خصائصَ الوضعِ السياسي والثقافي في المَشرق والمَغرب في ذلك الوقت، ثم تلتفتُ بشيء من التفصيل الى الوضع السياسي والثقافي في الاندلس فتتتبّعُ التطوراتِ السياسية الهامة في النصف الاول من القرن السابع وتذكرُ خصائص المجتمع والثقافة في ذلك الوقت مشيرةً الى مواقف المثقفين من وضع مجتمعهم ، وخط سير العلوم المختلفة ، الادبية والجغرافية خاصة ،والمراكز الثقافية الشهيرة . وبعد ذلك تنتقل الى تقديم صورة شاملة عن بيئة اشبيلية من مختلف جوانبها وتُتبع ذلك بحديث موجز عن أُسرة بني سعيد ونشاطها الثقافي بقصد اعطاء فكرة عن بيئة ابن سعيد العائلية .

ويختص الفصل الاول بتاريخ حياة ابن سعيد ، حيث يعيد صياغة هذا التاريخ من الاخبار والروايات المتفرقة حسب الترتيب الزمنى ليرافق ابن سعيد فى حياته المبكرة فى وطنه الاندلس وفى رحلاته الى اقطار المشرق بعدئذٍ .

اما الفصل الثانى فيبحث فى شخصية ابن سعيد وثقافته العامة ويركز على عوامل تكوين شخصيته ثم على المزايا والخصائص التى نشأت تأثرا بتلك العوامل .

ويتحدث الفصل الثالث عن علمه ومصنفاته ومنهجه فيتعرض على التوالى : لحدود علمه واتجاهاته ثم لاساتذته ثم لمصنفاته على اختلاف انواعها ثم لمنهجه فى التأليف .

ويأتى الفصل الرابع ليتحدث عن ابن سعيد الرحالة الجغرافى حسب الترتيب التالى : نظرة فى جغرافيته الادبيه حيث دخل التصور الجغرافى فى اساس تركيب كتابيه الادبيين الكبيرين " المغرب" و"المشرق " ، ثم حديث عن ادب الرحلة عنده على ضوء ما تركه لنا من مذكرات عن زياراته لمصر ثم عرض لجهوده فى الجغرافية الخالصة .

ويشغل الحديث عن آرائه النقدية الفصل الخامس ، حيث التفت الى مواقفه النقدية العامة وموقفه من التيارات النقدية فى تاريخ الادب العربى ،

ثم فُصّلت آراؤه الخاصة -او ما يمكن تسميته بنقده التطبيقي الموضعي- فيما يتعلق بالشعر والنثر على حد سواء ..

وجاء الفصل السادس والاخير من هذا البحث ليتحدث عن شعر ابن سعيد . وقد عُرضت في هذا الفصل المظاهر الرئيسية في شعره ثم التُفت الى خصائصه الفنية والى المؤثرات المتعددة التي أثّرت فيه. وعلى العموم فقد رُوعي في هذا البحث - عبر مختلف فصوله - الالتفاتُ الى ميول ابن سعيد الادبية ومزاياه النفسية وآرائه النقدية في حد ذاتها اولاً، استيفاءً لمتطلبات البحث العلمي ، ومن حيث تأثيرها في مصنفاته ثانيا تحقيقا لاحد اهداف هذه الرسالة . فاذا كانت بعض تلك الآراء والميول لا تنال اعجابنا الآن من حيثُ هي، فانها قد اثرت في مصنفاتٍ تُعتبر وثائقَ مهمة للدارس الحديث المهتم بتاريخ الادب العربي ، ولا بد له اذا اراد ان يُحسن استعمالَها من التنبُّهِ الى المؤثرات التي اثرت فيها .